فطرية الدين

وبيان معنى أن كل الناس يولدون مسلمين

أو

اقتضاء الفطرة الإسلام

إعداد

محمد بن أحمد إسماعيل المقدم

ـ عفا الله عنه ـ

الأمل
ALAMAL
للنشر والتوزيع

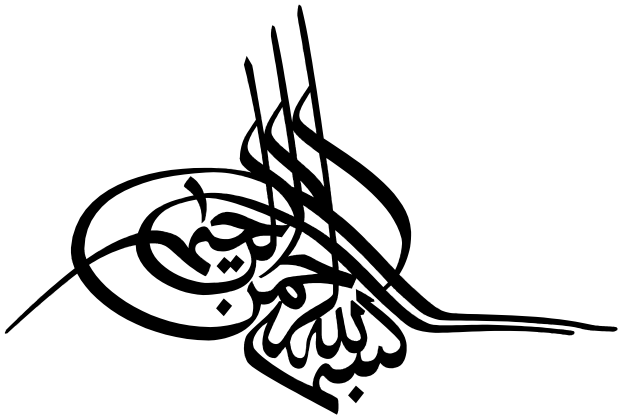

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة

رقم الإيداع

٢٠١٢/٢٥٥٩

الأمل
ALAMAL
للنشر والتوزيع

دار الأمل للنشر والتوزيع والترجمة

٠١١٢٠٧٧٤٩٩٠ — ٠١٠٠٠٢٨٢١٦٦

alamal-publications.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي فطر عبادَه على الحق ، وجعل لهم السمعَ والأبصارَ والأفئدةَ لعلهم يشكرون ، والصلاةُ والسلامُ على مَن أرسله الله بالهدى ودينِ الحق ليظهره على الدينِ كلِّه ، ولو كَرِهَ المشركون .

أما بعد ؛

فإن قضية الإيمان هي أخطر قضية في حياة كل إنسان ، لأن موضوعها الصلة بين الخالق والمخلوق ، وعليها يتوقف مصير الإنسان في الدنيا ، ومصيره الأبدي في الآخرة ، حيث الخلود بلا انقطاع إما في دار السعداء ، وإما في دار الأشقياء ، وما كان هذا شأنه فحريٌّ بالإنسان أن لا يقر له قرار ، ولا يهدأ له بال ، ولا تكتحل له عينٌ بغَمْضٍ حتى يتحرى الحق في هذه القضية ثم يصيبه ويتبعه قبل فوات الأوان .

قال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ .

[غافر: ٢٨]

وفي الخبر : « عجبتُ لطالب الدنيا والموت يطلبه ، وغافلٍ وليس بمغفولٍ عنه ، ولضاحك ملءَ فِيه ولا يدري أأرضى الله أم أسخطه » [(١)] .

إن قضية الإيمان هي قضية كل إنسان من آدم إلى أن تقوم الساعة ، إنها قضية ممتدة لا يحصرها زمان ولا مكان ، ولا يحدها جنس ولا لون ولا لسان .

---

(١) رُوي مرفوعًا ، لكنه ضعيف جدًّا ، انظر : « السلسلة الضعيفة » رقم [٧٤٣] .

قال الله تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة: ٣٦] ، وقال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار: ٦ – ٨] ، وقال عز وجل مخاطبًا كل البشر : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ [يونس: ١٠٨] ، وقال جل وعلا : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٨] ، وقال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ٢١] .

ومن رحمة الله بعباده أن يسَّر لهم طريق الإيمان وتكاليفه ، قال تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦] .

وتنوعت مظاهر هذه الرحمة :

١ . إذ أخذ منهم الميثاق القديم حين استخرج ذرية آدم من ظهره وقرَّرهم بالتوحيد فأقروا ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ۝١٧٢ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ۝١٧٣ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢ – ١٧٤] .

وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال :

« يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة : أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتديًا به ؟ قال : فيقول : نعم ، قال : فيقول : قد أردت منك أهون من ذلك ، قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئًا ، فأبيت إلا أن تشرك بي » (١) .

٢ . ثم أخرجهم إلى الدنيا مفطورين على توحيده والإسلام له ، فالفطرة التي فطر الله الناس عليها تتضمن معرفة الله والإيمان به ، هكذا خلقها فاطرها ، فجعل

---

(١) رواه البخاري رقم [٣٣٣٤] ، ورقم [٦٥٣٨] ، ومسلم رقم [٢٨٠٥] ، والإمام أحمد في « المسند » (٣/ ١٢٧) .

معرفة الله والإيمان به معرفة ضرورية مركوزة في النفوس ، كلِّ النفوس ، خلقها الله في الإنسان كما خلق له عينين ولسانًا وشفتين وغيرها ، فلا يمكن للنفوس جحدها ودفعها ، كما سندلل عليه في هذا البحث إن شاء الله تعالى .

٣. وميزهم عن سائر الكائنات بالعقل ، ليعرفوا به حَقِّيةَ توحيدِه ، وبطلانَ الإشراك به ، وقد بيَّن القرآن الكريم الأدلة العقلية على ذلك ، وأنكر على من لم يستدل بها ، وبيَّن أيضًا أنه بالعقل يُعرف المعاد ، وحسنُ عبادته ـ عز وجل ـ وحده ، وقبح الشرك به [(١)] ، حتى قبل ورود الشرع به [(٢)] .

وبث لهم آياتِ توحيده في الآفاق وفي أنفسهم ، وقال : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ الآية [فصلت: ٥٣] ، وأوجب عليهم النظر والتفكر فيها : فقال تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ [الطارق: ٥] ، وقال سبحانه : ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴾ [عبس: ٢٤]، ولما نزل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ الآيات [آل عمران: ١٩٠] قال صلى الله عليه وسلم : « لقد نزلت عليَّ الليلة آياتٌ ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ الآيات » [(٣)] .

---

(١) انظر : « الدلالة العقلية في القرآن » للدكتور عبد الكريم عبيدات ـ ط. دار النفائس ـ الأردن ـ ١٤٢٠ .

(٢) انظر : « مجموع الفتاوى » (١٦/ ٢٥٢ ، ٢٥٣) ، (١١/ ٦٨١ ، ٦٨٢) ، و « مفتاح دار السعادة » ص (٣٢٨ ، ٣٢٩) ، و « مدارج السالكين » (٤/ ٥٠٣ – ٥١٠) .

(٣) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٢/ ٣٨٦ ، ٣٨٧) رقم [٦٢٠] ، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط : « إسناده قوي على شرط مسلم » .

فائدة :

حكى شاب أسترالي عُرض عليه الإسلام ، وحينما أوشك أن يتخذ قراره النهائي جلس يترقب حصول أية إشارة أو خارقة ترشده إلى الإسلام ، فلم يحدث شيء ، ثم قال : فتحت ترجمة معاني القرآن فإذا بعيني تقع على هذه الآيات : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠] ، ثم =

(إن معرفة وجود الرب الخالق ـ جل جلاله ـ هي أوضح المعارف للعقل البشري على الإطلاق ؛ لكثرة الأدلة عليها ، فقد أدت جميع الكائنات شهادتها بأنها ما وُجدت من غير خالق ، ولا هي أوجدت نفسها ، وإنما أوجدها ربها ـ جل جلاله ـ ، حتى باتت هذه الحقيقة ـ حقيقة وجود الرب الخالق ـ معلومة بالضرورة العقلية ولا يمكن دفعها إلا إذا استغنى الإنسان عن استعمال عقله وتركه بلا تعقل ولا تفكر في كل ما حوله وفي نفسه أو سلك مسلك الاستكبار على الإيمان ظلمًا للحقيقة وظلمًا لنفسه وعقله واستكبارًا على الإيمان .

وعلى ذلك فما من حقيقة توجد عليها من الأدلة التي تدل عليها بقدر الأدلة التي تدل على الرب الخالق ـ جل جلاله ـ ، كثرةً ، وتنوعًا ، ودلالةً ، من حيث إيجادها وتسخيرها وهدايتها لوظائفها في هذا الوجود بما يلائم حياة الإنسان ،

= قال : كم كنت مكابرًا ؟ أبحث عن (آيتي) بالرغم من كل هذه الآيات من حولي .. وقررت أن أُسلم .
راجع قصة إسلامه بصوته في الـ (youtube.com) بعنوان : « قصة إسلام شاب أسترالي » .

يقول الشاعر :

تأمل سطور الكائنات فإنها ... من الملأ الأعلى إليك رسائلُ
وقد خُطَّ فيها لو تأملت خطها ... ألا كل شيء خلا الله باطلُ

وقد قال رجل لجليسه ذات ليلة وهو ينظر في السماء : « لو أن الله كتب في السماء : (لا إله إلا الله ، محمد رسول الله) بخط كبير يقرؤه جميع الناس ، ويبقى في جميع العصور ؛ لآمن الناس كلهم » .
فقال محدثه : « إنها فكرة جميلة ولكنها حرفية ، وإني لأسألك : إذا كنت تريد أن يقرأها جميع الناس على اختلاف مستوياتهم وأجناسهم وأزمانهم ، فبأي لغة تريد أن تُكتب ؟ أَوَلا تدري أن الله تعالى ـ حقًّا ـ قد كتبها ، ولكن بلغة يفهمها جميع هؤلاء البشر في جميع العصور ، ليس على صفحة السماء وحدها ، ولكن في آفاق الأرض وفي أنفسنا ، وفي كل مكان ، قال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣] ، وقال عز وجل : ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٠ ، ٢١] ، وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠] .

فيا عجبًا كيف يعصي الإله ... أم كيف يجحده الجاحدُ
وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحدُ

والعقل يعرف ربه ـ جل جلاله ـ من غير أدنى مشقة لـه في معرفتـه والاهتـداء إلى وجوده وعظمة صفاته . وإنما أرسل الرسل ليس لتعليم الناس وجـود الله تعـالى ، فإن وجوده لا يشك فيه عاقـل ، قـال تعـالى : ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠] ، وقال ـ عز وجـل ـ : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١] ، وقال ـ سبحانه ـ : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخـرف: ٩] ، وإنـما أرسلهم لتعليمهم العقائد والشرائع من أجل عبادة الله ـ جل جلالـه ـ مـزودين بـالمعجزات التي تجعل العقل يُذعن لصدق رسالاتهم التي أرسلوا بها من رب العالمين .

ذلك أن العقل يدرك أن الْمُحْدَث المخلوق لا يخلق شيئًا ، وأن المتفرد بذلك خالقه كما قال تعالى : ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣] ، وكما قال تعالى : ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [النحل: ٢٠] ، وكما قال تعالى : ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧] ، وكما قال تعالى : ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥ – ٣٦] ، ومثل هذا في القرآن كثير) [(١)] .

٤. ثم امتن على عباده بالنعمة العظمى على البشرية بأن أرسل فيهم رسلًا منهم يذكِّرونهم بالميثاق القديم ، ويهدونهم إلى طريق السعادة في الدارين .

إن الضرورة إلى معرفة الرسل والإيمان بهم (أعظم من ضرورة البدن إلى روحه ، والعين إلى نورها ، والروح إلى حياتها ، فأي ضرورة وحاجة فُرِضت ؛ فضرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير) [(٢)] ، ولولا النبوة لبقي الإنسان في ضلاله يترنح بين أنواع الشرك والتخبط .

---

(١) انظر : « موسوعة المسلم في التوبة والترقي في مدارج الإيمان » (١/ ٤١ ، ٤٢) .

(٢) من كلام قيم لابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ ، انظر « زاد المعاد » (١/ ١٥) ، وانظر : « مفتاح دار السعادة » (٢/ ٢) ، و « مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية » (١٩/ ٩٣ – ٩٦) .

والذين يزعمون أنهم مؤمنون بالله ؛ ولكنهم يكفرون بالرسل والكتب لا يقدرون الله حق قدره ، قال جل وعلا : ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١] ، فمن قدر الله حق قدره ، وعلم ما اتصف به من العلم والحكمة والرحمة لا بد أن يوقن بأن الله تعالى أرسل الرسل ، وأنزل الكتب ؛ لأنه تعالى لم يخلق الخلق عبثًا ، قال سبحانه : ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦] ، فمن ثَمَّ اقتضت حكمته ـ عز وجل ـ أن يصطفي بعض عباده لهذا الشرف ، وأن يمن عليهم بالنبوة ، قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥] ، فالنبوة وهبية ، وليست كسبية ، فلا يمكن نيلها بالاكتساب والاختيار ، ولا يمكن عبدًا ـ مهما بلغ من الإيمان والمجاهدة ـ أن يصل إلى مرتبة النبوة باجتهاده وكسبه .

والأنبياء ـ عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ بشر كالبشر ؛ لكن الله اختصهم دون سائر البشر بخاصية فريدة ، وهي تلقي الوحي من عند الله ، قال عز وجل : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠] .

إن الأنبياء هم الواسطة بين الحق والخلق ، والنبوة هي الصلة بين الخالق والمخلوقين ، وهي الوسيلة الوحيدة التي عرفت البشرية من خلالها حقائق عالم الغيب ، وواجبها تجاه خالقها ـ عز وجل ـ ومن خلالها عرف بنو الإنسان منهج النجاة والفوز والسعادة في الدنيا والآخرة ، وبالنبوة قامت حجة الله على العباد ، وانقطعت أعذارهم ، كما قال سبحانه : ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ﴾ [النساء: ١٦٥] ، وقال جل وعلا : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] .

ومن هنا رأينا القرآن العظيم يلح على تأكيد أن الأنبياء ـ عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ هم الأدلاء على ذات الله وصفاته الحقيقية ، وهم الوسيلة

الوحيدة لمعرفة الله تعالى المعرفة الصحيحة ، التي لا يشوبها جهلٌ ولا ضلالٌ ، ولا سوءُ فهم ولا سوءُ تعبير ، ولا سبيل إلى معرفة الله تعالى الصحيحة إلا ما كان عن طريقهم ، لا يستقل بها العقل ، ولا يغني فيها الذكاء ، ولا تكفي سلامة الفطرة [(١)] ، وحِدَّةُ الذهن ، والإغراق في القياس ، والغنى في التجارب .

وقد ذكر الله ـ عز وجل ـ هذه الحقيقة الناصعة على لسان أهل الجنة ، وهم أهل الصدق وأهل التجربة ، وقد أعلنوا ذلك في مقام صدق كذلك حين قالوا : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣] ، وقرنوا هذا الاعتراف والتقرير بقولهم : ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣] [(٢)] ، فدل على أن الرسل وبعثتهم هي التي تمكنوا بها من معرفة الله تعالى ، وعلم مراضيه ، وأحكامه ، والعمل بها ، مما مكَّنهم من الفوز بجنات النعيم .

وفي آخر سورة الصافات نزَّه تعالى نفسه العلية مما يتفوه به المشركون الضالون عن معرفته الحقَّة ، فقال سبحانه : ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠] ، ثم سلَّم على المرسلين الذين جاءوا بالتنزيه والتقديس الكاملين لله تعالى ، وأثنى عليهم ؛ لأنهم أهل الفضل في تعريف الخلق بالخالق ، وفي وصفه ـ عز وجل ـ الوصف الصحيح الصادق فقال : ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٨١] ، ولما كانت بعثتهم مِنَّةً منه على الخلق ونعمة على البشرية ـ وهي من مقتضيات ربوبيته ورحمته وحكمته ـ ختم ذلك كله بقوله : ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٢] .

---

(١) لأن الفطرة تدل على الإسلام بمعناه العام ، وليس بمعناه الخاص ، انظر : ص (١٢٩ ، ١٣٠) .

(٢) بل بيَّن الله ـ عز وجل ـ أن الكفار إذا عاينوا الحقيقة يوم القيامة يقرون أيضًا بأن الرسل جاءت بالحق ، ويتمنون أحد الأمرين : أن يشفع لهم شفعاء فينقذوهم ، أو يردوا إلى الدنيا ليصدِّقوا الرسل ، ويعملوا بما يُرضي الله ، قال تعالى : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ الآية [الأعراف: ٥٣] ، وانظر : « أضواء البيان » (٢/ ٣٥٦ – ٣٥٨) ط. دار عالم الفوائد .

والحاصل أن المؤمن في حصن حصين ، وحمًى مكين : بين عهدٍ وميثاقٍ أُخِذَ عليه ، وأَقَرَّ به في عالم الذَّرِّ ، وفطرةٍ تؤزه على التوحيد ، وعقل يدله على التوحيد ، وآيات مبثوثة في الآفاق وفي الأنفس تشده إلى التوحيد ، ثم رسول يبلغه عن ربه ، وكتاب مجيد محفوظ من التحريف إلى الأبد ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ الآية [الإسراء: ٩] .

ولذلك كان من عدل الله وحكمته أن لا يقبل لمشركٍ مات على الشرك عذرًا أبدًا ، ولذلك كلَّف الله الكافر بأن يبحث عن الدين الحق ، وبأن يصيب الدين الحق ، لوضوح دلائله ، ونصاعة براهينه .

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « **والذي نفسُ محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهوديٌّ ، ولا نصرانيٌّ ، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسِلتُ به ، إلا كان من أصحاب النار** » (١) .

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه مسلم [١٥٣] ، والبغوي في « شرح السنة » رقم [٥٦] .

حَقَائِقُ الوُجُود

لقد كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يفتتح صلاة التهجد بقوله : « **اللهم لك الحمد ، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت مَلِك السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت الحق ، ووعدُك حق ، وقولك حق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والساعة حق ، والنبيون حق ، ومحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ حق** » الحديث [(١)] .

فما أكثر الحقائق في هذا الوجود ، وستبقى حقائق وإن جحدها وكذب بها وتنكر لها بعض الناس بالسفسطة [(٢)] والمراء بالباطل ، ومن خدع نفسه [(٣)] وزاغ عن هذا الحق فإنه « **لا يضر إلا نفسه ، ولا يضر اللهَ شيئًا** » [(٤)] ، وقد قال عز وجل في الحديث القدسي : « **يا عبادي ! إنكم لن تبلغوا ضَرِّي فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني** » إلى قوله تعالى : « **يا عبادي ، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيرًا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نفسه** » [(٥)] .

---

(١) أخرجه البخاري رقم [١١٢٠] ، ومسلم (١/ ١١٩/ ٥٣٢) ، والنسائي رقم [١٦١٨] ، وابن ماجه رقم [١٣٥٥] .

(٢) السوفسطائي : هو الخصم الذي يجادل في الأدلة العقلية الضرورية والبينة بنفسها مغالطةً ومراءً ، وفيه يقول الشاعر :

وليس يصح في الأذهان شيء ... إذا احتاج النهار إلى دليل

(٣) ومن صور خداع النفس قول بعضهم : « أنا أعيش مرة واحدة » ، فبدلًا من أن يستغل هذه الفرصة السانحة في البحث عن الحق واتباعه ليزحزح عن النار ويفوز بالجنة إذا به يستعمل نفس العبارة في تسويغ استرساله مع أهوائه وشهواته التي تشغله عن استغلال فرصته التي يعترف هو نفسه بأنها (وحيدة) .

(٤) قطعة من حديث رواه أبو داود في كتاب النكاح رقم [٢١١٩] ، وضعفه الألباني في « ضعيف أبي داود » رقم [٤٥٩] ، وانظر : « صحيح أبي داود » له رقم [١٨٦٠] (٢/ ٣٩٨ ، ٣٩٩) .

(٥) رواه مسلم رقم [٢٥٧٧] (٤/ ١٩٩٤) .

إن خداع النفس ، والتغاضي عن حقيقة الموت وما بعده ، وتجاهل أدلة التوحيد وصدق الرسول ، والتلبس بكفر الإعراض أو الجحود أو التكذيب ، كل هذا لن يُعفِيَ صاحبه من الحساب بين يدي الله تعالى ، فإنه ــ بعد التمتع القليل بالحياة الدنيا ـ سيموت رغم أنفه ، وسيُبعث رغم أنفه ، وسيُحاسب رغم أنفه ، وسيُخَلَّدُ في النار إلى الأبد رغم أنفه .

❁ ❁ ❁

لقد تكررت في القرآن العظيم كلمة خطيرة سبعًا وثلاثين مرة تصف عذاب أصحاب النار بأنه عذاب (خالد) وأنهم (خالدون فيها) وأنها (دار الخلد) في حقهم .

وأي عاقل يسمع وصف (الخلد) فإنه لا يسعه ـ إن كان يحترم عقله ـ إلا أن يلتزم أقصى درجات الجدية في التعامل مع هذا الوعيد الشديد ، ولابد أن يتذكر قول مؤمن آل فرعون وهو ينصح قومه في شأن موسى ـ عليه السلام ـ ووعيد الله الذي توعدهم به على لسانه عليه السلام : ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾ [غافر: ٢٨] ، وأن يضع نصب عينيه قول الله تعالى : ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: ٢٤]، فعلى أقل تقدير يجب أن تضع احتمال أن هذا الإنسان صادق في وعيده ، ثم تتحرى الحق بتجرد واجتهاد وإخلاص ، قال تعالى : ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ﴾ [سبأ: ٤٦] .

إننا نرى أناسًا يُبتلون في الدنيا بأنواع الآلام فلا يحتملونها ، وقد ينتحر أحدهم ليتخلص منها في زعمه ، فكيف بآلام أبدية ليست آلام الدنيا بالنسبة إليها شيئًا مذكورًا ؟

يـــا إلهـــي شـــاقني هـــذا الوجـــودْ تلـــك دنيـــاك فمـــا بـــال الخلـــودْ

وللنار في الدنيا فوائد ومتاع للناس ، ولكن الله تعالى قدَّم فائدة عظيمة للنار على هذا المتاع حين قال سبحانه : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾ [الواقعة: ٧١ - ٧٣] . فأولى فوائد نار الدنيا أنها تذكركم بنار الآخرة .

وحين عدَّد الله نعمه على الجن والإنس قال سبحانه : ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: ٤٣ - ٤٥] ، فمن نعم الله العظيمة وآلائه الجسيمة على المكلفين أن وصف لهم تفاصيل أحوال جهنم وسكانها وأسباب استحقاق دخولها ، وهم بعدُ في دار التكليف لتقوم عليهم الحجة ، وليأخذوا بأسباب نجاتهم منها .

❁ ❁ ❁

لقد أخبر الحق ـ عز وجل ـ أن الكفار عندما يرون النار يندمون أشد الندم ، ولاتَ [(١)] حينَ مَنْدَم ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [يونس: ٥٤] ، وعندما يطلع الكافر على صحيفة أعماله ، فيرى كفره وشركه الذي يؤهله للخلود في النار ، فإنه يدعو بالثبور والهلاك ، ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴾ [الانشقاق: ١٠ - ١٢] . ويتكرر دعاؤهم بالويل والهلاك عندما يُلْقَوْنَ في النار ، ويَصْلَوْنَ حَرَّهَا ﴿ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾ [الفرقان: ١٣ - ١٤] .

---

(١) لات : كلمة معناها (ليس) . تقع على لفظ الحِين خاصَّةً عند سيبويه ، فتنصبه . وهي تعمل عملَ ليس ، ولكن لا يُذكَر بعدها إلا أحدُ المعمولَيْن . والغالب أن يكون المحذوف هو المرفوع ، نحو : ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص: ٣] ، والتقدير : ولاتَ الحينُ حينَ مناص .
وانظر : « المعجم الوسيط » ص (٨٤٤) .

وهناك يعلو صراخهم ويشتد عويلهم ، ويدعون ربهم آملين أن يخرجهم من النار ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ [فاطر: ٣٧] ، وهم يعترفون في ذلك الوقت بضلالهم وكفرهم وقلة عقولهم ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك: ١٠-١١] ، وقال تعالى : ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ [غافر: ١١] .

ولكن طلبهم يرفض بشدة ، ويجابون بما تستحق أن تُجاب به الأنعام ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون: ١٠٦-١٠٨] .

لقد حق عليهم القول ، وصاروا إلى المصير الذي لا ينفع معه دعاء ولا يقبل فيه رجاء ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٢-١٤] .

ويتوجه أهل النار بعد ذلك بالنداء إلى خزنة النار ، يطلبون منهم أن يشفعوا لهم كي يخفف الله عنهم شيئًا مما يعانونه ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ (٤٩) قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ [غافر: ٤٩-٥٠] .

وعند ذلك يسألون الشفاعة كي يهلكهم ربهم ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٧] .

إنه الرفض لكل ما يطلبون ، لا خروج من النار ، ولا تخفيف من عذابها ، ولا إهلاك ، بل هو العذاب الأبدي السرمدي الدائم ، ويقال لهم آنذاك : ﴿فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦] .

هناك يشتد نحيبهم ، وتفيض دموعهم ، ويطول بكاؤهم ﴿ فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [التوبة: ٨٢] ، إنهم يبكون حتى تنقطع الدموع ، ثم يبكون دمًا ، وتؤثر دموعهم في وجوههم كما يؤثر السيل في الصخر ، ففي مستدرك الحاكم عن عبد الله بن قيس أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « **إن أهل النار ليبكون ، حتى لو أجريت السفن في دموعهم لجرت ، وإنهم ليبكون الدم ـ يعني ـ مكان الدمع** »[(١)] ، وعن أنس بن مالك مرفوعًا بلفظ : « **يرسل البكاء على أهل النار فيبكون حتى تنقطع الدموع ، ثم يبكون الدم حتى يصير في وجوههم كهيئة الأخدود ، لو أرسلت فيه السفن لجرت** »[(٢)] .

لقد خسر هؤلاء الظالمون أنفسهم وأهليهم عندما استحبوا الكفر على الإيمان ، واستمع إلى عويلهم وهم يرددون حال العذاب : ﴿ يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا ٦٦ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ٦٧ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٦٦ – ٦٨] .

وتأمل قوله تعالى يصف حالهم ، ونعوذ بالله من حالهم : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ١٠٦ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٦ – ١٠٧] [(٣)] .

---

(١) أخرجه الحاكم (٤/ ٦٠٥) ، وقال : « صحيح الإسناد » ، ووافقه الذهبي ، وقال الألباني : « حسن إن شاء الله تعالى » كما في « الصحيحة » رقم [١٦٧٩] .

(٢) أخرجه ابن ماجه [٤٣٢٤] ، وانظر « السلسلة الصحيحة » للألباني حديث رقم [١٦٧٩] .

(٣) انظر : « الجنة والنار » للدكتور عمر سليمان الأشقر ـ رحمه الله تعالى ـ ص (١٠٦ – ١٠٩) .

وعن محمد بن كعب القرظي ، قال : « لأهل النار خمسُ دعواتٍ ؛ يُجيبُهم اللهُ في أربعةٍ ، فإذا كانت الخامسةُ لم يَتكلَّموا بعدها أبدًا ، يقولون : ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر: ١١] ؟

فيجيبُهم الله : ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١٢] .

ثم يقولون : ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢] .

فيجيبُهم الله : ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٤] .

ثم يقولون : ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ [إبراهيم: ٤٤] .

فيجيبُهم الله : ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤] .

ثم يقولون : ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧] .

فيجيبُهم الله : ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧] .

ثم يقولون : ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٦ – ١٠٧] .

فيجيبُهم الله : ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] . فلا يتكلمون بعدها أبدًا »[(١)] .

ولا يزال أهل جهنم في رجاء الفرج إلى أن يُذبَحَ الموت ، فحينئذ يقع منهم الإياس ، وتعظم عليهم الحسرة والحزن .

---

(١) رواه ابن جرير في « تفسيره » (١٧/ ١١٩) ، والبيهقي في « البعث » [٦٦٠] ، وانظر : « الدر المنثور » (١٠/ ٦٢٦) .

وفي « الصحيحين » عن أبي سعيد ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قال : « **يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح ، فيوقف بين الجنة والنار ، فيقال : يا أهل الجنة هل تعرفون هذا ؟ فيشرئبون وينظرون ، ويقولون : نعم هذا الموت ، ويقال : يا أهل النار هل تعرفون هذا ؟ فيشرئبون وينظرون ، فيقولون : نعم هذا الموت ، قال : فيؤمر به فيذبح ، ثم يقال : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت** » .

ثم قرأ رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩] ، وخرجه الترمذي بمعناه وزاد : « **فلولا أن الله قضى لأهل الجنة بالحياة والبقاء لماتوا فرحًا ، ولولا أن الله قضى لأهل النار بالحياة والبقاء لماتوا ترحًا** » [(١)] .

❁ ❁ ❁

لقد نبَّهنا الوحي الشريف إلى أن الحياة فرصة ، وأن علينا أن نغتنم هذه الفرصة الثمينة :

(١) ولقد تكرر في القرآن العظيم صيغة : (افعلوا .. من قبل) التي تحرضنا على استغلال هذه الفرصة واستثمارها قبل فواتها :

ـ فقد قال الله ـ عز وجل ـ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٤] .

ـ وقال ـ سبحانه ـ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [النساء: ٤٧] .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في « مسنده » (٣/ ٩) ، والبخاري في « التفسير » (٨/ ٢٨٢) رقم [٤٧٣٠] ، ومسلم (٤/ ٤٠/ ص ٢١٨٨) ، والترمذي (٤/ ٥٩٧) رقم [٢٥٥٨] .

ـ وقال ـ تعالى ـ : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ [الروم: ٤٣] .

ـ وقال ـ جل وعلا ـ : ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الزمر: ٥٤ – ٥٥] .

ـ وقال ـ سبحانه وتعالى ـ : ﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴾ [الشورى: ٤٧] .

ـ وقال ـ تعالى ـ : ﴿ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المنافقون: ١٠ – ١١] .

وإلى نعمة (العُمُر) يشير قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر: ٣٦ – ٣٧] .

فصرَّح بأنه قطع عذرهم في الدنيا بالإمهالِ مدةً يتذكرون فيها ، وإنذارِ الرسل .

قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ هذا جواب دعائهم ، أي : فيُقال لهم ، ومعناه التقرير وليس باستفهام ، والمعنى : أو ما عشتم في الدنيا أعمارًا لو كنتم ممن ينتفع بالحق لانتفعتم به في مدة عمركم ؟

وفي مقدار هذا التعمير أقوال : سبع عشرة سنة ، وقيل : ثماني عشرة سنة ، وقيل : عشرين سنة ، وقيل : أربعين سنة ، وقيل : ستين سنة ، وقيل : سبعين سنة .

وقد ترجم البخاري : (باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر) ، ثم روى حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « **أعذر الله** [(١)] **ـ عز وجل ـ إلى امرئ أخَّر عمره حتى بلغ ستين سنة** » [(٢)] .

قوله تعالى : ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ ، أي : الإنذار ، وفيه أقوال :

الأول : إنه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأن الله بعثه بشيرًا ونذيرًا إلى عباده قطعًا لحججهم ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] .

الثاني : إنه القرآن المجيد .

الثالث : إنه الشيب ، لأنه يأتي في سن الاكتهال ، وهو علامة لمفارقة سن الصِّبا الذي هو سِنُّ اللهو واللعب .

قال الشاعر :

رأيتُ الشيبَ من نُذُرِ المنايا ... لصاحبه وحسبُك من نذيرِ

وقال آخر :

فقلتُ لها المشيبُ نذيرُ عمري ... ولستُ مسَوِّدًا وجهَ النذيرِ

الرابع : هو موت الأهل والأقارب .

الخامس : هو الحُمَّى .

السادس : هو كمال العقل .

---

(١) قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « **أعذر الله إليه** » أي بلغ به أقصى العذر ، والمعنى أنه لم يبق له عذر .

(٢) رواه البخاري في « الرقاق » (١١/ ٢٤٣) رقم [٦٤١٩] .

(٢) ومن هذا قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « **بادروا بالأعمال سِتًّا : طلوعَ الشمس من مغربها ، أو الدخانَ ، أو الدجالَ ، أو الدابةَ ، أو خاصَّةَ أحدكم** [(١)] **، أو أمر العامة** » [(٢)] .

والمقصود : سابقوا ستَّ آيات دالة على وجود القيامة ، وسارعوا بالأعمال الصالحة قبل وقوعها وحلولها ، قال العلائي : « مقصود هذه الأخبار الحث على البُداءة بالأعمال قبل حلول الآجال ، واغتنام الأوقات قبل هجوم الآفات » [(٣)] .

(٣) ومثله قول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « **بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم** » الحديث [(٤)] .

(٤) ومثله قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لرجل وهو يعظه : « **اغتنم خمسًا قبل خمس : شبابك قبل هَرَمِك ، وصحتَك قبل سَقَمِك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغَك قبل شُغْلك ، وحياتك قبل موتك** » [(٥)] .

إذا هَبَّـــت رياحُـــك فاغتنمهـــا ... فعُقبـــى كـــلِّ خافقـــةٍ ســـكونُ

ولا تغفـــل عـــن الإحـــسان فيهـــا ... فمـــا تـــدري الـــسكونُ متـــى يكـــونُ

ومن أخَّر الفرصة عن وقتها ؛ فليكن على ثقة من فوتها :

لـــيس في كـــل حـــالٍ وأوانِ ... تتهيـــا صـــنائع الإحـــسان

فـــإذا أمكنَـــتْ فبـــادرْ إليهـــا ... حَـــذَرًا مـــن تعـــذُّرِ الإمكـــانِ

---

(١) خاصة أحدكم : أي ما يخص الإنسانَ دون غيره ، أراد به الموت الذي يخصه ، ويمنعه من العمل ، إن لم يبادر به قبل حلول الأجل ، قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « **أي إخواني ، لمثل هذا اليوم فأعدوا** » أخرجه البخاري في « التاريخ الكبير » ، وابن ماجه [٤١٩٥] ، وحسنه الألباني في « الصحيحة » رقم [١٧٥١] .

(٢) رواه مسلم [٢٩٤٧] (٤/ ٢٢٦٧) .

(٣) انظر : « فيض القدير » للمناوي (٣/ ١٩٥) .

(٤) رواه مسلم [١١٨] في « الإيمان » .

(٥) أخرجه الحاكم (٤/ ٣٠٦) ، وصححه ، ووافقه الذهبي ، وانظر : « كشف المناهج والتناقيح في تخريج أحاديث المصابيح » رقم [٤١٥٣] .

وبعد :

فبين يديك ـ أيها القارئ المكرم ـ بحث حول مفهوم نفيس هو من خصائص الإسلام ومحاسنه ، إنه مفهوم « الفطرة » الإسلامية ، يتجلى فيه مظهر من مظاهر رحمة الله بعباده وإحسانه إليهم ، وتيسير الإيمان لهم ، ويثبت أن الله يشرح صدر كل إنسان منذ نشأته الأولى للإسلام من غير حاجة إلى حجة ولا برهان ، وقد ساوى الله بين خلقه صغيرِهم وكبيرِهم ، عالمهم وجاهلهم ، باديهم وحاضرهم في ذلك الإحساس الفطري بحقيقة الحقائق في هذا الوجود وهي أن « الله هو الحق » ، فهي تملأ كيان الإنسان ، وتسيطر على وجدانه ، وتدفعه دفعًا إلى التوجه إليه تعالى استمدادًا للمعونة والمدد .

ويثبت ـ أيضًا ـ أن بذرة الإيمان فطرية نابعة من عمق وجدان كل إنسان ، تُنَمِّيها البيئة المسلمة ويرعاها الأبوان المسلمان ، بخلاف الفلسفات الضالة التي ترى أن العقيدة قضايا وأحكام عقلية مجردة مكتسبة من البيئة .

وقد قَدَّمتُ بين يديه هذه التعريفات لاصطلاحات تتعلق بهذا البحث ، وتتكرر في ثناياه ، والله من وراء القصد ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

تعريفاتٌ

١. الفطرة لغةً [(١)] :

الفطرة من فطر الشيء ، يفطره فَطْرًا ، فانفطر ، وفطره ، أي شَقَّه ، وتفطر : تشقق ، فالفَطْرُ : الشق . وجمعه : فُطور ، ومنه فَطَرَ نابُ البعير ، إذا طلع ، وفي التنزيل قوله ـ تعالى ـ : ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ [الانفطار: ١] ، أي : انشقت ، وفي الحديث : عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ : « أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه ... » [(٢)] .

وفطر الله الخلق ، يفطرهم : خلقهم وبدأهم ، فالفَطْر ـ أيضًا ـ : الابتداء والاختراع ، كما قال تعالى : ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [فاطر: ١] ، أي خالقهما ومبتدئهما [(٣)] ، وكما قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : « كنت لا أدري ما ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [فاطر: ١] ، حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر ، فقال أحدهما لصاحبه : أنا فطرتُها ، أنا بدأتها » [(٤)] .

والفطرة ـ أيضًا ـ : الخِلقة ، أنشد ثعلب :

هَوِّن عليك : فقد نال الغنى رجلٌ ... في فطرة الكلب ، لا بالدين والحسبِ

أي في خِلقة الكلب .

فأصل كلمة « فطر » يرجع إلى التشقق ، والابتداء ، والخلق ، والمعنيان الأخيران (الابتداء والخلق) يناسبان المعنى الاصطلاحي .

---

(١) « لسان العرب » (٥/ ٥٥، ٥٦) ، مادة (فطر) .
(٢) رواه البخاري في « صحيحه » رقم [٤٨٧٣] (٨/ ٥٨٤) .
(٣) انظر : « الجامع لأحكام القرآن » للقرطبي (١٤/ ٣١٩) .
(٤) « تفسير القرآن العظيم » (٦/ ٥٥٥) ط . دار الحديث .

٢. الفطرة اصطلاحًا :

وردت لفظة « الفطرة » مصدرًا في القرآن الكريم في آية واحدة هي قوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الروم: ٣٠] ، وإن كان أصل الكلمة قد ورد بصيغ أخرى ـ غير صيغة المصدر ـ في آياتٍ كثيرة ، ترجع معانيها إلى الخلق والابتداء والتشقق ، وهي معانيها اللغوية ـ كما تقدم ـ .

أما السنة : فقد ورد لفظ « الفطرة » مصدرًا في أحاديث كثيرة ، أشهرها حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه ، كمثل البهيمة تُنْتَجُ البهيمةُ ، هل ترى فيها جدعاء »[(١)] ، وفي رواية قال أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ في آخر الحديث : « اقرؤوا إن شئتم : ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ [الروم: ٣٠] »[(٢)] .

وقد اختلف العلماء في المعنى المراد من « الفطرة » التي وردت في آية الروم ، وفي حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ على مذاهب ، أشهرها وأصحها عند عامة السلف من أهل العلم بالتأويل[(٣)] ، أنها الإسلام[(٤)] .

---

(١) انظر تخريجه ص (٦٣) .

(٢) رواه مسلم في « صحيحه » رقم [٢٦٥٨] (٤/ ٢٠٤٧) .

(٣) انظر : « درء تعارض العقل والنقل » (٨/ ٤١٠) ، و « شفاء العليل » ص (٣٨٣) وما بعدها .

(٤) وقد قال مؤمن يس : ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس: ٢٢] ، فالله تعالى هو الذي فطر الإنسان بالمعنى اللغوي للفطرة ، وهو الذي غرس فيه فطرة الإسلام بالمعنى الشرعي للفطرة .
فالفطرتان تتلاقيان فطرة الإنسان ، وفطرة الإسلام .

٣. العلم الضروري :

هو مالم يقع عن نظر [١] ، واستدلال [٢] ، ولا يحتاج في حصوله إلى كسب وفكر ، كالعلم الواقع بإحدى الحواس الخمس الظاهرة وهي : السمع ، والبصر ، واللمس ، والشم ، والذوق ، أو بالتواتر [٣] .

فهو يحصل بالاضطرار والبداهة التي هي المفاجأة والارتجال من دون توقف كتصديقنا أن الشمس طالعة .

وسُمِّيَ ضروريًّا لأن الإنسان يُضطر إليه ، بحيث لا يمكنه دفعه عن نفسه ، ولا يحتاج فيه إلى نظر واستدلال بل مجرد حصول الصوت مثلًا يكفي في أن تدركه الأذن ، وهكذا سائر الحواس .

ومن العلم الضروري : ما يحصل لا عن نظر ولا استدلال ، وليس مُدرَكًا بالحواس الخمس بل ببديهة العقل : كالعلم بأن الكل أعظم من الجزء ، وأن الواحد نصف الاثنين ، وأن البياض والسواد لا يجتمعان في محل واحد ، والعلم بأن الشيء لا يكون موجودًا معدومًا في حال .

٤. الدَّوْر السَّبْقي :

هو توقف الشيء على نفسه ، أي أن يكون هو نفسه عِلَّةً لنفسه ، بواسطة أو بدون واسطة .

---

(١) النظر : هو الفكر في حال المنظور فيه ، ليؤديَ إلى المطلوب .

(٢) الاستدلال : هو طلب الدليل ليؤدي إلى المطلوب ، فمؤدَّى النظر ، والدليل : هو المرشد إلى المطلوب لأنه علامة عليه .
ويقابل العلمَ الضروريَّ : العلمُ النظري (المكتسب) ، وهو ما يحتاج حصوله إلى النظر والفكر والاستدلال ، كالعلم بأن العالَم حادث ، فإنه موقوف على النظر في العالم ، وما نشاهده فيه من التغير ، فينتقل من تغيره إلى حدوثه ، وكتصورنا لحقيقة الروح والكهرباء ، وتصديقنا بأن الأرض ساكنة أو متحركة حول نفسها وحول الشمس .

(٣) فمن العلوم التي لا يقدر الإنسان على دفعها عن نفسه ما يعلمه بالتواتر ، كعلم أحدنا بالكعبة ولم يرها ، ولم يدركها إلا بالخبر المتواتر ، وكذلك العلم بالأنبياء والأئمة الأربعة مثلًا .

والدور مستحيل بالبداهة العقلية .

مثال : أن يقول قائل : « الكون وُجد بنفسه من العدم المطلق » ، وفي هذا دَوْرٌ مرفوض عقلًا ، لأنه يقتضي أن يكون الكون علَّة لنفسه ، وأن يكون معلولًا لها بآنٍ واحد ، والعلة تقتضي سبق المعلول ، وبما أن العلة بحسب الدعوى هي المعلول نفسه ، فإن هذا الكلام يقتضي أن يكون وجود الشيء سابقًا على وجوده نفسه ، وفي هذا تناقض ظاهر ، وهو أن الكون بوصفه علة هو موجود ، وبوصفه معلولًا هو غير موجود ، مع أنه شيء واحد لا شيئان ، فهو إذن بحسب الدعوى « موجود ، وغير موجود » في آنٍ واحد ، والتناقض مستحيل مرفوض بالبداهة العقلية .

مثال ثانٍ : دعوى أن أول دجاجة يتوقف وجودها على أول بيضة ، وأول بيضة يتوقف وجودها على أول دجاجة .

مثال ثالث : أول ماءٍ وُجد في الأرض هو من السحاب ، وأول سحاب وُجد هو من بخار الماء في الجو ، وأول بخار للماء في الجو وجد هو من الماء الذي وجد في الأرض [١] .

٥. التسلسل :

هو أن يستند وجود الممكن إلى علة مؤثرة فيه ، وتستند هذه العلة إلى علة مؤثرة فيها ، وهي إلى علة ثالثة مؤثرة فيها ، وهكذا تسلسلًا مع العلل دون نهاية .

وهذا التسلسل دون نهاية فيما وُجد من الممكنات ، أو فيما هو موجود منها فعلًا ، مستحيل عقلًا [٢] .

---

(١) انظر : « ضوابط المعرفة » للأستاذ عبد الرحمن حبنكة ص (٣٢٣ – ٣٢٦) .

(٢) « نفس المصدر » ص (٣٢٦ ، ٣٢٧) .

مَعْرِفَةُ اللهِ وَتوحيدُهُ فِطرِيّةٌ ضَرُورِيّةٌ

معرفة الرب ـ سبحانه ـ وأنه لا إله إلا هو ، معرفة فطرية [(١)] ضرورية ، بديهية أولية ، لأنها مركوزة في الفِطَر بغير استدلال عليها .

فإذا تُركت الفطر بلا فساد يطرأ عليها فإن القلب يعرف ربه ـ ضرورة ـ ويحبه ، ويعبده وحده دون سواه .

إن الفطرة هي مستند التسليم بوجود الله تعالى وإثبات الكمال المطلق له من جهة كونها قوة علمية ، كما هي مستند توحيد الله تعالى وإخلاص القصد له من جهة كونها قوة عملية ، ولولا ذلك لم يكن مقتضاها فطريًّا .

---

(١) المقصود بفطرية معرفة الله وتوحيدِه أن يكون الإنسان مخلوقًا خلقة تقتضي معرفة الله وتوحيده مع انتفاء الموانع الصارفة عن ذلك ، بحيث لا يحتاج الإنسان في ذلك إلى النظر والاستدلال .

فالأصل في الإنسان هو إيمانه الفطري بالله ، وهذه المعرفة الفطرية شيء مركوز في داخل الإنسان خُلق معه ورُكِّب فيه كسائر أعضائه ، ولو قُدِّر أن إنسانًا نشأ وحده ، وتربى وحده ، دون مؤثر خارجي لبَلَغَ مؤمنًا عارفًا بالله تعالى .

ومما يبين أن معرفة الله تعالى من المعارف الضرورية أنه لا يمكن الاستدلال على وجود الله تعالى بمقدمات نظرية ، وإنما يستند إثبات وجود الله تعالى إلى مقدمات ضرورية ، هي مقتضى الإدراك الحسي المباشر لوجود المخلوقات بعد العدم ، وما يتضمنه خلقها من الإحكام والإتقان ، وما يقتضيه ذلك من ضرورة أن يكون لها موجد بناء على مبدأ السببية الضروري .

لِلفِطرةِ حَقِيقتَانِ

فيما يتعلق بمعرفة الله ـ تعالى ـ وتوحيده ، فإن للفطرة حقيقتين : حقيقة نفسية ، وأخرى شرعية .

الحقيقة النفسية للفطرة [١] :

هي مقتضى العلم الضروري الذي يجده الإنسان من نفسه بحيث لا يحتاج في ذلك إلى النظر والاستدلال ، ويدل على هذه الحقيقة النفسية الأدلة العقلية .

الحقيقة الشرعية للفطرة :

هي مقتضى دلالة نصوص الوحيين على فطرية معرفة الله وتوحيده .

وقد جمع القرآن الكريم هاتين الحقيقتين في قوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾[الروم: ٣٠] ، وهذه هي الحقيقة الشرعية ، ثم أضاف إليها الحقيقة النفسية فقال ـ عز وجل ـ : ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾[الروم: ٣٠] .

ثم أكَّد هذه الحقيقة بقوله ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾[الروم: ٣٠] .

❁ ❁ ❁

(١) يأتي الكلام عليها مفصلًا ـ إن شاء الله ـ ص (١٣٧ – ١٥٢) .

الفصل الأول

الحقيقة الشرعية للفطرة

الفصل الأول:
الحقيقة الشرعية للفطرة

إن الحقيقة النفسية للفطرة دلت على أن كل إنسان مخلوق خِلقة تقتضي ـ ضرورةً ـ معرفة الله وتوحيدَه ، وأن هذا ما تقتضيه بالضرورة قوى النفس العلمية والإرادية [(١)] .

وهذا ما يطابق تمام المطابقة مادلت عليه نصوص الكتاب والسنة ، وهو أن كل إنسان يُولد على خِلقة مقتضية للتوحيد وما يتضمنه من معرفة الله والإقرار بوجوده ، وأن مقتضى الفطرة لابد أن يتحقق مع انتفاء الموانع الصارفة عن ذلك .

وذهب إلى هذا أكثر الصحابة والتابعين والأئمة ، منهم : عمر بن الخطاب ، ومعاذ بن جبل ، وأبو هريرة ، وابن عباس ـ رضي الله عنهم ـ ، وشريح ، وسعيد ابن جبير ، وإبراهيم النخعي ، ومجاهد ، وعكرمة ، والضحاك ، والحسن البصري ، والباقر ، وقتادة ، وابن شهاب ، وجعفر الصادق ، والأوزاعي ، وحماد بن زيد ، وأبو عبيد ، والإمام أحمد ، والبخاري ، وابن جرير ، والخلال ، وأصحاب أبي حنيفة ، وابن حزم ، والبيهقي ، وابن تيمية ، وابن القيم ، وابن كثير ، وابن حجر ، والشوكاني ، وغيرهم .

(١) انظر : فصل « الحقيقة النفسية للفطرة » ص (١٣٧ - ١٥٢) .

ذِكْرُ الأَدِلَّةِ عَلَى هَذِهِ الحَقِيقَةِ الشَّرعِيَّةِ

الدَّلِيلُ الأَوَّلُ

قال الله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ (١) لِلدِّينِ (٢) حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

[الروم: ٣٠]

ووجه دلالة الآية على فطرية التوحيد هو أن الأمر بالاستقامة على الدين الحنيف اقترن ببيان أن ذلك هو مقتضى الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، وأن خلق الله للناس على تلك الفطرة سنة مطردة لا تبديل لها .

وفي بيان التلازم بين الأمر بتحقيق التوحيد وبين كَوْنِ ذلك مقتضى الفطرة يقول الإمام ابن جرير في تفسير الآية :

« يقول تعالى ذكره : فسَدِّدْ وجهَك نحو الوجه الذي وجَّهك إليه ربك يا محمد لطاعته ، وهي الدين حنيفًا ، يقول : مستقيمًا لدينه وطاعته ، ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠] ، يقول : صنعةَ الله التي خلق الناس عليها ، ونُصبتْ

---

(١) قوله : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ ﴾ الفاء هي الفاء الفصيحة ، وقد أفصحت عن شرط مقدر دخلت هي على جوابه ، والتقدير : « إذا علمت أحوال المعرضين عن دلائل الحق ، فأقم وجهك للدين » ، والمقصود من الأمر دوام القيام لا بدايته لأنه كان مقيمًا عليه وقت نزول الآية . و(أقم) من أقام العود ، أو قوَّمه إذا عدَّله ، والمراد الأمر بالإقبال على دين الإسلام والاستقامة والثبات عليه ، والاهتمام بترتيب أسبابه ، على أن الكلام تمثيل لذلك ، فإن من اهتم بشيء محسوس بالبصر عقد إليه طرفه وسدَّد إليه نظره ، وأقبل عليه بوجهه غيرَ ملتفتٍ عنه ، وقيل إقامة الوجه للشيء كناية عن كمال الاهتمام به ، وقيل لأن إقامة الوجه تبع لإقبال القلب ، ويترتب على الأمرين سعي البدن ، وقيل : لأن الوجه جامعُ حواس الإنسان وأشرف أعضائه الظاهرة .

(٢) المقصود به دين معين ، فـ(أل) فيه للعهد ، وهو دين الإسلام .

فطرة على المصدر من قوله : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ [الروم: ٣٠] . وذلك أن معنى ذلك : فطر الله الناسَ على ذلك فطرةً » [(١)] .

وقال الحافظ ابن كثير في معناها : « فسدِّد وجهك ، واستمرَّ على الدين الذي شرعه الله لك من الحنيفية ، ملة إبراهيم ، التي هداك الله لها ، وكمَّلها لك غاية الكمال ، وأنت مع ذلك لازم فطرتَكَ السليمة التي فطر اللهُ الخَلقَ عليها ، فالله تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده ، وأنه لا إله غيره » [(٢)] .

و « فطرةَ » منصوبة بفعل مقدَّر ، أي : اتبع فطرةَ الله ، وقيل منصوبة على المصدرية التي دل عليها الفعل الأول (أقم) ومعناها : فطر اللهُ الناسَ على ذلك فطرةً [(٣)] ، وعلى كل تقدير تكون إقامة الوجه حنيفًا هو فطرة الله التي فطر الناس عليها ، وأن ذلك مأمور باتباعه إما صراحة ، أو تلميحًا ، لأنه جاء في صيغة مدح .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ في بيان وجه نصب كلمة (فطرة) في الآية :

« هذا نصب على المصدر دل عليه الفعلُ الأول عند سيبويه وأصحابه ، فدل على أن إقامة الوجه للدين حنيفًا هو فطرة الله التي فطر الناس عليها ، كما في نظائره ، مثل قوله : ﴿ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ [النساء: ٢٤] ، وقوله : ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الفتح: ٢٣] ، فهذا عندهم مصدر منصوب بفعل مضمر لازم إضماره ، دل عليه الفعل المتقدم ، كأنه قال : كتب الله ذلك عليكم ،

---

(١) « جامع البيان » (١١/ ٤٠) .

(٢) « تفسير القرآن العظيم » (٦/ ٣٢٠) ط . الشعب .

(٣) وقيل : إن ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ بدل من ﴿حَنِيفًا﴾ بدل اشتمال ، فهو في معنى الحال من الدين ، وهو حال ثانية ، وهذا يفيد أن هذا الدين مختص بوصفين هما : التبرؤ من الشرك ، وموافقة الفطرة ، انظر : « التحرير والتنوير » (٢١/ ٨٩) .

وسنَّ الله ذلك ، وكذلك هنا : فطر الله الناس على ذلك على إقامة الدين لله حنيفًا ، وكذلك فسره السلف » [١] .

وبذا يظهر أن الفطرة في الآية تقتضي التوحيد ، ولو أن الله قد خلق الناس خلقة قد تقتضي التوحيد ، وقد لا تقتضيه ، لم يأمر بلزوم مقتضاها بإطلاق . فدل على أن الفطرة لا بد أن تقتضيَ التوحيد ، وأن ذلك سنة لا يمكن أن تتبدل ، وهذا مطابق للعموم في حديث الفطرة في قول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « **كل مولود يولد على الفطرة** » .

ولذا أخبر تعالى أن الاستقامة على الدين الحنيف الذي هو مقتضى الفطرة هو الدين القيم . فلا يكون تحقيق التوحيد والدين القيم إلَّا بتحقيق مقتضى الفطرة .

ومما يبين أن الفطرة المأمور بالاستقامة عليها تقتضي الإسلام : إضافتُها إلى الله تعالى ، فلا بد أن تكون ممدوحة ، ولا تكون كذلك إلَّا إذا كانت مقتضية للإسلام .

وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « فطرة الله أضافها إليه إضافة مدح لا إضافة ذم ، فعُلِم أنها محمودة لا مذمومة » [٢] .

(١) « درء التعارض » (٨/ ٣٧٢) .

(٢) « نفس المصدر » ، ونفس الموضع .

تَحقِيقُ المُرادِ مِن قولهِ تعَالىَ ﴿لَاتَبدِيلَ لِخَلقِ اللّهِ﴾ الروم: ٣٠

نقل شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ تفسير شيخ المفسرين ابن جريرٍ الطبري ـ رحمه الله ـ لقوله تعالى : ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠] ، فقال : « وقوله : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ [الروم: ٣٠] : يقول : لا تغيير لدين الله ، أي : لا يصلح ذلك ، ولا ينبغي أن يُفعل .

ثم ذكر بإسناده الصحيح عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد قال : ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ [الروم: ٣٠] . قال : لدين الله .

وروى عن عبد الله بن إدريس ، عن ليث قال : أرسل مجاهد رجلًا يُقال له قاسم إلى عكرمة ، يسأله عن قول الله : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ [الروم: ٣٠] ، فقال عكرمة : هو الخصاء [(١)] . فرجع إلى مجاهد فقال : أخطأ ، لا تبديل لخلق الله إنما هو الدين ، ثم قرأ : ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ .

وروى عن وكيع ، عن نضر بن عربي ، عن عكرمة : ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ : لدين الله . وروى أيضًا عن حسين بن واقد ، عن يزيد النحوي ، عن عكرمة : ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ ، قال : الإسلام .

وكذلك روى عن وكيع ، عن سفيان الثوري ، عن ليث ، عن مجاهد قال : لدين الله .

وروى عن سعيد ، عن قتادة : ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ ، : أي لدين الله .

وكذلك روى عن ابن عيينة ، عن حميد الأعرج قال : قال سعيد بن جُبَيْر : ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ **قال** : لدين الله .

وكذلك عن الُمحَارِبي ، عن جُوَيْبر عن الضَحَّاك في قوله : ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ ، **قال : دين الله** .

---

(١) الخِصاء : من خصاه خَصْيًا وخِصاءً : سَلَّ خُصْيَتَيْهِ وَنَزَعَهما .

وكذلك عن وكيع ، عن سفيان الثوري ، ومسعر ، عن قيس بن مسلم ، عن إبراهيم النَّخعي : ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ ، قال : دين الله .

وكذلك عن مُغِيرة ، عن إبراهيم قال : لدين الله .

وعن عمرو بن أبي سلمة ، سألت عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن قوله تعالى : ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ . قال : لدين الله .

وروى أيضًا عن ابن عباس أنه سُئل عن إخصاء البهائم فكرهه ، وقال : لا تبديل لخلق الله .

وعن حميد الأعرج قال : قال عكرمة : الإخصاء

وعن حفص بن غياث ، عن ليث ، عن مجاهد قال : الإخصاء

قلت [(١)] : مجاهد وعكرمة : رُوي عنهما القولان ، إذ لا منافاة بينهما ، كما قال تعالى : ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١١٩] ، فتغيير ما خلق الله عليه عباده من الدين تَغْيِيرٌ لخلقه ، والخِصَاءُ وقطع الأذُن أيضًا تغييرٌ لخلقه .

ولهذا شبَّه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أحدَهما بالآخر في قوله : « **كلُّ مولود يُولَدُ على الفطرة فأبواه يُهوِّدانه وينصِّرانِه ويُمجِّسانه ، كما تُنتج البهيمةُ بهيمةً جمعاء ، هل تُحسُّون فيها من جدعاء ؟** » .

فأولئك يُغيِّرون الدين ، وهؤلاء يُغيِّرون الصورة بالجَدْع والخِصاء ، هذا تغيير لما خُلقت عليه نفسُه ، وهذا تغيير ما خُلق عليه بدنه) [(٢)] اهـ .

---

(١) القائل هو شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ .

(٢) « درء التعارض » (٨/ ٣٧٤-٣٧٧) ، وانظر : « جامع البيان » (١٨/ ٤٩٤-٤٩٦) .

وقال الإمام المحقق ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله ـ :

« والصحيح من هذه الأقوال ـ يعني في ماهية الفطرة ـ : ما دل عليه القرآن والسنة أنهم وُلدوا حنفاء على فطرة الإسلام ، بحيث لو تُركوا لكانوا حنفاء مسلمين ، كما وُلدوا أصحاء كاملي الخلقة ، فلو تُركوا وخَلْقَهم لم يكن فيهم مجدوعٌ ، ولا مشقوقُ الأذن.

ولهذا لم يذكر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لذلك شرطًا مقتضيًا [(١)] غير الفطرة ، وجَعَلَ خِلافَ مقتضاها من فعل الأبوين ، وقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما يروي عن ربه ـ عز وجل ـ : « **إني خلقت عبادي حنفاء ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم** » .

فأخبر أن تغيير الفطرة التي خُلقوا عليها بأمرٍ طارئ من جهة الشيطان ، ولو كان الكفار منهم مفطورين على الكفر لقال : خلقت عبادي مشركين ، فأتتهم الرسل فاقتطعتهم عن ذلك ، كيف وقد قال : « **خلقت عبادي حنفاء كلهم** » . فهذا القول أصح الأقوال ، والله أعلم » [(٢)] اهـ .

وقال أيضًا ـ رحمه الله ـ :

« فجمع عليه الصلاة والسلام بين الأمرين : تغيير الفطرة بالتهويد والتنصير ، وتغيير الخلقة بالجدع ، وهما الأمران اللذان أخبر إبليس أنه لا بد أن يغيرهما ، فغيَّر فطرة الله بالكفر ، وهو تغيير الخلقة التي خُلقوا عليها ، وغيَّر الصورة بالجَدْعِ والبَتْكِ ، فغير الفطرة إلى الشرك ، والخلقة إلى البتك [(٣)] والقطع ، فهذا تغيير خِلقة الروح ، وهذا تغيير خِلقة الصورة » [(٤)] .

---

(١) مقتضيًا : أي مستوجبًا ومستلزمًا للإسلام .

(٢) « أحكام أهل الذمة » (٢/ ٦٠٩) .

(٣) البَتْك : القطع .

(٤) « إغاثة اللهفان » (١/ ١٠٧) .

وقال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ في تفسير قوله تعالى : ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ :

« للعلماء في تأويلها قولان :

الأول : أنها خبر بمعنى الطلب [١] ، أي لاتبدلوا خلق الله ، فَتُغيروا الناسَ عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها ، وهو معنى صحيح .

الثاني : أنها خبر على بابه [٢] ، وهو أنه ـ سبحانه وتعالى ـ ساوى بين خلقه كلهم في الفطرة على الجِبِلَّة المستقيمة ، لا يُولد أحد إلا على ذلك ، ولا تفاوت بينهم في ذلك ، وهذا هو ظاهر النص [٣] .

وعقد الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ في « صحيحه » [٤] : باب لا تبديل لخلق الله : لدين الله ، ﴿خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ : دين الأولين ، والفطرة الإسلام ، ثم روى حديث أبي هريرة ـ بعد الترجمة ـ ما من مولود إلا يولد على الفطرة .. إلخ .

وصنيع البخاري ـ هذا ـ يدل على أن الفطرة عنده الإسلام ، في الآية والحديث جميعًا .

وقال ابن عباس ، والنخعي ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعكرمة ، وقتادة ، والضحاك ، وابن زيد في قوله تعالى : ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ أي : لدين الله .

وقوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ قال ابن كثير : « أي التمسك بالشريعة والفطرة المستقيمة ، هو الدين القيم المستقيم » [٥] .

---

(١) فتكون (لا) ناهية .

(٢) فتكون (لا) نافية .

(٣) « تفسير القرآن العظيم » (٦/ ٤٣٠) .

(٤) « صحيح البخاري » (٨/ ٥١٢) حديث رقم [٤٧٧٥] .

(٥) « تفسير القرآن العظيم » (٦/ ٣٢٢) .

الفَرقُ بَينَ تَبدِيلِ الفِطرةِ وَتَغيِيرِهَا

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ :

« وأما احتجاج إسحاق [١] ـ رحمه الله ـ ، بقول أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ : اقرأوا إن شئتم : ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾ [الروم: ٣٠] ، قال إسحاق : نقول : لا تبديل للخلقة التي جُبِلَ عليها . فهذه الآية فيها قولان :

أحدهما : أن معناها النهي ، كما تقدم عن ابن جرير أنه فسَّرها بالنهي ، أي : لا تُبَدِّلوا دينَ الله الذي فطر عليه عباده ، وهذا قول غير واحد من المفسرين الذين لم يذكروا غيره كالثعلبي والزمخشري .

والثاني : ما قاله إسحاق : وهو أنها خبر على ظاهرها ، وأن خلق الله لا يُبدِّله أحد . وظاهر اللفظ أنه خبر فلا يُجعل نهيًا بغير حجة ، وهذا أصح .

وحينئذ فيقال : المراد ما خلقهم عليه من الفطرة لا تُبدل ، فلا يُخلقون على غير الفطرة ، لا يقع هذا قط .

والمعنى أن الخلْق لا يتبدل فيُخلقون على غير الفطرة ، ولم يُرِدْ بذلك أن الفطرة لا تتغير بعد الخلق ، بل نفس الحديث يبيِّن أنها تتغير ، ولهذا شبهها بالبهيمة التي تُولد جمعاء ثم تجدع ، ولا تُولد بهيمة قط مخصيَّةً ولا مجدوعة .

وقد قال تعالى عن الشيطان : ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء: ١١٩] ، فالله أقدرَ الخلقَ على أن يغيروا ما خلقهم عليه بقدرته ومشيئته .

وأما تبديل الخلق ، بأن يُخلقوا على غير تلك الفطرة ، فهذا لا يقدر عليه إلا الله ، والله لا يفعله . كما قال : ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾ [الروم: ٣٠] ، ولم يقل : لا تغيير ،

---

(١) يعني على أن المراد بالفطرة المعنى اللغوي الذي هو الخِلقة .

فإن تبديل الشيء يكون بذَهابه وحصول بدله ، فلا يكون خَلْقٌ بدل هذا الخلق ، ولكن إذا غُيِّر بعد وجوده ، لم يكن الخلق الموجود عند الولادة قد حصل بدله .

وأما قول القائل : لا تبديل للخلقة التي جُبِل عليها ولد آدم كلهم من كفر وإيمان ، فإن عنى بها أن ما سبق به القدر من الكفر والإيمان لا يقع خلافه ، فهذا حق . ولكن ذلك لا يقتضي أن تبديل الكفر بالإيمان وبالعكس ممتنع ، ولا أنه غير مقدور ، بل العبد قادر على ما أمره الله به من الإيمان ، وعلى ترك ما نهاه عنه من الكفر ، وعلى أن يبدل سيئاتِه بحسنات بالتوبة ، كما قال تعالى : ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[النمل: ١٠ – ١١] ، و﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان:٧٠] .

وهذا التبديل كله هو بقضاء الله وقدره ، وهذا بخلاف ما فُطِرُوا عليه حين الولادة ، فإن ذاك خلقُ الله الذي لا يَقْدر على تبديله غيرهُ ، وهو سبحانه لا يُبدِّله قط ، بخلاف تبديل الكفر بالإيمان وبالعكس ، فإنه يبدله دائمًا ، والعبد قادر على تبديله بإقدار الله له على ذلك .

ومما يبين ذلك أنه قال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ [الروم: ٣٠] ، فهذه فطرة محمودة ، أمر الله بها نبيَّه ، فكيف يكون فيها كفر وإيمان مع أمر الله ـ تعالى ـ بها ؟ وهل يأمر الله تعالى قط بالكفر ؟ » اهـ[١] .

❁ ❁ ❁

(١) « درء تعارض العقل والنقل » (٨/ ٤٢٤-٤٢٦) .

الفطرة مقتضية للتوحيد وليست مجرد القابلية للتوحيد

ذهب بعض العلماء [١] إلى أن الفطرة لا تقتضي التوحيد ، وإنما هي مجرد القابلية للتوحيد ، بمعنى أن الإنسان قد خُلِق خلقة تختلف عن خلقة البهائم بحيث يمكن أن يوحِّد أو يشرك باختياره ، دون أن يكون في خلقته ما يقتضي ترجيح التوحيد على الشرك ، بل تكون النفس قابلة لأي منهما على السواء .

وحاصل الفرق بين هذا القول والقول بأن الفطرة مقتضية [٢] للتوحيد ، أن الفطرة إذا كانت مجرد القابلية للتوحيد كان تحقق التوحيد للإنسان من الممكنات [٣] التي قد تحصل وقد لا تحصل ، بخلاف ما إذا كانت الفطرة مقتضية للتوحيد ، فإن تحققه لا يكون ممكنًا بل واجبًا إذا انتفت الموانع [٤] .

---

(١) وهم فريق من العلماء فسَّر «الفطرة» بالمعنى اللغوي الذي هو الخِلْقة ، ففسروا قوله تعالى : ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ وقول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « **كل مولود يولد على الفطرة** » الحديث ، بأنها تعني الخِلْقة ، وهذا يقتضي أن الفطرة محايدة بين التوحيد والشرك ، وأنها مجرد القابلية لكل منهما على حَدٍّ سواء ، وعلى هذا التقدير لا يكون في القلب سلامة ولا عطب ، ولا استقامة ولا زيغ ، إذ نسبته إلى كل منهما نسبة واحدة ، وليس هو بأحدهما أولى منه بالآخر ، كما أن الرَّق ـ وهو جِلد رقيق يُكتَب فيه ـ قبل الكتابة فيه لا يثبت له حكمُ مدحٍ كالمصحف ، ولا حكم ذم كقرآنِ مسيلمةَ ، والتراب قبل أن يُبنى مسجدًا أو كنيسة ، لا يثبت له حكمُ واحدٍ منهما .

ولكن الأدلة تؤيد أن الفطرة هنا يراد بها المعنى الشرعي الذي هو أخص من المعنى اللغوي ، وهو كونها تعني الإسلام ، وعليه فإن الفطرة مرجِّحة للتوحيد ، ومنحازة إليه .

(٢) الاقتضاء هنا : الطلب والاستلزام .

(٣) لأن المُدْرَكاتِ الذهنيةَ تنقسم إلى ممكنٍ ، وواجب ، ومستحيل ، والممكن ينقسم إلى موجود ، ومعدوم .

(٤) فيكون تحقق مقتضى الفطرة واجبًا مع انتفاء الموانع فقط ، دونما توفر شرط .

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ : « دل الكتاب والسنة على كون الخلق مفطورين على دين الله ، الذي هو معرفة الله والإقرار به ، بمعنى أن ذلك موجب فطرتهم ، وبمقتضاها يجب حصوله فيها ، إذا لم يحصل ما يعوقها ، فحصوله فيها لا يقف على وجود شرط ، بل على انتفاء مانع ، ولهذا لم يذكر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ =

الدليل الثاني

أن الفطرة هي أثر العهد والميثاق ، الذي أخذه الله ـ سبحانه ـ بنفسه المقدسة من بني آدم ، وهم في عالم الذر قبل الخلق .

قال الله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰۛ شَهِدْنَآۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الأعراف: ١٧٢ – ١٧٤] .

وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « **يقول الله لأهون أهل النار عذابًا : لو أن لك ما في الأرض من شيء كنت تفتدي به ؟ قال : نعم ، قال : فقد سألتك ما هو أهون من هذا وأنت في صلب آدم ، ألا تشرك بي ، فأبيت إلا الشرك** » [(١)] .

في جملة من الأحاديث والآثار التي تدل على أن الفطرة هي الإسلام ، ووجه دلالتها على ذلك هي أن هذا الإشهاد على معرفة الله وتوحيده جعل هذه المعرفة والتوحيد علمًا ضروريًّا لابد من تحققه في كل أحد ، فلا يُحتاج في معرفته إلى النظر والاستدلال ، بل هو فطري ضروري في كل أحد ، وهذا هو مقتضى القول بأن الفطرة هي الإسلام .

إذن هذا الميثاق الذي أخذه الله من بني آدم وأشهدهم عليه ، هو ما يُفطَر عليه كل مولود منهم ، ولا يحتاج إلى مُوجِبٍ من خارج .

= لموجب الفطرة شرطًا ، بل ذكر ما يمنع موجبها ، حيث قال : « **كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه** » اهـ . من « درء تعارض العقل والنقل » (٥/ ٤٥٤) ، وانظر : « شفاء العليل » لابن القيم ص (٦١٣) وما بعدها .

(١) تقدم تخريجه ص (٤) .

« ويشبه هذا على مستوى الجسم ، ما تحمله نطفة المولود ، عندما يُقَدِّر الله ـ عز وجل ـ خروجَها من صُلْب الأب ، ويودعها في رَحِم الأم ، من برنامج دقيق ستسير عليه أثناء التخلق والتكون ، فالنطفة لا تحيد عن هذا البرنامج ، فإن حصل ما يغيره ؛ استمر النمو من غير توقف ، لكنه يسير سيرًا مشوهًا ، يظهر أثره في الجنين بعد ولادته .

فهذا الإصرار في السير الذي يُرى في نمو الجنين في الرحم ، يماثله إصرار الفطرة بعد الولادة على المضي في طريقها وإن اعترضها ما يوجه سيرها إلى وجه غير صحيح » [(١)] .

وعن حماد بن سلمة أنه سُئل عن قول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « **كل مولود يولَد على الفطرة** » ، فقال : « هذا عندنا حيث أخذ العهد عليهم في أصلاب آبائهم » [(٢)] .

واحتج القائلون بهذا بأن التعريف في قول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « **يولد على الفطرة** » فيه إشارة الى معهود ، وهو قوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠] ، لأن معنى المأمور به بقوله : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ ﴾ : اثبت على العهد القديم ، المعنيِّ به قولُه تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ الآية [الأعراف: ١٧٢] [(٣)] .

وبذلك خلقت الذرية كلها مقرة بالإسلام ، ومستقيمة على ملته ، وظلت الخليقة على ذلك وقتًا مقدرًا من الزمان ، حتى دبَّ فيهم الاختلاف ، وابتُدِع

---

(١) « دليل الأنفس » للدكتور محمد عز الدين توفيق ص (٢٣ ، ٢٤) .

(٢) انظر : « فتح الباري » (٣/ ٢٩٣) .

(٣) « الكاشف عن حقائق السنن » للطيبي (١/ ٢٣٥) .

الشرك ، فنُقِضَ العهدُ ، وفسدت الفطر ، وضلت العقول عن المراد من علة الخلق وحكمة التكوين ...

فعندئذٍ رحمة من الله بعباده أرسل رسله مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب ليحكموا بين الناس فيما كانوا فيه يختلفون ، وليُذكِّروا الخلقَ بمقتضى فِطَرِهم من قبل أن يأتيهم عذاب أليم .

قال الله تعالى : ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾[البقرة: ٢١٣] .

فائدة :

نقل الإمام المحقق ابن قيم الجوزية مساجلة بين الإمامين محمد بن نصر وابن قتيبة حول مقتضى آية الميثاق ، فقال : « قال محمد بن نصر : واحتج ابن قتيبة بقوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ الآية [الأعراف: ١٧٢] ، فأجابوا بكلام شاهدين مُقِرِّين على أنفسهم بأن الله ربهم ، ثم وُلدوا على ذلك .

قال محمد بن نصر : فقوله : « ثم وُلدوا على ذلك » زيادة منه ليست في الكتاب ، ولا جاءت في شيء من الأخبار ...

قلت [(١)] : قوله : « ثم وُلدوا على ذلك » إن أراد به أنهم وُلدوا حال سقوطهم وخروجهم من بطون أمهاتهم عالمين بالله وتوحيده وأسمائه وصفاته ، فقد أصاب [(٢)] في الرد عليه .

وإن أراد أنهم وُلِدوا على حكم ذلك الأخذ ، وأنهم لو تُركوا لما عدلوا عنه إذا عقلوا فهو الصواب الذي لا يُرَدُّ » اهـ [(٣)] .

---

(١) القائل هنا : ابن القيم ـ رحمه الله ـ .

(٢) يعني : محمد بن نصر ـ رحمه الله ـ ، وانظر : ص (١٢١-١٢٧) .

(٣) « أحكام أهل الذمة » (٢/ ٥٤٣) .

وقد رجَّح بعض المحققين أن الميثاق المذكور في آية الأعراف هو خَلْقُهم مفطورين على التوحيد [(١)] ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ :

« أما قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (**كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**) : فالصواب أنها فطرة الله التي فطر الناس عليها ، وهي فطرة الإسلام ، وهي الفطرة التي فطرهم عليها يوم قال : ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] ، وهي : السلامة من الاعتقادات الباطلة ، والقبول للعقائد الصحيحة .

فإن حقيقة « الإسلام » أن يستسلم لله ؛ لا لغيره ، وهو معنى لا إله إلا الله ، وقد ضرب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مثل ذلك فقال : « **كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ؟** » .

بيَّن أن سلامة القلب من النقص كسلامة البدن ، وأن العيب حادث طارئ .

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما يروي عن الله ـ عز وجل ـ : « **إني خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا** » [(٢)] .

(١) وقد نُسب هذا القول إلى الأوزاعي ، وحماد بن سلمة ، وحماد بن زيد ، وسحنون ، وممن قال به : ابن قتيبة ، وأبو جعفر النحاس ، وابن بطة ، والطيبي ، وهو اختيار ابن تيمية ، وابن القيم ، وابن كثير ، وغيرهم ، وانظر : « درء التعارض » (٨/ ٤٨٧) ، و « جامع الرسائل والمسائل » (١/ ١١) ، و « أحكام أهل الذمة » لابن القيم (٢/ ٥٢٧) ، و « الروح » له أيضًا (٢/ ٥٥٥) ، و « تفسير القرآن العظيم » (٣/ ٥٠٦) ، و « شرح العقيدة الطحاوية » (٣٠٢ – ٣١٤) .

(٢) « مجموع الفتاوى » (٤/ ٢٤٥) ، وانظر : « درء التعارض » (٨/ ٤٨٢) .

ذِكْرُ جُمْلَةٍ مِنَ الآيَاتِ تَتَضَمَّنُ الإِشَارَةَ إِلَى مَعْنَى آيَةِ الميثَاقِ

١. قال الله تعالى : ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [المائدة: ٧] .

قال شيخ المفسرين الطبري ـ رحمه الله ـ :

« واختلف أهل التأويل في (الميثاق) الذي ذكره الله ـ عز وجل ـ في هذه الآية ، أيَّ مواثيقه عَنى ؟

ـ فقال بعضهم : عنى به ميثاقَ الله الذي واثقَ به المؤمنين من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين بايعوا رسولَ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على السمع والطاعة له فيما أحبُّوا وكرِهوا ، والعمل بكل ما أمرهم الله به ورسوله » [(١)] إلى أن قال :

« وقال آخرون : بل عنى به ـ جلّ ثناؤه ـ ميثاقه الذي أَخَذَ على عباده حين أخرجهم من صُلب آدم ـ عليه السلام ـ وأشهدهم على أنفسهم : ألستُ بربكم ؟ فقالوا : بلى شهدنا » .

ثم ذكر بسنده عن مجاهد في قوله : ﴿وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾ قال : الذي واثَق به بني آدم في ظهر آدم » [(٢)] .

٢. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله تعالى : ﴿وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩] يقول : « أخلصوا له الدين ، كما بدأكم في

---

(١) وهذا ما صوَّبه ابن جرير ، كما في « تفسيره » (٨/ ٢٢١ ، ٢٢٢) ، وابن كثير في « تفسيره » (٣/ ٧٧) .

(٢) « جامع البيان » (٨/ ٢١٩ ، ٢٢٠) .

زمان آدم ، حيث فطرهم على الإسلام . يقول : فادعُوه كذلك لا تدعوا إلهًا غيره . وأمرهم أن يُخلصوا له الدين ، والدعوة ، والعمل ، ثم يُوَجِّهوا وجوهَهم إلى البيت الحرام »[(١)] .

وحكى ابن كثير ـ رحمه الله ـ قول بعض المفسرين : إن المقصود من قوله تعالى : ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ أن الله تعالى بدأ خلق ابن آدم مؤمنًا وكافرًا ، كما قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢] ، ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأهم ، مؤمنًا وكافرًا ، ولذلك قال أبو العالية : « رُدُّوا إلى علمه فيهم » .

ولم يَفُت الإمامَ الجِهْبَذَ ابنَ كثير ـ رحمه الله ـ أن يُعلق قائلًا :

« ولابد من الجمع بين هذا القول ـ إن كان هو المراد من الآية ـ وبين قوله تعالى : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] ، وما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « **كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، وينصرانه ، ويمجسانه** » ، وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « **يقول الله تعالى : إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم** » .. الحديث .

ووجه الجمع على هذا أنه تعالى خلقهم ليكون منهم مؤمن وكافر ، في ثاني الحال ، وإن كان قد فطر الخلق كلهم على معرفته وتوحيده ، والعلم بأنه لا إله غيره ، كما أخذ عليهم بذلك الميثاق ، وجعله في غرائزهم وفِطَرِهم ، ومع هذا قدَّر أن منهم شقيًّا ومنهم سعيدًا : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢] ،

---

(١) « تفسير ابن أبي حاتم » (٥/ ١٤٦٢) رقم [٨٣٦٣] .

وفي الحديث : « **كل الناس يغدو ، فبائع نفسه ، فمُعتقها أو موبقها** » [(١)] ، وقَدَرُ الله نافذ في بريته ، فإنه هو الذي ﴿قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٣] ، و ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] ، وفي « الصحيحين » : « **فأما من كان منكم من أهل السعادة ، فسييسر لعمل أهل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاوة ، فسييسر لعمل أهل الشقاوة** » [(٢)] ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ ثم علل ذلك فقال : ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠] » [(٣)] .

٣. وقال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ :

قوله تعالى : « ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم﴾ أي : لأكثر الأمم ﴿مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٢] أي : لقد وجدنا أكثرهم فاسقين خارجين عن الطاعة والامتثال ، والعهد الذي أخذه هو : ما جبلهم عليه وفطرهم عليه ، وأخذ عليهم في الأصلاب أنه ربهم ومليكهم ، وأنه (لا إله إلا هو) ، فأقروا بذلك ، وشهدوا على أنفسهم به ، وخالفوه وتركوه وراء ظهورهم ، وعبدوا مع الله غيره بلا دليل ولا حجة لا من عقل ولا شرع ، وفي الفِطر السليمة : خلاف ذلك ... » اهـ [(٤)] .

٤. وقال تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٧] .

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ص ٢٠٣/ ح ٢) ، والترمذي رقم [٣٥١٧] ، وابن ماجه رقم [٢٨٠] ، والإمام أحمد (٥/ ٣٤٣) من حديث أبي مالك الأشعري ـ رضي الله عنه ـ .

(٢) أخرجه مسلم رقم [١٣٦٢] من حديث أمير المؤمنين عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ .

(٣) انظر : « تفسير القرآن العظيم » (٣/ ٤٤٦ – ٤٤٩) ط. دار الحديث .

(٤) « تفسير القرآن العظيم » (٤/ ٤٤٩) ، وانظر : « جامع البيان » للطبري (٦/ ١٤) .

وقد ذكر الإمام الطبري الخلاف في المراد بالميثاق هنا فقال ـ رحمه الله ـ :

« وقال آخرون : العهدُ الذي ذكره الله هو العهدُ الذي أخذه عليهم حين أخرَجهم من صُلْب آدم ، الذي وصَفه في قوله : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الآيتين [الأعراف: ١٧٢-١٧٣] . ونقضُهم ذلك تركُهم الوفاء به » اهـ (١) .

٥. وقال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسير قوله تعالى : ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ الآية [هود: ١٧] :

« يخبر تعالى عن حال المؤمنين الذين هم على فطرة الله تعالى التي فطر عليها عباده ، من الاعتراف له بأنه لا إله إلا هو ، كما قال تعالى : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠] » ، وبعد أن ذكر حديث : « **كل مولود يولد على الفطرة** » ، وحديث : « **إني خلقت عبادي حنفاء** » ، وحديث : « **كل مولود يولد على هذه الملة ، حتى يُعرب عنه لسانُه** » قال ـ رحمه الله ـ :

« فالمؤمن باقٍ على هذه الفطرة ، وقوله: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ أي : وجاءه شاهد من الله ، وهو ما أوحاه إلى الأنبياء من الشرائع المطهرة المكمَّلة المعظَّمة المختتمة بشريعة محمد ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ » إلى أن قال : « وذلك أن المؤمن عنده من الفطرة ما يشهد للشريعة من حيث الجملة ، والتفاصيل تؤخذ من الشريعة ، والفطرة تصدقها وتؤمن بها ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [هود: ١٧] وهو القرآن ، بلَّغه جبريل إلى النبي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وبلغه النبي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى أمته » اهـ (٢) .

---

(١) « جامع البيان » للطبري (١/ ٤٣٦) .

(٢) « تفسير القرآن العظيم » (٤/ ٣٢٤ ، ٣٢٥) .

٦. قوله عز وجل : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٦] .

ذكر الإمام الطبري الخلاف في تعيين من يقال لهم : ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ فقال في كلامه :

« وقال آخرون : عُنِي بذلك كلُّ مَن كفر بالله بعد الإيمان الذي آمَن ، حين أخذ الله مِن صلب آدمَ ذريتَه ، وأشهدهم على أنفسِهم بما بيَّن في كتابه .

ذكرُ من قال ذلك :

حدثني المثني ، قال : حدثنا عليُّ بن الهَيْثم ، قال : أخبرنا ابنُ أبي جعفرٍ ، عن أبيه ، عن الربيعِ ، عن أبي العالية ، عن أُبيِّ بن كعبٍ ، في قوله : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ ، قال : صاروا يومَ القيامة فريقين ؛ فقال لمن اسودَّ وجهه ، وعَيَّرَهم : ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ ، قال : هو الإيمان الذي كان قبلَ الاختلافِ في زمانِ آدمَ ، حين أخَذ منهم عهدَهم وميثاقَهم ، وأقرُّوا كلهم بالعبودية ، وفطَرهُمْ على الإسلام ، فكانوا أمةً واحدةً مسلمين ، يقولُ : ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ ، يقول : بعد ذلك الذي كان في زمانِ آدمَ » [(١)] .

وقال السيوطي ـ رحمه الله ـ : « وأخرج ابنُ جرير ، وابنُ المنذر ، وابنُ أبي حاتم ، عن أُبيِّ بن كعب في الآية قال : صاروا فِرْقَتَيْنِ يومَ القيامة ، يقالُ لمن اسوَدَّ وجهُهُ : ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ ، فهو الإيمانُ الذي كان في صُلْبِ آدمَ ، حيث كانوا أُمَّةً واحدةً ، وأمَّا الذين ابْيَضَّتْ وجوهُهم فهم الذين استقاموا على إيمانِهم وأخلصوا له الدينَ ، فبيَّض اللهُ وجوهَهم ، وأدْخَلَهم في رضوانِه وجَنَّتِه » [(٢)] .

---

(١) « تفسير الطبري » (٥/ ٦٦٥ ، ٦٦٦) .

(٢) « الدر المنثور » (٣/ ٧٢٢) .

وقال العلامة محمد بن إبراهيم الوزير ـ رحمه الله ـ : « ففيه أن كل كافر قد كفر بعد إيمانه ، وهذا لا يصح ظاهره في هذا التكليف المعلوم لنا » [(١)] .

٧. قوله تعالى : ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الحديد: ٨] .

فسَّره مجاهد بأنه الميثاق الذي أخذه الله على ذرية آدم وهم في ظهر أبيهم آدم [(٢)] .

وقال الخازن في تفسير الآية : « يعني : وأي عذر لكم في ترك الإيمان بالله ، والرسول يدعوكم إليه ، وينبهكم عليه ، ويتلو عليكم الكتاب الناطق بالبرهان والحجج ، ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾ أي : أخذ الله ميثاقكم حين أخرجكم من ظهر آدم ـ عليه السلام ـ بأن الله ربكم لا إله لكم سواه . وقيل : أخذ ميثاقكم حين ركَّب فيكم العقول ، ونصب لكم الأدلة والبراهين والحجج التي تدعو إلى متابعة الرسل » [(٣)] .

وقال الشوكاني : « ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل يدعوكم على التداخل أيضًا ، أي والحال : أن قد أخذ الله ميثاقكم حين أخرجكم من ظهر أبيكم آدم ، أو بما نصب لكم من الأدلة الدالة على التوحيد ووجوب الإيمان .

قرأ الجمهور : ﴿وَقَدْ أَخَذَ﴾ مبنيًا للفاعل ، وهو الله سبحانه لتقدم ذكره ، وقرأ أبو عمرو على البناء للمفعول .

﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بما أخذ عليكم من الميثاق ، أو بالحجج والدلائل ، أو إن كنتم مؤمنين بسبب من الأسباب ، فهذا من أعظم أسبابه ، وأوضح موجباته » [(٤)] .

---

(١) « العواصم والقواصم » (٧/ ٢٦٩) .

(٢) انظر : « جامع البيان » (١١/ ٦٧٢) ، و « الجامع لأحكام القرآن » للقرطبي (١٧/ ٢٣٨) .

(٣) « تفسير الخازن » (٧/ ٣١) .

(٤) « فتح القدير » (٥/ ١٦٧) .

فِطرةُ المِيلادِ امتِدادٌ لِفطرة المِيثَاقِ

رأينا كيف جعل بعض العلماء الفطرة التي يولد عليها المولود هي ما أخذه الله عليه من الميثاق الأول .

والله ـ تعالى ـ أشهد ذرية آدم على ربوبيته سبحانه فأقروا له بذلك ، واعترفوا ، ثم أشهدهم على هذا الاعتراف ، وسواء كان هذا العهد قبل الخروج إلى الدنيا في عالم الذر ، أو كان عهد الفطرة ـ على خلاف بين أهل العلم ـ فإن ذلك لا يؤثر في دلالة الآية على المقصود .

« وذلك لأن الفطرة ـ التي ذكرها الله عز وجل في كتابه ، وجاء ذكرها على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ مفسِّرة ومؤكدة للميثاق الأول ، فكل مولود يولد على الميثاق الذي أُخِذَ منه في ذلك المقام وهي الفطرة ، وينشأ على ذلك ، ويشب عليه ما لم يعرض له ما يبدله ، فلا فرق إذن بين الفطرة والميثاق » (١) .

« ومما يبين الصلة بين الميثاق والفطرة ، أن الله تعالى جعل ما يخالف الفطرة ـ التي فطر عليها كل مولود من الإيمان به تعالى وبرسله وكتبه وغير ذلك من شعائر الإسلام ـ نقضًا للميثاق ، ومن الآيات الدالة على ذلك :

ـ أنه عبَّر عن الكفر وهو ضد الفطرة بنقض الميثاق ، قال تعالى : ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٥٥] ، والعطف عطف بيان ، فبيَّن أن مما ينقض الميثاق الكفرَ .

ـ وقال تعالى : ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ﴾ [المائدة: ١٤] ، وقال في الآيات بعدها : ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧] .

---

(١) « أخذ الميثاق » للشيخ عبد العزيز العثيم ص (٥٩) .

ـ وقال سبحانه : ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٥٥، ٥٦] .

ـ وقال تعالى : ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٠] .

ـ وقال ـ سبحانه ـ : ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الحديد: ٨] . فربط في الآية بين الإيمان الذي هو الفطرة وبين الميثاق . فكل ما أخذه الله تعالى على عباده في الميثاق الأول من الإقرار به تعالى والإيمان به وأنه لا إله إلا هو ؛ صار أمرًا ضروريًّا لازمًا لكل إنسان ، لا يمكن أن ينفك عنه أو يخلو منه ، بل ولا يغفل عنه أحد بحيث لا يعرفه ، بل لابد أن يكون قد عرفه ، وإن قُدِّرَ أنه نسيه ، ولهذا يسمى التعريف بذلك تذكيرًا ، وتكون فطرة الميلاد امتدادًا لفطرة الميثاق ، ويكون كل ما يخالف ذلك الميثاق الأول من الشرك والتعطيل ونحوه مخالفًا للفطرة السليمة ومناقضًا لها »[(١)] .

❁ ❁ ❁

(١) « الفطرة : حقيقتها ومذاهب الناس فيها » للشيخ علي بن عبدالله القرني ص (٤٨٠ ، ٤٨١) .
وقد عقد الشيخ ـ حفظه الله ـ بحثًا مفصَّلًا مستوعبًا حول آية الميثاق في سورة الأعراف من ص (٤٨٥) إلى ص (٥٨٢) .

الدليل الثالث

افتتاح جميع الرسل دعوتهم بالأمر بعبادة الله وحده

دلت آيات القرآن الكريم على أن جميع الرسل افتتحوا دعوتهم بقولهم : ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ ، وأول صيغة أمر في « المصحف الشريف » هي قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١] .

وذلك لأن معرفة الله فطرية ضرورية أولية ، وهي أشد رسوخًا في النفوس من مبدأ العلم الرياضي كقولنا : « إن الواحد نصف الاثنين » ، ومبدأ العلم الطبيعي ، كقولنا : « إن الجسم لا يكون في مكانين » .

فمِن ثَمَّ دعا الأنبياء ـ أولَ ما دَعَوْا ـ قومهم إلى عبادة الله وحده ، لأنهم ـ بحكم الفطرة ـ يعرفون الله ، فإذا دُعوا إلى الإقرار بوجود الله تعالى أولًا ؛ كان ذلك تحصيل حاصل ، وإذا دُعوا إلى عبادته وحده تضمن ذلك الأمر أنهم يعرفونه .

فلم يكن الله ليدعو خلقَه إلى عبادته ، وهو لم يعرِّفهم نفسه ، إذ يلزم من ذلك أنه كلَّفهم الإيمان بما لا يعرفون .

وما أكثر الآيات التي تدل على أن المشركين كانوا يقرون بأن الله عز وجل وحده هو الذي خلقهم ورزقهم ودبَّر أمورهم ، منها قوله سبحانه : ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] .

إن المأمور إذا لم يعرف الآمر امتنع أن يعرف أنه أمره ، ولو لم تكن المعرفة ثابتة في الفطرة لكان الرسول إذا قال لقومه : ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ ، لقالوا مثل ما قال

فرعون : ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] إنكارًا له وجحدًا ، وأمكن أن يكون قولهم متوجِّهًا .

وفرعون لم يقل هذا لعدم معرفته في الباطن بالخالق ، لكن أظهر خلاف ما في نفسه كما قال تعالى : ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] (١) .

ومثل فرعون أولئك المكذبون للرسل لما قالوا لرسلهم : ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم: ٩] ، فأجابهم الله : ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠] ، وهذا استفهام إنكار بمعنى النفي والإنكار على من لم يقر بهذا النفي . والمعنى : ما في الله شك وأنتم تعلمون أنه ليس في الله شك ، ولكن تجحدون ذلك وتستحقون أن يُنكَر عليكم جحودُكم . فدل هذا على أنه ليس في الله شك عند الخلق المخاطبين وأنهم جميعًا مفطورون على الإقرار به (٢) .

وقال ابن القيم : « قال تعالى : ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١] ، ولم يقل : إلهكم ، والرب : هو السيد والمالك والمنعم والمربي والمصلح ، والله تعالى هو الرب بهذه الاعتبارات كلها . فلا شيء أوجب (٣) في العقول والفطر مِن عبادة مَن هذا شأنه وحده لا شريك له » (٤) .

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ في تفسير قوله تعالى : ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ الآية [النساء: ٣٦] :

---

(١) انظر : « تيسير الوحيين » للشيخ عبد العزيز بن راشد النجدي ـ رحمه الله ـ ص (٢١ – ٢٤) .

(٢) انظر : « درء التعارض » (٨/ ٤٤٠ ، ٤٤١) .

(٣) الوجوب هنا بمعنى : استحالة قبول العقول المجبولة مِن قِبَل فاطرها لعبادة غيره ـ سبحانه ـ ولو لم يرد بذلك شرع ، ومِن ثم كان العقل حجة مستقلة في بطلان الشرك .

(٤) « بدائع التفسير » (١/ ٢٨٨) .

« أجمع العلماء على أن هذه الآية من المُحْكَم المتفق عليه ، ليس منها شيء منسوخ ، وكذلك هي في جميع الكتب . ولو لم يكن كذلك لعُرِف ذلك من جهة العقل ، وإن لم ينزل به الكتاب » اهـ [(١)] .

وأكثر الناس غافلون عما فُطروا عليه من العلم ، فيذكِّرهم الرسل بالعلم الذي فُطروا عليه [(٢)] ، ولذلك قال تعالى : ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾[ق: ٨] ، وقال ـ عز وجل ـ : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾[الغاشية: ٢١] ، وقال تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾[الأعلى: ٩ ، ١٠] ، وقال ـ عز وجل ـ : ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾[طه: ٤٤] .

حتى لو غفلوا عن هذه الفطرة في حال السراء ، فلا شك أنها تستيقظ في حال الضراء .

قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [يونس: ٢٢] ، وقال ـ سبحانه وتعالى ـ : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء: ٦٧] .

لقد أرسل الله الرسل لتقرير الفطرة وتكميلها لا لتغييرها وتحويلها ، ولا بد لهذه الفطرة من قُوتٍ وغذاء يمدها بنظير ما هو مغروس فيها وما قد فُطرت عليه علمًا وعملًا ، ولهذا كان كمال الدين التام ، بالفطرة المكمَّلة ، بالشريعة المنزلة .

---

(١) « الجامع لأحكام القرآن » (٥/ ١٨٠) .

(٢) انظر فصل : « الرسل يذكرون الناس بالعهد والفطرة » من كتابي « النطق بالشهادتين أول واجب على المكلفين » .

قال الإمام المحقق ابن القيم ـ رحمه الله ـ في قول الله ـ عز وجل ـ : ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: ٣٥] : « فأخبر سبحانه عن مَثَلِ نور الإيمان به وبأسمائه وصفاته وأفعاله ، وصِدْقِ رسلِه في قلوب عباده ، وموافقةِ ذلك لنور عقولهم وفِطَرِهم التي أبصروا بها نور الإيمان بهذا المثل المتضمن لأعلى أنواع النور المشهود ، وأنه نور على نور ، نورُ الوحي ونورُ العقل ، نورُ الشِّرعة ونورُ الفطرة ، نورُ الأدلة السمعية ونورُ الأدلة العقلية » اهـ [(١)] .

وقد قال تعالى في أول ما أنزل من كتابه الكريم : ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١] ، وقال أيضًا : ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ [العلق: ٣] .

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ : « ذُكِرَ ـ أي الربُّ ـ في الموضعين بالإضافة التي توجب التعريف ، وأنه معروف عند المخاطَبين ، إذ الرب ـ تعالى ـ معروف عند العبد بدون الاستدلال بكونه خَلَقَ ، وأن المخلوق ـ مع أنه دليل ، وأنه يدل على الخالق ـ لكن هو معروف في الفطرة قبل هذا الاستدلال ؛ ومعرفته فطرية ، مغروزة في الفطر ، ضرورية ، بديهية ، أولية » [(٢)] اهـ .

(١) « بدائع التفسير » (٣/ ٢٧٢) .

(٢) « مجموع الفتاوى » (١٦/ ٣٢٤) .

قضيّة اثبات وجود الله تعالى
ليست من مقاصد الرسالات السماوية

لم يتعرض القرآن الكريم ولا ما سبقه من الكتب السماوية إلى قضية إثبات وجود الله ـ عز وجل ـ ، اكتفاءً بالفطرة والعقل وما يفيدانه من العلم الضروري بالله ـ عز وجل ـ ، ولأن الله ـ تبارك وتعالى ـ لا يُعرف بمخلوقاته ، ولكنَّ المخلوقاتِ كلَّها تُعْرَفُ بالله ، وإن كانت معرفته تزيد بالنظر في مخلوقاته .

وقد سئل عبد الرحمن بن أبي حاتم عن رجل يقول : « عرفتُ الله بالعقل والإلهام » ، فقال : « هو مبتدع ، عرفنا كل شيء بالله » .

وسئل ذو النون المصري : بماذا عرفتَ ربك ؟

فقال : « عرفتُ ربي بربي ، ولولا ربي ما عرفتُ ربي » .

وقال عبد الله بن رواحة ـ رضي الله عنه ـ :

والله لولا اللهُ ما اهتدينا

ولا تَصَدَّقْنا ولا صَلَّيْنا

فدلَّ على صحة قول علمائنا : « إن الله يُعْرَف بالله ، والأشياء كلها تُعْرَفُ بالله » .

وبعد أن عقد العلامة أبو بكر الجزائري فصولًا تتناول إثبات وجود الله تعالى ، وَرَدَّ على الملحدين قال ـ حفظه الله تعالى ـ :

« اللهم إني أبرأ إليك مِن كفر كل مَن كفر بك ، ومن إلحادِ كل مَن ألحد في أسمائك أو صفاتك ، ومن شِرك كل من أشرك بك في ربوبيتك أو ألوهيتك .

وأعتذر إليك من كل استدلال استدللتُ به عليك ، ومن كل قياس عقلي وضعته تدليلًا على وجودك ، وأنت مُوجِدُ كلِّ موجود ، ومن كل برهان أتيتُ به على إثباتك ، وإثباتِ جلالك وكمالك . ومن كل دليل مادي سقته لأثبتَ به وجودَك ، لأنك يا ربي أنت الدليل على وجودك ، والبرهان على جلالك وكمالك ، فكيف يصح طلب الدليل للدليل ، والإتيان بالبرهان على البرهان؟

قالوا ائتنا ببرهانٍ فقلتُ لهم أنَّى يقومُ على البُرهانِ بُرهانُ » [(١)] .

وقال الأستاذ محمد فريد وجدي ـ رحمه الله ـ : إن « مسألة وجود الخالق لا يصح أن تعد في صنف المسائل المشكوك فيها ، والتي يتسع المجال فيها للأخذ والرد ؛ لأنها أجلى البدائه العقلية والحسية معًا ، ولكن يجب أن يعد نُكْرانُها من باب الجنون » [(٢)] .

أما الشيخ عبد العزيز جاويش ـ رحمه الله ـ فيقول : إن « كل إنسان يشعر بفطرته أن ثمة إلهًا واحدًا قد نظم هذا العالم ودبره ، وليس مشابهًا لسائر الممكنات في شيء من صفاتها ، وقد جاء الإسلام مصدقًا لما اقتضته هذه الفطرة ، ولم يَزِدْ في الاستدلال سوى أن أيقظ العقول ونبهها إلى النظر في مخلوقات الله تعالى ، وأما التشكيك في وجوده سبحانه فهو مُبَايِنٌ لمقتضى الفطرة ، ومنشؤه ميل الإنسان إلى الاعتماد على ما يدركه بحواسه ، وإنكار ما ليس له في ذهنه صورة ، ولا حدود محصورة » [(٣)] .

أما الكاتب عباس محمود العقاد فيرى أن الإيمان بوجود الله « يعتبر مسألة وَعْيٍ قبل أن يكون أي شيء آخر ، وما من إنسان إلا ولديه وعي يقيني بوجوده

---

(١) « عقيدة المؤمن » ص (٦٤) .

(٢) « الحديقة الفكرية » ص (٣٦) .

(٣) « الإسلام دين الفطرة والحرية » ص (١٦) .

الحاصل ، كما أن له وعيًا بالوجود الأعظم والحقيقة الكونية ؛ لأن وجود الإنسان متصل بهذا الوجود وقائم عليه ، ومن سمات الوعي أنه لا يتناقض مع العقل ، وهو أعم منه إدراكًا ؛ لأنه مستمد من كيان الإنسان كله ، ومن ظاهره وباطنه ، وما يعيه هو وما لا يعيه ، وإذا أثبت الوعي والبداهة العقلية أن هناك إلهًا فلابد أن يُحترم هذا الحكم ، والذي لا يقل قيمة عن المنطق والقياس العقلي ، بل كل الأحكام المنطقية والقياسية مستندة إليه وصادرة عنه ، وجميع البراهين التي قُدِّمَتْ للاستدلال على وجود الله لا تغني عن الوعي الكوني في الشعور بالعقيدة والإيمان بالله تعالى »[(١)] .

أما الأستاذ سيد قطب ـ رحمه الله ـ فيؤكد على أن قضية وجود الله لم تكن مشكلة قطُّ ، أو قضية جدية من قضايا الاعتقاد في تاريخ البشرية ، والقضية الجديرة بهذا الوصف هي تصور حقيقة الألوهية ولا سيما ما يتعلق بالتوحيد ؛ ومن ثَمَّ فالمعركة لم تكن بين الإيمان على إطلاقه ، وبين الإلحاد على إطلاقه ، إنما كانت بين التوحيد الحق وبين الشرك ، وبين الاعتقاد الحق وبين الشرك ، وبين توحيد الألوهية وبين اتخاذ الأرباب المتفرقة ، ولم يكن موقف الإسلام أبدًا هو العطف على مجرد الإيمان أو مجرد التدين ، ولوثة إنكار وجود الله ليست إلا لوثة حديثة عارضة وشاذة ، وليس لها جذور أو روافد في ضمير البشرية ، وهي عملية انتحار محتومة ؛ حيث تقاومها الفطرة ، والفطرة أغلب[(٢)] .

ويقول ـ أيضًا ـ : والمنهج القرآني في التعريف بحقيقة الألوهية لا يجعل من وجود الله سبحانه قضية يجادل عنها ؛ لأن هذا الوجود يفعم القلب البشري ،

---

(١) « الله » ص (١٤٥ ، ١٤٦) ، وانظر : « حياة قلم » ص (٢٤٥) .

(٢) انظر : « مقومات التصور الإسلامي » ص (١٠٠ – ١٠٣) .

ويملك عليه شتى جوانبه ؛ بحيث لا يبقى مجال للجدل حوله ، وإنما ينصَبُّ اهتمام المنهج القرآني على بيان آثار هذا الوجود في الكون ، والحديث عن مقتضياته في الضمير والحياة البشرية ، واستجاشة الفطرة واستثارة كوامن الحياة فيها ؛ لتعود لمزاولة وظيفتها الحقة ، ولتستجيبَ للوجود الإلهي وآثارِه المتجلية في الكون بأكمله [١] .

أما الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر الأسبق فيرى أن الإسلام لم يأتِ أو يُعْنَ بإثبات وجود الله ؛ وإنما جاء للدعوة إلى توحيده ، والمتصفح لآيات القرآن ، وكذلك التوراة والإنجيل بوضعهما الراهن ؛ سوف يجد أن مسألة وجود الإله لم تُجعل مطلقًا هدفًا من الأهداف الدينية ، ولم تحتل مكانًا يُشعر بأنها من مقاصد الرسالات السماوية ، وما ورد من آيات في القرآن ظنها البعض مَسُوقَةً لهذا الغرض فليست من ذلك في قليل ولا في كثير ؛ وإنما وردت لبيان عظمة الله وجلاله ، وهيمنته الكاملة على العالم [٢] .

وقد كان النهج الفلسفي الوثني سببًا للانحراف وظهور فكرة الإلحاد ، حينما تناول وجود الله بطريقته النظرية ؛ لأنه كما يحق للبعض أن يثبتوا وجود الإله فمن حق الآخرين أن ينفوه ، وكل ذلك يؤدي إلى ضعف الإيمان ؛ لأن وضعَ وجودِ الإله مَوْضِعَ بحثٍ معناه وجودُ لونٍ من الشك أو الريبة المنافية لكمال الإيمان واليقين [٣] .

ويدعو الدكتور عبد الحليم محمود إلى حذف مسألة وجود الله من علم الكلام بالكلية ، فوجوده سبحانه « أمر بدهي لا ينبغي أن يتحدث فيه المؤمنون

---

(١) انظر : « مقومات التصور الإسلامي » ص (١٩٨ ، ٢٠٠) .

(٢) « الإسلام والعقل » ص (١٣١) ، « القرآن في شهر القرآن » ص (١٦٧ ، ١٧٠) .

(٣) « الإسلام والعقل » ص (١٣٥ ، ١٣٦) .

نفيًا أو إثباتًا ، ولا سلبًا ولا إيجابًا ، إن وجود الله من القضايا المسلمة التي لا توضع في الأوساط الدينية موضعَ البحث ؛ لأنها فطرية ، وإن كل شخص يحاول وضعها موضع البحث إنما هو شخص في إيمانه دَخَلٌ ، وفي دينه انحراف ، فما خَفِيَ اللهُ قطُّ حتى يحتاجَ إلى أن يثبته البشر ، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا » [١] .

❁ ❁ ❁

(١) « نفسه » ص (١٣٠ ، ١٣١) .

الدليل الرابع

ما رواه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « **كلُّ مولود** [(١)] **يُولَدُ على الفطرة ، فأبواه يُهوِّدانه ، أو ينصِّرانِه ، أو يُمجِّسانه ، كمثل البهيمة تُنتج البهيمة ، هل ترى فيها جدعاء** » ، وفي رواية : « **تنتج بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء** » ، ثم يقول أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ . وفي رواية : سألوه عن أطفال المشركين ، أي من يموت منهم صغيرًا ، فقال : « الله أعلم بما كانوا عاملين » [(٢)] .

وهذا الحديث يدل بوضوح على أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يقصد بالفطرة فيه معناها اللغوي [(٣)] ، وإنما أراد معناها الشرعي المعهود في نصوص الوحيين ، وذلك من وجوه :

الوجه الأول : روايات هذا الحديث المختلفة الألفاظ المتفقة المعاني [(٤)] ، بحيث يفسِّر بعضها بعضًا مثل :

---

(١) قال الحافظ في « الفتح » : « قوله (**يولد على الفطرة**) ظاهره تعميم الوصف المذكور في جميع المولودين ، وأصرح منه رواية يونس المتقدمة بلفظ : (**ما من مولود إلا يولد على الفطرة**) ، ولمسلم من طريق أبي صالح عن أبي هريرة بلفظ : (**ليس من مولود إلا يولد على هذه الفطرة حتى يعبر عنه لسانه**) ، وفي رواية له من هذا الوجه : (**ما من مولود إلا وهو على الملة**) » اهـ . من « الفتح » (٣/ ٢٩٢) (كتاب الجنائز) .
وفي هذا رد واضح على ما ادعاه بعضهم بتخصيص المولود على فطرة الإسلام بأنه من كان أبواه مسلمَيْنِ دون غيره ممن نشأ بين أبوين كافرين .

(٢) أخرجه البخاري[١٣٥٩]،[١٣٨٥](٣/ ٢٤٥، ٢٤٦)،ومسلم[٢٦٥٨]،والترمذي[٢١٣٨]،وأبو داود[٤٧١٤].

(٣) ولو أراد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مجرد المعنى اللغوي ؛ لبيَّن المقصود بالخِلقة التي يولد عليها كل مولود ، لأن القول بأن كل مولود يولد على الفطرة التي هي الخِلقة لا يفيد لذاته معنى محددًا مالم توصف تلك الخلقة بما يقطع النزاع في معناها ، ولا يمكن ذلك إلَّا إذا فُسرت الفطرة على معناها الشرعي ، فلزم أن يكون هو المقصود في الحديث دون المعنى اللغوي ، وانظر ص (٢٣ ، ٢٤) .

(٤) كما استقرأها الدكتور علي بن عبد الله القرني في كتابه « الفطرة » ص (١٣٩) .

١. « ما من مولود يولد إلا وهو على الملة » ،

٢. « ما من مولود يولد إلا على هذه الملة حتى يُبِينَ عنه لسانُه » ،

٣. « ليس مولود يولد إلا على هذه المِلَّة » ،

٤. « لا يولد مولود إلا على هذه المِلَّة » ،

٥. « من يولد يولد على هذه الفطرة » ،

٦. « ليس من مولود يولد إلا على هذه الفطرة » ،

٧. « ما من مولود يولد إلا على فطرة الإسلام حتى يعرب » ،

٨. « كل مولود يولد من والد كافر أو مسلم يولد على فطرة الإسلام » ،

٩. « كل مولود يولد على المِلَّة » ،

١٠. « كل مولود على الفطرة » ،

١١. « ما من مولود في بني آدم إلا يولد على الفطرة » ،

١٢. « ليس من مولود يولد إلا على هذه المِلَّة حتى يبين عنه لسانه » ،

١٣. « ما من مولود يولد إلا على المِلَّة » .

الوجه الثاني : أن هذا المعنى هو الشائع المعهود في كثير من النصوص النبوية :

١. فمنها : حديث البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال له : « **إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ، ثم اضطجع على شقك الأيمن ، ثم قل : اللهم أسلمتُ وجهي إليك ، وفوضتُ أمري إليك ، وألجأتُ ظهري إليك ، رغبةً ورهبةً إليك ، لا ملجأ ولا منجا منك إلَّا إليك ، آمنتُ بكتابك الذي أنزلتَ وبنبيك الذي أرسلت ، فإن مُتَّ من ليلتك فأنت على الفطرة** » [(١)] .

---

(١) أخرجه البخاري [٢٤٧] ، [٦٣١١] ، [٦٣١٣] ، [٦٣١٥] ، ومسلم [٢٧١٠] ، والترمذي [٣٣٩١] ، وغيرهم .

قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ : « وقوله : على الفطرة ، أي : على الدين القويم ، ملة إبراهيم ، فإنه عليه السلام أسلم ، واستسلم . . » [(١)] .

فهذا الحديث اشتمل على تحقيق التوحيد من الاستسلام لله ، وتفويض الأمور إليه ، والتوكل عليه ، والتأله له وحده ، وقد بشر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في هذا الحديث أن من قال تلك الكلماتِ المحقِّقة لهذه المعاني مات على الفطرة ، فدل على أن الفطرة مقتضية لتوحيد الله تعالى ، وأن من حقق التوحيد فقد حقق مقتضى الفطرة .

٢ . ومنها : ما كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقوله إذا أصبح وهو : « **أصبحنا على فطرة الإسلام ، وكلمة الإخلاص ، وعلى دين نبينا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين** » [(٢)] .

قال ابن الأثير : « فطرة الإسلام . الفطرة : ابتداء الخلقة ، وهي إشارة إلى كلمة التوحيد ، حين أخذ الله العهد بها على ذرية آدم فقال : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى » [(٣)] اهـ .

وكلمات هذا الدعاء مترادفة في معانيها ، ففطرة الإسلام وكلمة الإخلاص ودين النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وملة إبراهيم ـ عليه السلام ـ هي مقتضى تحقيق التوحيد ، فمن حقق مقتضى الفطرة فقد حقق التوحيد .

٣ . ومنها : أن حذيفة ـ رضي الله عنه ـ رأى رجلًا لا يُتم الركوع والسجود ، فقال : « ما صَلَّيتَ ، ولو مُتَّ مُتَّ على غير الفطرة التي فطر الله محمدًا ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليها » [(٤)] .

---

(١) « فتح الباري » (١١/ ١١١) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٤٠٦) ، (٥/ ١٢٣) ، وصححه النووي في « الأذكار » ص (٦٨) بتحقيق الشيخ عبد القادر الأرناؤوط ، وقال الهيثمي : « رواه أحمد والطبراني ، ورجالهما رجال الصحيح » اهـ . « مجمع الزوائد » (١٠/ ١١٦) .

(٣) « جامع الأصول » (٤/ ٢٥٣) .

(٤) رواه البخاري (١/ ١٥٢) ، (١/ ٢٧٣) ، (١/ ٢٧٩) .

قال ابن الأثير : « أراد دين الإسلام الذي هو منسوب إليه » [(١)] .

٤. ومنها : أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يُغير إذا طلع الفجر ، وكان يستمع الأذان ، فإن سمع أذانًا أمسك وإلا أغار ، فسمع رجلًا يقول : الله أكبر ، الله أكبر ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « **على الفطرة** » [(٢)] .

قال الإمام النووي ـ رحمه الله ـ : « قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (**على الفطرة**) ، أي : على الإسلام » [(٣)] .

ووجه الدلالة في هذا الحديث أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ شهد للرجل حين أعلن التوحيد بالتكبير أنه على الفطرة ، فعُلِم أن الفطرة في معناها الشرعي تقتضي التوحيد .

٥. ومنها : عن أبي أيوب الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « **لا تزال أمتي بخير** ـ أو قال : **على الفطرة** ـ **ما لم يؤخروا المغربَ إلى أن تشتبك النجوم** » [(٤)] .

٦. ومنها : قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « **خمس من الفطرة : الختان ، والاستحداد ، وتقليم الأظافر ، ونتف الإبط ، وقص الشارب** » [(٥)] .

---

(١) « النهاية في غريب الحديث » (٣/ ٤٥٧) .

(٢) رواه مسلم [٣٨٢] .

(٣) « صحيح مسلم بشرح النووي » ط. دار أبي حيان (٢/ ٣٢٠) .

(٤) رواه الإمام أحمد [٢٣٥٣٤ ، ٢٣٥٨٢] ، والحاكم (١/ ١٩٠) ، وقال : « صحيح على شرط مسلم » ، وابن خزيمة [٣٣٩] ، وحسَّن الألباني إسناده في « تحقيق المشكاة » رقم [٦٠٩] ، وانظر : « فيض القدير » للمناوي (٦/ ٣٩٦) ، و « صحيح أبي داود » [٤٤٤] .

(٥) رواه مسلم [٢٥٧] (١/ ٢٢١) ، وهذه الخصال الفطرية لو تُرِك الإنسان لفطرته ـ بدون توجيه من الشرع الشريف ـ لنفر بطبيعته البشرية من عكسها .

وهذه الخصال من الفطرة لأنها من خصال وشعائر الإسلام وسننه .

فهذه النصوص وغيرها مما في معناها تدل على أن للفطرة في نصوص الكتاب والسنة معنى خاصًّا معهودًا غير المعنى اللغوي العام . وأن ذلك المعنى الشرعي هو المقصود في حديث الفطرة ، فلا بد أن يكون النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أخبر أن كل مولود يولد على خلقة تقتضي التوحيد ، والمعنى الشرعي يقدم على المعنى اللغوي ، باتفاق أهل الشرع ، ولا ينافي ذلك ورودُ الفطرة في بعض النصوص مرادًا بها المعنى اللغوي .

الوجه الثالث :

الدال على أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أراد بالفطرة في الحديث ما يقتضي التوحيد : أنه قد ذكر التهويد والتنصير والتمجيس في مقابل الفطرة ، بحيث تكون تلك الأديان مخالفة لمقتضاها ، لأن الفطرة هي الأصل الذي يولد عليه كل مولود ، واتباع تلك الأديان الباطلة انحراف عنها ، فلا بد أن تكون الفطرة مقتضية للإسلام ، ولهذا لم يذكر في الحديث تأثير الأبوين في جعل المولود مسلمًا ، لأن ذلك هو مقتضى الفطرة التي خُلق عليها ، فدل على أن الخلقة التي يولد عليها كل مولود تقتضي الإسلام .

وفي ترجيح أن المراد بالفطرة في الحديث الإسلام بناء على ما تقدم يقول الحافظ ابن حجر : (يؤيد المذهب الصحيح أن قوله : « **فأبواه يهودانه** ... » ، ليس فيه لوجود الفطرة شرط ، بل ذكر ما يمنع موجبها ، فحصول اليهودية مثلًا متوقف على أشياء خارجة عن الفطرة بخلاف الإسلام) [(١)] .

---

(١) « فتح الباري » (٣/ ٢٥٠) .

وعليه : فإن قال قائل : « إن المراد بالفطرة مجرد التهيؤ لقبول الحق ، وليس اقتضاءها الإسلام والتوحيد » ، فإننا نسأله :

هل الفطرة بذاتها تقتضي الإسلام ، أم أن الإسلام متوقف على شيء خارجٍ عن الفطرة ؟

فإن قلتم : إن الفطرة بذاتها تقتضي الإسلام ، فقد ثبت المطلوب .

وإن قلتم : إن الإسلام متوقف على شيء خارج عن الفطرة ، فحينئذ لم يبق ثَمَّ فرق بين الإسلام ، والتهويد ، والتنصير ، والتمجيس بالنسبة إليها ، فهي لم تُجبل على أي واحدٍ منها ، وحصوله فيها متوقف على شيء دونها . فلما لم يأت ذكر للإسلام ساعة الإحداث والتغيير من قِبل الأبوين ، دلَّ ذلك على أن الفطرة تقتضيه إذا خُلِّيت عن المعارض ، وأن الكفر خلاف مقتضاها .

الوجه الرابع :

أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد شبه المولود يولد على الفطرة بالبهيمة تولد جمعاء ، أي : مجتمعة الخلق وهذه صفة كمال فيها ، كما شبه الانحراف عن الفطرة في المولود بجَدْع البهيمة [(١)] وهي صفة نقص عن الكمال الذي كانت عليه ، فلا بد أن تكون الخلقة التي يولد عليها المولود صفة كمال يولد عليها ، وأن يكون التهويد والتنصير والتمجيس صفة نقص يلحق بها ، وصفة الكمال الذي يولد عليه المولود لا يمكن أن تكون مجرد القابلية لأن يكون مسلمًا أو كافرًا [(٢)] ، لأن

---

(١) فقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « **هل تحسون فيها من جدعاء ؟** » يعني أن البهيمة خلقت سليمة ، ثم جُدِعت بعد ذلك ، فكذلك الولد يولد سليمًا من الكفر ؛ مؤمنًا مسلمًا ، ثم يطرأ عليه الكفر بعد ذلك ، فالعيب الذي طرأ على البدن ، يقابله العيب الذي طرأ على الدين ، وهو الكفر .

(٢) ولو كانت الفطرة هي مجرد القابلية لأن يكون مسلمًا أو كافرًا لقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « **أو يُسَلِّمَانِه** » ولو كانت الفطرة مجرد القابلية للحالين لما شبَّهها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالبهيمة المجتمعة الخلق ، ولما =

ذلك لا يقتضي لذاته مدحًا ولا ذمًّا ، وإنما يكون المدح أوالذم بما يلحقه بعد ذلك ، فلا بد أن تكون الفطرة صفة كمال يولد عليها المولود ، وهي لا تكون كذلك إلَّا إذا وُلِدَ على ما يقتضي الإسلام ، فلا بد أن يولد كل مولود على خلقة مقتضية للإسلام .

وعرض الإمام المحقق ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله ـ أقوال العلماء في ماهية الفطرة ، ثم قال : « والصحيح من هذه الأقوال : ما دلَّ عليه القرآن والسنة أنهم وُلدوا حنفاء على فطرة الإسلام بحيث لو تُركوا وفطرهم لكانوا حنفاء مسلمين ، كما وُلدوا أصحاء كاملي الخلقة ، فلو تُركوا وخَلْقَهم لم يكن فيهم مجدوع ، ولا مشقوق الأذن .

ولهذا لم يذكر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لذلك شرطًا مقتضيًا ـ يعني للإسلام ـ غير الفطرة ، وجعل خلاف مقتضاها من فعل الأبوين » [(١)] .

الوجه الخامس :

أن أبا هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال بعد روايته للحديث : « اقرؤوا إن شئتم : ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ » ، مما يبين أنه فسَّر الحديث بالآية ، وقد أجمع العلماء على أن المراد بالفطرة في الآية الإسلام ، وتفسير الراوي أرجح ، لأنه أعلم بما سمع .

ولذلك لماسئل أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن رجل عليه رقبة مؤمنة ، أيجزئ عنه الصبي أن يُعتقه وهو رضيع ؟ فقال : « نعم ، لأنه ولد على الفطرة » [(٢)] يعني الإسلام .

= شبَّه ما يطرأ عليها من الكفر بجدع الأنف والأذن ، ومعلوم أن كمالها محمود ، ونقصها مذموم ، فكيف تكون قبل النقص لامحمودة ولا مذمومة ؟!

(١) « أحكام أهل الذمة » (٢/ ٦٠٩) .

(٢) « تجريد التمهيد » ص (٣٠٠) .

قال ابن شهاب الزهري : « يُصلَّى على كل مولود متوفى وإن كان لِغِيَّةٍ ؛ من أجل أنه وُلد على فطرة الإسلام » [(١)] ، وأفتى الزهري ـ أيضًا ـ رجلًا عليه رقبة مؤمنة أن يُعتق رضيعًا ، لأنه وُلِد على الفطرة [(٢)] .

قال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ : « من مات أبواه وهما كافران ؛ حُكِم بإسلامه » واستدل بحديث : « **كل مولود يولد على الفطرة** .. » فدل على أنه فسر الفطرة بالإسلام [(٣)] .

ومن ثمَّ شرعت الصلاة على من مات من أطفال المشركين المَسْبِيِّين مِن قِبَل المسلمين منفردين عن آبائهم ، وكذا يُصَلَّى على من مات من أطفال المسلمين ـ وإن كان لغِية ـ من باب أولى ، كما مرَّ آنفًا من كلام الزهري .

الوجه السادس :

أنه لو لم يكن المراد بالفطرة الإسلام ، لما سألوا عقب ذلك عمن يموت من أطفال المشركين [(٤)] وهو صغير ؛ لأنه لو لم يكن هناك ما يغير تلك الفطرة لما سألوه ، والعلم القديم وما يجري مجراه لا يتغير .

---

(١) رواه البخاري في «صحيحه » [١٣٥٨] (٣/ ٢١٩) ، وقوله : (لِغِيَّةٍ) أي ولو كان ولد زنا ، لأنه محكوم بإسلامه تبعًا لأمه .

ولا تعارض بين ولادة الطفل على فطرة الإسلام وبين إلحاقه بأبويه في الأحكام الدنيوية حتى يعرب عنه لسانه إذا كان أبواه غير مسلمين ، فإن هذه الأحكام الدنيوية لا تستلزم الحكم عليه بأنه على دين أبويه في نفس الأمر ، كما تجري أحكام الإسلام على المنافق الذي يبطن الكفر ، وهو كافر في نفس الأمر ، وكما تجري أحكام الكفر على المسلم الذي لا يُعْرَف بين المشركين ، وهو مسلم في نفس الأمر ، فحديث : « **كل مولود يولد على الفطرة** » ، إنما أراد به الإخبار بالحقيقة التي وُلدوا عليها ، وعليها الثواب والعقاب ، ولذلك لم يكن مصير أطفال المشركين في الآخرة كمصير آبائهم إذا ماتوا أطفالًا .

(٢) « تجريد التمهيد » ص (٣٠٠) .

(٣) انظر : « فتح الباري » (٣/ ٢٤٨) .

(٤) راجع نص الحديث ص (٦٣) .

ويُروى عن الأسود بن سريع ـ رضي الله عنه ـ : أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعث سرية يوم حُنين فقاتلوا المشركين ، فأفضى بهم القتل إلى الذرية ، فلما جاؤوا قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « **ما حملكم على قتل الذرية ؟** » ، فقالوا : يا رسول الله ، إنما كانوا أولاد المشركين ، قال : « **أَوَهَلْ خيارُكم إلا أولادُ المشركين ؟ والذي نفسُ محمدٍ بيده ما من نَسَمَةٍ تُولَد إلا على الفطرة حتى يُعْرِبَ عنها لسانها** » [(١)] ، وفي رواية : « **ما من مولود يولد إلا على فطرة الإسلام حتى يعرب فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه** » [(٢)] .

وقد أجمع العلماء على أن أولاد المؤمنين ناجون يوم القيامة ، واختلفوا في أولاد المشركين الذين ماتوا قبل أن يبلغوا ، والراجح نجاتهم لكونهم ماتوا على الفطرة قبل أن تُغير .

وقال النووي ـ رحمه الله ـ : « إن هذا هو المذهب الصحيح الذي ذهب إليه المحققون [(٣)] لقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ٥١] » [(٤)] اهـ .

---

(١) قوله : « **حتى يعرب عنها لسانها** » جَعلٌ للمولود على الفطرة التي هي الإسلام إلى أن يعقل ويميز ، ويعرب عنه لسانه ، وبعد ذلك يثبت له أحد الأمرين الكفر أو الإسلام ، ولو كان كافرًا في الباطن بكفر الأبوين ، لكان ذلك من حين يولد وقبل أن يعرب عنه لسانه ، وانظر : « درء التعارض » (٨/ ٤٣٢) .

(٢) رواه الإمام أحمد رقم [١٥٥٨٨] ، [١٥٥٨٩] (٢٤/ ٣٥٤ – ٣٥٧) ، ورجاله ثقات رجال الشيخين لكن الراوي عن الأسود بن سريع وهو الحسن البصري لم يسمع منه ، فإسناده منقطع كما قال ابن المديني في « العلل » ص (٥٩) ، وصحَّح بعضهم سَمَاعَه منه .

(٣) وهذا مذهب الإمام البخاري الذي جزم به ، كما نقل ذلك عنه الحافظ في « الفتح » (٣/ ٢٤٦) ، وقد رتَّب الإمام البخاري أحاديث الباب ترتيبًا يفيد جزمه بذلك ، حيث ختم الأحاديث التي أورد في الباب بحديث الإسراء الذي فيه : « **وأما الصبيان حوله فأولاد الناس** » ، وأخرج هذا الحديث في باب التعبير بلفظ : « **وأما الوِلْدان الذين حوله فكل مولود يولد على الفطرة** » ، فقال بعض المسلمين : وأولاد المشركين ؟ قال عليه الصلاة والسلام : « **وأولاد المشركين** » .
وقال العلامة الألباني ـ رحمه الله تعالى ـ : « هذا اختيار أهل التحقيق من العلماء كالنووي والعسقلاني وغيرهما » ، وجزم ببطلان القول بأن أولاد المشركين في النار ، وضعف عدة روايات تدل على أنهم في النار ، انظر : « تخريج المشكاة » (١/ ٣٩ ، ٤٠) ، و « تخريج السنة » (١/ ٩٥) .

(٤) « صحيح مسلم بشرح النووي » (٨/ ٤٦٢) .

ومن الأدلة على نجاتهم : ما رواه البخاري عن سمرة بن جندب ـ رضي الله عنه ـ في حديث الرؤيا الطويل ، وفيه : « **وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فإنه إبراهيم ـ عليه السلام ـ ، وأما الوِلدان الذين حولَه فكل مولود مات على الفطرة** [(١)] ، قال : فقال بعض المسلمين : يا رسول الله ! وأولاد المشركين ؟ فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : **وأولاد المشركين** » [(٢)] الحديث [(٣)] .

شبهة وجوابها :

قال بعضهم : « لو كان الطفل يولد مسلمًا لوجب ـ إذا وُلِد من أبوين كافرين ـ أن لا يرثهما ، ولا يرثانه ، ما دام طفلًا ، لأنه مسلم ، واختلاف الدين يمنع الإرث » .

والجواب : أن هذا الاعتراض ناشئ عن عدم التمييز بين أحكام الدنيا وأحكام الآخرة ، فإن أولاد الكفار لما كانوا يجري عليهم أحكام الكفر في أمور الدنيا ـ مثل ثبوت الولاية عليهم لآبائهم ، وحضانة آبائهم لهم ، وتمكين آبائهم من تعليمهم وتأديبهم ، والموارثة بينهم وبين آبائهم ، واسترقاقهم إذا كانوا محاربين وغير ذلك ـ صار يظن البعض أنهم كفار في نفس الأمر ، كالذي تكلم بالكفر وعمل به سواء بسواء ، وهذا خطأ في الحكم ، لأن كونهم وُلدوا على الفطرة لا ينافي كونهم تبعًا لآبائهم في أحكام الدنيا ، فقد يكون في بلاد الكفر من يكتم إيمانه ، ولا يعلم المسلمون حاله إذا قاتلوا الكفار ، فيقتلونه ، ولا يغسَّل ، ولا يُصلى عليه ، ويدفن مع المشركين ، وهو في الآخرة من المؤمنين أهل الجنة ، كما أن المنافقين تجري عليهم

(١) وفي رواية النضر بن شميل : « وُلد على الفطرة » قال الحافظ : وهي أشبه بقوله في الرواية الأخرى : «وأولاد المشركين » اهـ . من « فتح الباري » (١٦/ ٤٢٩) .

(٢) قال الحافظ في « الفتح » : « قوله : (**وأولاد المشركين**) ظاهره أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ألحقهم بأولاد المسلمين في حكم الآخرة ، ولا يعارض قوله : (**هم من آبائهم**) لأن ذلك حكم الدنيا » اهـ . (١٦/ ٤٢٩) .

(٣) رواه البخاري في « صحيحه » (١٦/ ٤١٧) [٧٠٤٧] ط . دار طيبة ـ الرياض .

في الدنيا أحكام المسلمين وهم في الآخرة في الدرك الأسفل من النار ، فحكم الدار الآخرة غير حكم الدار الدنيا [١] .

وقد قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما في « صحيح مسلم » : « **هم من آبائهم** » يعني : في أحكام الدنيا .

وقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « **كل مولود يولد على الفطرة** » إنما أراد به الإخبار بالحقيقة التي خُلقوا عليها ، وعليها الثواب والعقاب في الآخرة إذا عملوا بموجَبها ، وسلمت عن المعارض ، ولم يُرِدْ بهذا الحديث الإخبارَ عن أحكام الدنيا ، لأنه قد عُلم بالاضطرار من شرع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن أولاد الكفار يكونون تبعًا لآبائهم في أحكام الدنيا .

وقد بين أهل العلم أن أطفال المشركين يعاملون في الدنيا تبعًا لآبائهم حسب الظاهر « وهذا موضع اتفاق بين علماء الأمة حيث ثبت ذلك في عهده وتواتر من فعله ـ عليه الصلاة والسلام ـ إذ لم يثبت أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ منع معاملة ذراري المشركين من أهل الذمة والمعاهدين والحلفاء معاملة الكفار ، فلم يثبت أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ صلى على أحدٍ من أولاد الكفار ، ولم يأمر بغسلهم ودفنهم في مقابر المسلمين ، كما لم يمنع ـ عليه الصلاة والسلام ـ من استرقاقهم ، وإرثهم إذا ماتوا نظرًا لكونهم على فطرة الإسلام ، وهذا يدل على أنهم تبع لآبائهم في الدنيا ، وعلى هذا انعقد الإجماع من بعده ـ عليه الصلاة والسلام ـ فلم يخالف في ذلك أحدٌ من أهل العلم ، ولكن لا يعني ذلك أن هؤلاء الأطفال ليسوا على فطرة الإسلام وأنهم كفار ، إذ لا منافاة بين إثبات فطرة الإسلام لهم في حقيقة الأمر وبين معاملتهم معاملة الكفار تبعًا للوالدين في الدنيا حسب الظاهر » [٢] .

---

(١) « درء التعارض » (٨/ ٣٥٩ ، ٣٦٠) .

(٢) انظر : « الإبانة » لابن بطة الحنبلي (٢/ ٧٧ ، ٧٨) من حاشية المحقق د. عثمان الأثيوبي .

الوجه السابع :

أن هذا القول هو المعروف عند عامة السلف ، وأهل العلم بالتأويل ، وفي مقدمتهم صحابة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذين هم أعلم الناس بمراد الله تعالى ومراد رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فإذا صح عنهم تفسير الفطرة بالإسلام ، ولم يُعرفْ بينهم خلاف في ذلك فالحق ما قالوه ، فكما يُقبل منهم ما نقلوه من الدين ، فكذلك ما فهموه ، ما لم يختلفوا .

تنبيه خطير :

إن قول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « .. **فأبواه يهودانه** » الحديث ، يشير إلى تأثير تربية الأبوين ، وهو أحد أهم العوامل التي قد تفسد الفطرة ، وهو ـ صلى الله عليه وسلم ـ يكشف لنا هذه الحقيقة لتقوم علينا الحجة ، وليس تسويغًا للانحراف عن الفطرة ، وقد يكون الإنسان « ضحية » لتربية الأبوين ما دام دون التكليف ، أما إذا شبَّ وبلغ عاقلًا فإنه يصير مُكلَّفًا مسؤولًا أمام الله إذا انحرف عن الإيمان [(١)] ، ولا يغني عنه الاحتجاجُ بتقليد الآباء ، قال تعالى : ﴿ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٣] .

وقد قال ـ تعالى ـ في ذم تقليد الآباء في الضلال :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٤] ،

---

(١) ولهذا يتبع الطفل أبويه في أحكام الدنيا إلى أن يصير مكلفًا أي بالغًا عاقلًا ، فيكون له حينئذ حُكْمُ نفسِه لا حكم أبويه ، انظر : « عمدة القاري » للعيني (٧/ ١٧٨) .
وذلك لأنه يصير حينئذ قادرًا على الاستقلال بذاته ، فيعتنق العقيدة التي يختارها طبقًا لقناعاته لأنه يصير قادرًا على مخالفة الأبوين وعدم تقليدهما .

وقال ـ سبحانه ـ : ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٠] ،

وقال ـ عز وجل ـ : ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ [يونس: ٧٨] ،

وقال ـ سبحانه ـ : ﴿ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ﴾ [هود: ٦٢] ،

وقال ـ سبحانه ـ : ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ [هود: ٨٧] ،

وقال ـ جل وعلا ـ : ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ غَيۡرَ مَنقُوصٖ ﴾ [هود: ١٠٩] ،

وقال ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴾ [إبراهيم: ١٠] ،

وقال ـ عز وجل ـ : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [لقمان: ٢١] ،

وقال ـ جل وعلا ـ : ﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٞ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمۡ عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُكُمۡ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٞ مُّفۡتَرٗىۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾ [سبأ: ٤٣] ،

وقال ـ تعالى ـ : ﴿ إِنَّهُمۡ أَلۡفَوۡاْ ءَابَآءَهُمۡ ضَآلِّينَ ٦٩ فَهُمۡ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ يُهۡرَعُونَ ﴾ [الصافات: ٦٩، ٧٠] ،

وقال ـ سبحانه ـ : ﴿ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [الزخرف: ٢١ – ٢٥] .

وقد بين الله ـ عز وجل ـ أن كل إنسان مسؤول عن أعماله مسؤولية شخصية فردية ، لا يعفيه من عواقبها حَشْدُ المعاذير :

قال ـ عز وجل ـ : ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾ [القيامة: ١٤، ١٥] .

وقال ـ تعالى ـ : ﴿ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر: ٣٨] .

وقال ـ تعالى ـ : ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٣ – ١٥] .

وقال ـ سبحانه ـ : ﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ﴾ [الأنعام: ١٠٤] .

وقال ـ جل وعلا ـ : ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ﴾ [الأنعام: ١٦٤] .

وقال ـ تعالى ـ : ﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ: ٢٥] .

وقال ـ سبحانه وتعالى ـ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة: ١٠٥] .

وفي الحديث القدسي الذي رواه أبو ذر ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما روى عن الله ـ تبارك وتعالى ـ أنه قال : « ... **يا عبادي ! إنكم لن تبلغوا**

ضَري فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، يا عبادي ! لـو أن أولكـم وآخـركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلبِ رجلٍ واحدٍ مـنكم ؛ مـا زاد ذلـك في مُلْكـي شيئًا ، يا عبادي ! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كـانوا عـلى أفجـر قلـبِ رجلٍ واحدٍ ؛ ما نقص ذلك من ملكي شيئًا .

يا عبادي ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صـعيدٍ واحـدٍ ، فسألوني ، فأعطيتُ كل إنسان مسألتَهُ ؛ ما نقص ذلـك ممـا عنـدي إلا كـما يَـنْقُصُ المِخْيَطُ (١) **إذا أُدْخِلَ البحرَ . يا عبادي ! إنما هي أعمالكم أُحْصيها لكم ، ثم أُوَفِّيكُم إياها ، فمَن وجد خيرًا فليحمَدِ اللهَ ، ومَن وجد غير ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نفسَهُ »** (٢) .

ورُوِيَ عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا تشهَّد قال : « **الحمد لله ، نستعينه ، ونستغفره ، ونعـوذ بـالله مـن شرور أنفسنا ، من يهدِ اللهُ فلا مضِلَّ له ، ومن يضلل فلا هاديَ له ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، أرسله بالحق بشيرًا ونذيرًا بين يَدَي الساعة ، من يطع الله ورسوله فقد رَشد ، ومن يعصهما فإنه لا يضرُّ إلا نفسه ، ولا يضرُّ الله شيئًا** » (٣) .

---

(١) « **إلا كما ينقص المخيط** » قال العلماء : « هذا تقريب إلى الأفهام ، ومعناه : لا ينقص شيئًا أصلًا ، كـما قـال في الحديث الآخر : « **لا يغيضها نفقة** » أي : لا ينقصها نفقة ، لأن ما عند الله لا يدخلـه نقـص ، وإنـما يـدخل النقصُ المحدودَ الفاني .

وعطاء الله من رحمته وكرمه ، وهما صفتان قديمتان لا يتطرق إليهما نقص ، فضرب المثل بالمخيط في البحر لأنه غاية ما يُضرب به المثل في القلة . والمقصود التقريب إلى الأفهام بما شاهدوه ، فإن البحـر مـن أعظـم المرئيـات عيانًا وأكبرها ، والإبرة من أصغر الموجودات ، مع أنها صقيلة لا يتعلق بها ماء » اهـ . مـن « تعليـق الأسـتاذ محمد فؤاد عبد الباقي على صحيح مسلم » (٤/ ١٩٩٥) .

(٢) تقدم تخريجه ص (١١) .

(٣) تقدم تخريجه ص (١١) .

فائدة :

إن المسلم الذي وُلد لأبوين مسلمين ونشأ مسلمًا ؛ لا يصح أن يُقال في حقه : إنه مقلدٌ لهما ، كما يُقال فيمن يتهود أو يتنصر أو يتمجس ، بل هو باقٍ على أصل فطرته ، إذ كل ما في الأمر أنه وُلد على فطرة الإسلام ، واستمر مسلمًا لأن أبويه ـ في صغره ـ لم يُفسدا هذه الفطرة التي فطره الله عليها .

اختيار حافظ المغرب ابن عبد البر في معنى حديث الفطرة

قال ـ رحمه الله تعالى ـ : « أما اختلاف العلماء في الفطرة المذكورة في هذا الحديث ، فقالت جماعة من أهل الفقه والنظر : أريد بالفطرة المذكورة في هذا الحديث الخِلقة التي خُلِق عليها المولودُ في المعرفة بربه ، فكأنه قال : كل مولود يولد على خِلقة يعرف بها ربه إذا بلغ مبلغ المعرفة ، يريد خِلْقةً مخالفةً لخلقة البهائم التي لا تصل بخلقتها إلى معرفة ذلك ، واحتجوا على أن الفطرة الخِلقة ، والفاطر الخالق ، بقول الله ـ عز وجل ـ : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١] يعني خالقهن ، وبقوله : ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [يس: ٢٢] يعني خلقني ، وبقوله : ﴿ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ [الأنبياء: ٥٦]يعني خلقهن ، قالوا : فالفِطرة الخلقة ، والفاطر الخالق [(١)] .

وأنكروا أن يكون المولودُ يُفْطَر على كفر أو إيمان أو معرفة أو إنكار ، قالوا : وإنما يولد المولود على السلامة في الأغلب خِلقةً وطبعًا وبنية ليس معها إيمان ولا كفر ، ولا إنكار ولا معرفة ، ثم يعتقدون الكفر أو الإيمان بعد البلوغ إذا ميزوا ، واحتجوا بقوله في الحديث : (**كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء**) يعني سالمة (**هل تحسون فيها من جدعاء**) يعني مقطوعة الأذن ، فمَثَّلَ قلوب بني آدم بالبهائم ، لأنها تولد كاملة الخلق ليس فيها نقصان ، ثم تُقطع آذانها بعدُ وأنوفُها ، فيقال هذه بحائر [(٢)] ، وهذه سوائب [(٣)] ، يقول : فكذلك قلوب الأطفال في حين ولادتهم

---

(١) وهذا احتجاج بالمعنى اللغوي للفطرة دون الشرعي ، وقد سبق الرد عليه ص (٦٣-٧٤) .

(٢) تقول بَحَرتُ البعير : شققتُ أذنه شقًّا واسعًا ، ومنه سميت البَحيرة ، قال تعالى : ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ﴾ الآية [المائدة: ١٠٣] ، وذلك ما كانوا يجعلونه بالناقة إذا ولدت عشرة أبطن شقوا أُذُنَها فيسيبونها ، فلا تُركب ولا يُحمل عليها ، وانظر : « المفردات » للأصبهاني ص (١٠٩) .

(٣) السائبة : التي لا تُسَيَّبُ في المرعى ، فلا تُرَدُّ عن حوضٍ ، ولا علفٍ ، وذلك إذا ولدت خمسة أبطن ، وانظر : « المفردات » ص (٤٣١) .

ليس لهم كفر حينئذ ولا إيمان ، ولا معرفة ولا إنكار ، كالبهائم السالمة ، فلما بلغوا ؛ استهوتهم الشياطين ، فكفر أكثرهم ، وعصم الله أقلَّهم ، قالوا : ولو كان الأطفال قد فُطِروا على شيء على الكفر أو الإيمان في أولية أمرهم ؛ ما انتقلوا عنه أبدًا ، وقد نجدهم يؤمنون ثم يكفرون [(١)] ، قالوا : ويستحيل في المعقول أن يكون الطفل في حين ولادته يعقل كفرًا أو إيمانًا ، لأن الله أخرجهم في حالٍ لا يفقهون معها شيئًا ، قال الله ـ عز وجل ـ : ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨] ، فمن لا يعلم شيئا استحال منه كفر أو إيمان ، أو معرفة أو إنكار [(٢)] .

قال أبو عمر : هذا القول أصح ما قيل في معنى الفطرة التي يولد الناس عليها ـ والله أعلم ـ ، وذلك أن الفطرة : السلامة والاستقامة ، بدليل حديث عياض بن حمار ، عن النبي ـ عليه السلام ـ حاكيًا عن ربه ـ عز وجل ـ : « **إني خلقت عبادي حنفاء** » يعني على استقامة وسلامة ، والحنيف في كلام العرب : المستقيم السالم ، وإنما قيل للأعرج أحنف على جهة الفأل ، كما قيل للقَفْر مفازة ، فكأنه ـ والله أعلم ـ أراد الذين خلصوا من الآفات كلها والزيادات ، ومن المعاصي والطاعات ، فلا طاعة منهم ولا معصية ، إذا لم يعملوا بواحدة منهما ؛ ألا ترى إلى قول موسى في الغلام الذي قتله الخَضِر : ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًۢا زَكِيَّةًۢ﴾ [الكهف: ٧٤] لما كان عنده ممن لم يبلغ العمل فيكسب الذنوب [(٣)] .

---

(١) انظر جواب هذه الشبهة ص (١٢٧ ، ١٣٠) .

(٢) انظر جواب هذه الشبهة ص (١٢١ - ١٢٧) .

(٣) بل هذا الاستشكال من موسى ـ عليه السلام ـ ووصف نفس الطفل بأنها زكية ، يدل على أن المولود يولد على فطرة الإسلام ، والطفل ـ وإن كان دون البلوغ ـ يثاب على الطاعات إذا كان مميزًا وتصح منه ، بل يصح حج الطفل ولو كان رضيعًا ، ويُحرِم عنه وليه ، لكن لا يجزئه عن حجة الإسلام .

ومن الحجة أيضًا في هذا قول الله ـ عز وجل ـ : ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦] ، ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨] ومن لم يبلغ وقت العمل لم يرتهن بشيء ، وقال الله ـ عز وجل ـ : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] ، ولما أجمعوا على دفع القود والقِصاص والحدود والآثام عنهم في دار الدنيا ، كانت الآخرة أولى بذلك [(١)] ، والله أعلم » اهـ [(٢)] .

❁ ❁ ❁

(١) ولا يخفى أن هذا الاحتجاج مبني على عدم التفرقة بين الإيمان الفطري الذي يولد عليه الناس كافة ، وبين الإيمان الكسبي الذي يكون نتيجة إعمال العقل والحواس والاستجابة لدعوة الرسل ـ عليهم السلام ـ ، قال الإمام الخطابي ـ رحمه الله ـ : « لا عبرة للإيمان الفطري في أحكام الدنيا ، وإنما يعتبر الإيمان الشرعي المكتسب بالإرادة والفعل ، ألا ترى أنه يقول : (**فأبواه يهودانه وينصرانه**) فهو مع وجود الإيمان الفطري فيه محكوم له بحكم الأبوين الكافرين » اهـ . من « معالم السنن » (٤/ ٢٩٩) ، ثم إن قولنا : إن الأطفال يولدون على الفطرة لا يعني أنهم مكلفون ، وإنما جعل الله هذه الفطرةُ معينةً لهم على قَبول الدين ، ومعرفة الشريعة ، ودافعةً لهم على قبولها ومحبتها .

وقال الشوكاني ـ رحمه الله ـ : « فكل فرد من أفراد الناس مفطور أي مخلوق على ملة الإسلام ، ولكن لا اعتبار بالإيمان والإسلام الفطريين ، وإنما يُعتبر الإيمانُ والإسلام الشرعيان ، وهذا قول جماعة من الصحابة ومن بعدهم ، وقول جماعة من المفسرين ، وهو الحق » اهـ . من « فتح القدير » (٤/ ٢٢٤) .

(٢) « التمهيد » (١٨/ ٦٨ – ٧١) .

تعليق شيخ الإسلام ابن تيمية على كلام الحافظ ابن عبد البر

قال شيخ الإسلام ـ فيما نقله عنه ابن القيم ـ : « هذا القائل أن أراد بهذا القول أنهم خُلقوا خالين من المعرفة والإنكار من غير أن تكون الفطرةُ تقتضي واحدًا منهما ، بل يكونُ القلبُ كاللوح الذي يقبلُ كتابةَ الإيمان والكفر وليس هو لأحدهما أَقْبَلَ منه للآخر ، وهذا هو الذي يُشعِرُ به ظاهرُ الكلام ، فهذا قولٌ فاسدٌ ، لأنه حينئذٍ لا فرقَ بالنسبة إلى الفطرة بين المعرفةِ والإنكارِ ، والتهويدِ والتنصيرِ والإسلامِ ، وإنما ذلك بحسب الأسباب ، فكان ينبغي أن يُقال : (**فأبواه يسلمانه ويهوِّدانه وينصِّرانه ويمجِّسانه**) ، فلمَّا ذَكَرَ أن أبويه يكفِّرانه ، وذَكَرَ الملل الفاسدة دون الإسلام ، عُلم أن حكمه في حصول ذلك بسببٍ منفصلٍ عن حُكم الكفر .

وأيضًا فإنه على هذا التقدير لا يكون في القلب سلامةٌ ولا عطبٌ ولا استقامةٌ ولا زيغٌ إذْ نِسبته إلى كلٍّ منهما نسبةٌ واحدةٌ ، وليس هو بأحدهما بأَوْلى منه بالآخر ، كما أن اللوحَ قبل الكتابةِ لا يَثْبُتُ له حُكمُ مدحٍ ولا ذم ، فما كان قابلًا للمدح والذم على السواء لم يستحقَّ مدحًا ولا ذمًّا ، والله ـ تعالى ـ يقول : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠] ، فأَمَره بلزوم فِطرته التي فَطَر الناسَ عليها ، فكيف لا تكون ممدوحةً ؟ وأيضًا فإن النبيَّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ شبهها بالبهيمة المجتمعةِ الخَلْق ، وشَبَّه ما طرأ عليها مِن الكفر بِجَدْعِ الأنفِ والأذن ، ومعلومٌ أن كمالَهما محمودٌ ، ونقصَهما مذمومٌ ، فكيف تكون قَبْلَ النقص لا محمودةً ولا مذمومةً » اهـ[(١)] .

---

(١) « شفاء العليل » ص (٦٢٥ ، ٦٢٦) .

كلام نفيس لابن القيم حول معنى اقتضاء الفطرة الإسلام

قال ـ رحمه الله تعالى ـ :

[وإن كان المراد بهذا القول ما قاله طائفة من العلماء أن المراد أنهم وُلدوا على الفطرة السليمة التي لو تُركت مع صحتها لاختارت المعرفةَ على الإنكار ، والإيمانَ على الكفر ، ولكنْ بما عَرَض لها من الفساد خَرَجَت عن هذه الفطرة ، فهذا القولُ قد يُقال ، لا يَرِدُ عليه ما يَرِدُ على القول الذي قبله ، فإن صاحبَه يقولُ : في الفطرة قوةٌ تميل بها إلى المعرفة والإيمان كما في البدن السليم قوةٌ يحبُّ بها الأغذيةَ النافعةَ ، وبهذا كانت محمودةً ، وذُمَّ من أفسدها .

لكن يُقال : فهذه الفطرة التي فيها هذه القوةُ والقبولُ والاستعدادُ والصلاحيةُ هل هي كافيةٌ في حصول المعرفة أو تقف المعرفةُ على أدلةٍ من خارج ؟ فإن كانت المعرفةُ تقف على أدلةٍ من خارجٍ أمكن أن تُوجد تارةً وتُعدمَ أخرى ، ثم ذلك السببُ يمتنعُ أن يكون موجبًا للمعرفة بنفسه ، بل غايتُه أن يكون معرِّفًا ومُذَكِّرًا ، فعند ذلك إن وَجَب حصولُ المعرفة كانت واجبةَ الحصول عند وجود ذلك السبب ، وإلا فلا . وحينئذٍ فلا يكون فيها إلا قبولُ المعرفة والإيمان ، وحينئذٍ فلا فرقَ فيها بين الإيمان والكفر ، والمعرفة والإنكار ، إنما فيها قوةٌ قابلةٌ لكل منهما ، واستعدادٌ له ، لكن يتوقف على المؤثر الفاعل من خارجٍ . وهذا هو القسم الأول الذي أبطلناه وبيَّنَّا أنه ليس في ذلك مدحٌ للفطرة .

وأما إن كان فيها قوةٌ تقتضي المعرفةَ بنفسها وإن لم يوجَدْ مَن يُعَلِّمُها أدلةَ المعرفة فيها بدون ما يسمعه مِن الأدلة [(١)] سواء قيل أن المعرفة ضروريةٌ فيها ، أو

(١) وهذا القول يؤيده موقف المتحنفين في الجاهلية ، انظر : ص (١٠٨) .

قيل إنها تحصلُ بأسباب تنتظمُ في النفس وإن لم يسمع كلامَ مستدلٍّ ، فإن النفس قد يقوم بها من النظر والاستدلال ما لا تحتاج معه إلى كلام الناس . فإن كان كلُّ مولودٍ يُولد على هذه الفطرة ؛ لزمَ أن يكون المقتضي للمعرفة حاصلًا لكل مولودٍ وهو المطلوبُ ، والمقتضِي التامُّ مستلزِمٌ مقتضاه ، فتبين أن أحد الأمرين لازمٌ إما كونُ الفطرةِ مستلزمةً للمعرفة ، وإما استواء الأمرين بالنسبة إليها ، وذلك ينفي مدحَها .

وتلخيص ذلك أن يقال : المعرفة والإيمان بالنسبة إليها ممكنٌ بلا ريب ، فإما أن تكون هي موجبةً مستلزمةً لذلك ، وإما أن لا تكون مستلزمةً له فلا يكون واجبًا لها ، فإن كان الثاني لم يكن فرقٌ بين الكفر والإيمان بالنسبة إليها ، أو كلاهما ممكنٌ لها ، فثبت أن المعرفةَ لازمةٌ لها إلا أن يعارضَها معارضٌ ، فإن قيل : ليست موجبةً مستلزمةً للمعرفة ولكن هُيئ إليها الميلُ مع قَبولها للنكرة قيل : فحينئذ إذا لم تستلزم المعرفة وُجدت تارة وعُدمت تارة ، وهي وحدها لا تحصِّلها فلا تحْصُلُ إلا بشخصٍ آخر كالأبوين ، فيكون الإسلامُ والتهويدُ والتنصيرُ والتمجيسُ ، ومعلومٌ أن هذه أنواعٌ بعضُها أبعدُ عن الفطرةِ مِن بعض كالتمجيس ، فإن لم تكن الفطرةُ مقتضيةً للإسلام صار نسبتُها إلى ذلك كنسبة التهويدِ والتنصيرِ إلى التمجيس ، فوجب أن يُذكر كما ذُكر ذلك ، ويكون هذا كمكوِّنِ الفطرةِ لا يقتضي الرَّضاعَ إلا بسببٍ منفصلٍ ، وليس كذلك ، بل الطفلُ يختارُ مصَّ اللبن بنفسه ، فإذا مُكِّن مِن الثدي وُجدت الرضاعةُ لا محالة ، فارتضاعه ضروريٌّ إذا لم يُوجد مُعارض ، وهو مولود على أن يرضع ، فكذلك هو مولودٌ على أن يعرفَ اللهَ ، والمعرفة ضرورية لا محالةَ إذا لم يوجدْ معارضٌ .

وأيضًا فإن حبَّ النفس لله وخضوعَها له وإخلاصَها له ، مع الكفر به والشِّرك والإعراض عنه ونسيانِ ذِكْره ؛ إما أن يكون نسبتُهما إلى الفطرةِ سواءً ، أو

الفطرةُ مقتضيةً للأول دون الثاني ، فإن كانا سواءً لزِمَ انتفاءُ المدح كما تقدم ، وإن لم يكن فرق بين دعائها إلى الكفر ودعائها إلى الإيمان ، ويكون تمجيسُها كتحنيفها ، وقد عُرف بطلانُ هذا ، وإن كان فيها مقتضٍ لهذا فإما أن يكون المقتضِي مستلزمًا لمقتضاه عند عدم المُعارض ، وإما أن يكون متوقفًا على شخص خارجٍ عنها ، فإن كان الأولُ ثبتَ ذلك من لوازمها ، وأنها مفطورةٌ عليه لا يُفْقَد إلا إذا فسدت الفطرة ، وإن قُدر أنه متوقفٌ على شخص فذلك الشخصُ هو الذي يجعلها حنيفيةً كما يجعلُها مجوسيةً ، وحينئذٍ فلا فرقَ بين هذا وهذا .

وإذا قيل : هي إلى الحنيفية أميلُ كان كما يقال هي إلى غيرها أميل ، فتبيَّن أن فيها قوةً موجبةً لحب الله والذلِّ له وإخلاص الدين له ، وأنها موجبة لمقتضاها إذا سَلِمَت من المعارض ، كما أن فيها قوةً تقتضي شربَ اللبن الذي فُطرت على محبته وطلبه ، مما يبين هذا أن كل حركة إرادية فإن الموجِبَ لها قوةٌ في المريد ، فإذا أمكن في الإنسان أن يحب الله ويعبده ويخلص له الدين كان فيه قوة تقتضي ذلك ، إذ الأفعال الإرادية لا يكون سببُها إلا من نفس الحيِّ المريد الفاعل ، ولا يُشترط في إرادته إلا مجردُ الشعور بالمراد ، فما في النفوس مِن قوة المحبة له إذا شَعَرت به تقتضي حُبه إذا لم يحصلْ مُعارض ، وهذا موجودٌ في محبة الأطعمة والأشربة والنكاح والعلم وغيرها ، وقد ثبت أن في النفس قوةَ المحبة لله والإخلاص والذلِّ له والخضوع ، وأن فيها قوةَ الشعور به ، فيلزمُ قطعًا وجودُ المحبة له والتعظيم والخضوع بالفعل لوجود المقتضي إذا سَلِمَ عن المُعارض ، وتَبَيَّنَ أن المعرفة والمحبة لا يُشترط فيهما وجودُ شخصٍ منفصلٍ ، وإن كان وجودُه قد يذَكِّر ويحرِّك ، كما لو خُوطب الجائعُ أو الظمآن بوصفِ طعامٍ ، أو خُوطِبَ المغتلمُ [١] بوصف النساء ،

(١) اغتلم الإنسان : اشتدت غُلْمَتُه ، وهي شهوة الجماع .

فإن هذا مما يُذكِّره ويحركه ويثيرُ شهوتَه الكامنة بالقوة في نفسه ، لا أنه يُحْدِثُ له نفسَ تلك الإرادة والشهوة بعد أن لم تكن فيه ، فيجعلُها موجودةً بعد أن كانت عدمًا ، فكذلك الأسبابُ الخارجةُ عن الفطرة لا يتوقف عليها وجودُ ما في الفطرةِ مِن الشعور بالخالق ومحبته وتعظيمه والخضوع له ، وإن كان ذلك مذكِّرًا ومحركًا ومنبهًا ومزيلًا للعارض المانع ، ولذلك سَمَّى اللهُ ـ سبحانه ـ ما كَمَّلَ به موجباتِ الفطرةِ بذكْرٍ أو ذِكْرَى ، وجعل رسوله مذكِّرًا ، فقال : ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ٢١] ، وقال : ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الأعلى: ٩] ، وقال : ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣] ، وقال : ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد: ١٩] ، وقال : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧] ، وقال : ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧] ، وقال : ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨] ، وهذا كثيرٌ في القرآن يخبرُ أن كتابَه ورسولَه مذكِّر لهم بما هو مركوزٌ في فِطَرهم مِن معرفته ومحبته وتعظيمه وإجلاله والخضوع له والإخلاص له ومحبة شرعه الذي هو العدلُ المحضُ وإيثاره على ما سواه ، فالفِطَرُ مركوزٌ فيها معرفته ومحبته والإخلاص له والإقرار بشرعه وإيثاره على غيره ، فهي تعرف ذلك وتشعر به مجمَلًا ومفصَّلًا بعض التفصيل ، فجاءت الرسل تذكِّرها بذلك ، وتنبِّهها عليه ، وتفصِّله لها وتبينه ، وتعرِّفها الأسبابَ المعارضةَ لموجِبِ الفطرةِ المانعةِ من اقتفائها أثرَها ، وهكذا شأن الشرائع التي جاءت بها الرسلُ ، فإنها أمرٌ بمعروفٍ ونهيٌ عن منكرٍ ، وإباحةُ طيبٍ وتحريمُ خبيثٍ ، وأمرٌ بعدلٍ ونهيٌ عن ظلمٍ ، وهذا كلُّه مركوزٌ في الفطرة وكمال تفصيله وتبيينه موقوفٌ على الرسل ، وهكذا بابُ التوحيدِ وإثباتِ الصفاتِ ، فإنَّ في الفطرةِ الإقرارَ بالكمال المطلق الذي لا نقصَ فيه للخالق سبحانه ، ولكنَّ معرفةَ هذا الكمال على التفصيل مما يتوقفُ على الرسل ، وكذلك

تنزيهه عن النقائص والعيوب هو أمرٌ مستقر في فِطر الخلائق ، خلافًا لمن قال من المتكلمين إنه لم يقم دليلٌ عقليٌّ على تنزيهه عن النقائص وإنما عُلم بالإجماع :

قُبْحًا لهاتيك العقولِ فإنها عُقُلٌ [(١)] على أصحابها ووبالُ

فليس في العقول أبينُ ولا أجْلَى مِن معرفتها بكمال خالقِ هذا العالم وتنزيهه عن العيوب والنقائص ، وجاءت الرسلُ بالتذكرةِ بهذه المعرفة وتفصيلها ، وكذلك في الفِطر الإقرارُ بسعادة النفوس البشرية وشَقاوتها ، وجزائها بكسبها في غير هذه الدار ، وأمَّا تفصيلُ ذلك الجزاء والسعادة والشقاوة فلا تُعلم إلا بالرسل ، وكذلك فيها ـ أي الفِطَر ـ معرفة العدل ومحبتُه وإيثارُه ، وأما تفاصيلُ العدل الذي هو شرعُ الرب تعالى فلا يُعلم إلا بالرسل ، فالرسلُ تُذكِّر بما في الفطر وتُفَصِّله وتبينُه ، ولهذا كان العقل الصريحُ موافقًا للنقل الصحيح ، والشِّرْعةُ مطابقةً للفطرة ، يتصادقان ولا يتعارضان ، خلافًا لمن قال : إذا تعارض العقلُ والوحيُ قَدَّمنا العقلَ على الوحي :

فَقُبْحًا لعقلٍ ينقضُ الوحيُ حُكمَهُ ويشهدُ حقًّا أنه هو كاذبُ

والمقصودُ أن اللهَ فَطر عبادَه على فطرةٍ فيها الإقرارُ به ومحبتُه والإخلاصُ له والإنابةُ إليه وإجلالُه وتعظيمُه ، وأن الشخصَ الخارجَ عنها لا يُحدِثُ فيها ذلك ويجعلها فيها بعد أن لم تكن ، وإنما يذكِّرها بما فيها وينبهها عليه ويحرِّكُها له ويفصِّلُه لها ويبينُه ويعرِّفُها الأسبابَ المقويةَ والأسبابَ المعارضةَ له والمانعةَ مِن كماله ، كما أن الشخصَ الخارجَ لا يجعلُ في الفطرةِ شهوةَ اللبن عند الرَّضاع والأكل والشرب والنكاح ، وإنما تُذكِّر النفسَ وتحركُها لما هو مركوزٌ فيها بالقوة.

ومما يبين ذلك أن الإقرار بالصانع مع خُلُوِّ القلبِ عن محبته والخضوع له وإخلاص الدين له لا يكونُ نافعًا ، بل الإقرار به مع الإعراض عنه وعن محبته

(١) عُقُل : جمع عِقال ، والحبل الذي يُعْقَلُ به البعير ، ليبقى باركًا .

وتعظيمه والخضوع له أعظمُ استحقاقًا للعذاب ، فلابد أن يكون للفطرة مقتضٍ للعلم ومقتضٍ للمحبة ، والمحبةُ مشروطةٌ بالعلم ، فإن ما لا يشعرُ به الإنسان لا يحبُّه ، والحبُّ للمحبوبات لا يكونُ بسببٍ من خارج ، بل هو جِبِلِّيٌّ فِطرِيٌّ ، فإذا كانت المحبةُ جِبِلِّيَّةً فطريةً فشرطُها ـ وهو المعرفة أيضًا ـ جِبِلِّيٌّ فِطْرِيٌّ ، فلابد أن يكونَ في الفطرة محبة الخالق مع الإقرار به ، وهذا أصل الحنيفية التي خَلَقَ اللهُ خَلْقَه عليها ، وفِطْرتُه التي فَطَرَهم عليها ، فعُلِم أن الحنيفيةَ مِن موجِبات الفطرةِ ومقتضياتها ، والحبُّ لله والخضوعُ له والإخلاصُ هو أصلُ أعمال الحنيفية ، وذلك مستلزمٌ للإقرار والمعرفة ، ولازمُ اللازمِ لازمٌ ، وملزومُ الملزومِ ملزومٌ ، فالفطرةُ ملزومةٌ لهذه الأحوال ، وهذه الأحوال لازمةٌ لها .

❁ ❁ ❁

فقد تبينَ دلالةُ الكتابِ والسنةِ والآثارِ واتفاقِ السلف على أن الخلقَ مفطورون على دين الله الذي هو معرفتُه والإقرارُ به ومحبتُه والخضوعُ له ، وأن ذلك موجَبُ فِطرتهم ومقتضاها ، يجبُ حصولُه فيها إن لم يحصلْ ما يعارضُه ويقتضي حصولَ ضده ، وأن حصولَ ذلك فيها لا يقف على وجود شرط ، بل على انتفاء المانع ، فإذا لم يوجدْ فهو لوجودِ منافيه لا لعدمِ مقتضيه ، ولهذا لم يذكر النبيُّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ لوجود الفطرة شرطًا ، بل ذَكَر ما يمنعُ موجبَها حيث قال : « **فأبواه يهوِّدانه وينصِّرانه ويمجِّسانه** » ، فحصول هذا التهويد والتنصير موقوفٌ على أسبابٍ خارجةٍ عن الفطرة ، وحصولُ الحنيفية والإخلاص ومعرفة الرب والخضوع له لا يتوقف أصله على غير الفطرة ، وإن توقف كمالُه وتفصيلُه على غيرها ، وبالله التوفيق] اهـ[(١)] .

(١) « شفاء العليل » ص (٦٢٦ – ٦٣٢) .

الدليل الخامس

حديث عياض بن حمار المجاشعي ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « **ألا إن ربي أمرني أن أعلمَكم ما جهِلتم مما علمني يومي هذا ، كلُّ مالٍ نحلتُه عبدًا حلال ، وإني خلقتُ عبادي حُنفاءَ كلَّهم ، وإنهم أتَتْهم الشياطينُ فاجتالتْهم عن دينهم ، وحَرَّمَتْ عليهم ما أحللتُ لهم ، وأمرتْهم أن يُشْرِكوا بي ما لم أنزلْ به سُلطانًا** .. » [(١)] ، ومعنى نحلتُه : أعطيتُه .

حُنَفاء : جمع حَنيف ، قال ابن عبد البر ـ رحمه الله ـ : « والحنيف في كلام العرب : المستقيم المخلص ، ولا استقامة أكثر من الإسلام .

وقد رُوي عن الحسن قال : الحنيفية : حج البيت [(٢)] ، وكذلك رُوي عن الضحاك والسُّدِّي : « حنفاء : حُجَّاجًا » ، وعن مجاهد : « حنفاء » قال : متبعين .

وهذا كله يدلك على أن الحنيفية : الإسلام » .

قال : « وقال أكثر العلماء : الحنيف : المُخلص ، وقال الله ـ عز وجل ـ : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ﴾ [آل عمران: ٦٧] ، وقال : ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ [الحج: ٧٨] .

فلا وجه لإنكار من أنكر رواية من روى : « **حنفاء مسلمين** » [(٣)] .

---

(١) رواه مسلم رقم [٢٨٦٥] (٤/ ٢١٩٧) ، والإمام أحمد (٢٩/ ٣٢ - ٣٤) [١٧٤٨٤] .

(٢) وفي « الكليات » لأبي البقاء : « إذا ذُكِر الحنيف مع المسلم فهو الحاج ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ﴾ [آل عمران: ٦٧] ، وإذا ذُكِر وحده فهو المسلم ، كقوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ [الروم: ٣٠] » اهـ . نقلًا من « المعجم الوسيط » ص (٢٠٣) .

(٣) وهي رواية محمد بن إسحاق ، عن ثور بن يزيد ، عن يحيى بن جابر ، عن عبد الرحمن بن عائذ الأزدي ، عن عياض المجاشعي أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال للناس يومًا : « **ألا أحدثكم بما حدَّثني اللهُ في الكتاب : إن الله خلق آدم وبنيه حنفاء مسلمين** ... » الحديث بطوله ، انظر : « التمهيد » (١٨/ ٧٣ – ٧٥) ، والحديث رواه الطبراني في « الكبير » (١٧/ ٩٩٧) ، والطحاوي في « شرح مشكل الآثار » [٣٨٧٨] .

قال الشاعر ـ وهو الراعي [١] ـ :

أخليفةَ الرحمن إنَّا مَعْشرٌ ... حُنَفَاءُ نَسجدُ بُكرةً وأصيلا

عربٌ نَرَى للهِ في أموالنا ... حقَّ الزّكاةِ مُنزَّلاً تَنزيلا

فهذا وصف الحنيفية بالإسلام ، وهو أمر واضح لا خفاء به .

وقيل : الحنيف من كان على دين إبراهيم ، ثم سُمي من كان يختتن ويحج البيت في الجاهلية حنيفًا ، والحنيف اليوم المسلم ؛ ويقال : إنما سُمي إبراهيم حنيفًا ، لأنه كان حَنَفَ عما كان يعبد أبوه وقومه من الآلهة إلى عبادة الله . أي : عدل عن ذلك ومال ؛ وأصل الحَنَفِ ميل من إبهامي القدمين [٢] كل واحدة منهما على صاحبها » [٣] .

وقالت أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ : « وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يخلو بغار حراء ، فَيَتَحَنَّثُ فيه ـ وهو التعبد ـ لياليَ ذواتِ العدد » الحديث [٤] .

قولها : « فيتحنث » قال الحافظ : « هي بمعنى يتحنف ، أي : يتبع الحنيفية ، وهي دين إبراهيم ، والفاء تبدل ثاء في كثير من كلامهم » [٥] ، قال ابن هشام : « تقول العرب : التحنث ، والتحنف ، يريدون الحنيفية ، فيُبدلون الفاء من الثاء ، كما قالوا : جَدَف وجَدَث ، يريدون القبر ، قال رؤبة بن العجاج :

*** لو كان أحجاري مع الأجداف ***

يريد الأجداث » [٦] .

---

(١) النميري ، والبيتان من قصيدة أنشدها لعبد الملك بن مروان يشكو فيها من بعض عماله .

(٢) وهو المسمى : (Talipes) أو (Clubfoot) .

(٣) انظر : « التمهيد » (١٨/ ٧٥) ، و « درء التعارض » (٨/ ٣٦٩ – ٣٧١) ، و « مجموع الفتاوى » (١٦/ ٣٤٥) .

(٤) رواه البخاري رقم [٣] ، وكرره في عدة مواضع من « صحيحه » .

(٥) « فتح الباري » (١/ ٥٤) ط. دار طيبة ـ الرياض ، وانظر : « الجامع لأحكام القرآن » للقرطبي (١/ ٤٢٥) .

(٦) « السيرة النبوية » لابن هشام (١/ ١٧١) .

وقال ابن فارس : « الحنيف : المائل إلى الدين المستقيم ، قال الله تعالى : ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ [آل عمران: ٦٧] »[(١)] .

وقال الزمخشري : « قد تحنَّف إلى الشيء إذا مال إليه ، ومنه قيل لمن مال عن كل دين أعوج : هو حنيف ، وله دين حنيف ، وتحنف فلان إذا أسلم »[(٢)] .

وقال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ : « قوله : ﴿حَنِيفًا﴾ الحنف هو الميل ، وغلب استعمال هذا الوصف في الميل عن الباطل أي العدول عنه بالتوجه إلى الحق ، أي عادلًا ومنقطعًا عن الشرك ، كقوله تعالى : ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[(٣)] [البقرة: ١٣٥] » .

قول إمام المفسرين ابن جرير الطبري في معنى « الحنيف » :

ذكر ـ رحمه الله ـ اختلاف أهل التأويل في تفسير « الحنيف » ثم قال :

« والحنيفُ عندي هو الاستقامةُ على دينِ إبراهيمَ واتباعُه على مِلَّتِه ، وذلك أن الحنيفيةَ لو كانت حجَّ البيتِ ، لوجَب أن يكونَ الذين كانوا يَحُجُّونَه في الجاهلية من أهل الشرك كانوا حنفاءَ ، وقد نَفَى اللهُ ـ جل ثناؤه ـ أن يكون ذلك تَحَنُّفًا بقوله : ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧] .

وكذلك القولُ في الختانِ ؛ لأن الحنيفيةَ لو كانت هي الختانَ ، لوجَب أن يكونَ اليهودُ حُنفاءَ ، وقد أخرجهم الله من ذلك بقوله : ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ الآية [آل عمران: ٦٧] . فقد صحَّ إذن أن الحنيفيةَ ليست الختانَ وحدَه ، ولا حجَّ البيتِ وحدَه ، ولكنه هو ما وصَفْنا من الاستقامةِ على ملةِ إبراهيمَ واتباعِه عليها والائتمامِ به فيها .

---

(١) « معجم مقاييس اللغة » (٢/ ١١٠ ، ١١١) .

(٢) « أساس البلاغة » ص (٩٧) .

(٣) « التحرير والتنوير » (٢١/ ٨٩) .

فإن قال قائلٌ : أَوَما كان مَن كان قبلَ إبراهيم ـ عليه السلام ـ من الأنبياء وأتباعِهم مستقيمين على ما أُمِرُوا به من طاعة الله استقامةَ إبراهيمَ وأتباعِه ؟ قيل : بلى .

فإن قال قائلٌ : فكيف أُضيفَ الحنيفيةُ إلى إبراهيمَ وأتباعِه على مِلَّتِه خاصةً دونَ سائر الأنبياءِ قبلَه وأتباعِهم ؟

قيل : إن كلَّ مَن كان قبلَ إبراهيمَ من الأنبياءِ كان حنيفًا مُتَّبِعًا طاعةَ الله ، ولكنَّ اللهَ تعالى ذِكْرُه لم يجعل أحدًا منهم إمامًا لمن بعدَه من عِبادِه إلى قيامِ الساعةِ ، كالذي فعل مِن ذلك بإبراهيمَ ، فجعله إمامًا فيما بَيَّنه من مناسكِ الحجِّ والختانِ ، وغيرِ ذلك من شرائعِ الإسلام ـ يُقتدَى به أبدًا إلى قيامِ الساعةِ ، وجعَل ما سنَّ من ذلك عَلَمًا مُمَيَّزًا بين مؤمِني عبادِه وكفارِهم ، والمطيعِ منهم له والعاصي ، فسُمِّيَ الحنيفُ من الناسِ حنيفًا باتِّباعِه مِلَّتَه واستقامته على هَدْيِه ومِنهاجِه ، وسُمِّيَ الضَّالُّ عن ملَّتِه بسائرِ أسماءِ الملل ، فقيل : يهوديٌّ ، ونصرانيٌّ ، ومجوسيٌّ ، وغيرُ ذلك من صنوف الملل .

وأما قوله : ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ، فإنه يقولُ : إنه لم يكنْ ممن يَدِينُ بعبادةِ الأوثانِ والأصنامِ ، ولا كان من اليهودِ ولا من النصارَى ، بل كان حنيفًا مسلمًا » [(١)] .

❁ ❁ ❁

ومن العلماء من ذهب إلى أن أصل (الحَنَف) في لغة العرب ليس هو الميل ولكن الاستقامة والسلامة ، قال الإمام ابن عبد البر ـ رحمه الله ـ : « الفطرة : السلامة والاستقامة ، بدليل حديث عياض بن حمار عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حاكيًا عن ربه ـ عز وجل ـ : **(إني خلقت عبادي حنفاء)** يعني على استقامة

(١) « جامع البيان » (٢/ ٥٩٤ ، ٥٩٥) ، وانظر كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في معنى « الحنيف » في « تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية » (١/ ٣٥١ – ٣٥٧) .

وسلامة ، والحنيف في كلام العرب المستقيم السالم ، وإنما قيل للأعرج : أحنف على جهة الفأل ، كما قيل للقفر : مفازة [(١)] » انتهى محل الغرض منه [(٢)] .

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ : « والحنيف : المُقبل على الله تعالى ، المُعْرِض عمَّا سواه ، ومن فسَّره بالمائل فلم يفسِّره بنفس موضوع اللفظ ، وإنما فسَّره بلازم المعنى ، فإن الحَنَف هو الإقبال ، ومن أقبل على شيء مال عن غيره ، والحنف في الرِّجْلَين هو إقبال إحداهما على الأخرى ، ويلزمه ميلُها عن جهتها » [(٣)] .

وقال ـ رحمه الله ـ أيضًا : « والحنيف : المقبل على الله ، ويلزم هذا المعنى : مَيْلُه عما سواه ، فالميل لازمُ معنى الحَنَف ، لا أنه موضوعُه لغةً » [(٤)] .

وحاصل معنى هذا الحديث أن الله قد خلق عباده خِلقة مقتضية للتوحيد ، وأنهم لو استمروا عليها دون صارف يصرفهم عنها لكانوا حنفاء موحِّدين ، لكن الشياطين صرفتهم عن مقتضى تلك الخلقة إلى الشرك .

فإخبار الله تعالى أنه خلق عباده حنفاء يدل على أنه خلقهم على ما يقتضي أن يكونوا موحِّدين ، لأن الحنيف في اللغة وفي نصوص الكتاب والسنة هو المائل عن الشرك إلى التوحيد ، أو هو السالم المستقيم .

وأما النصوص الدالة على أن الحنيف بمعنى المسلم الموحِّد فكثيرة . منها قوله تعالى : ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾[البينة: ٥] ، ومنها قوله :

---

(١) وفي الحديث « أنهم مَرُّوا بماءٍ فيه سَليم ، فقالوا : هل فيكم من راقٍ ؟ » ، قال ابن الأثير ـ رحمه الله ـ : « السَّليم : اللديغ ، يقال : سَلَمَتْه الحَيَّة ، أي لدغته ، وقيل : إنما سُمِّي سليمًا تفاؤلًا بالسلامة ، كما قيل للفلاة المُهْلِكة : مفازة » اهـ . من « النهاية » (٢/ ٣٩٦) .

(٢) « التمهيد » (١٨/ ٧٠ ، ٧١) .

(٣) « جِلاء الأفهام » ص (٣٠٥ ، ٣٠٦) ط. دار عالم الفوائد ـ مكة المكرمة .

(٤) انظر : « مفتاح دار السعادة » (١/ ٤٩٩) د. دار عالم الفوائد .

﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٧] ، وقوله تعالى : ﴿فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٥] ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يونس: ١٠٥] ، وقوله ـ عز وجل ـ : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ [النساء: ١٢٥] ، وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ﴾ [الأنعام: ٧٩] ، وقوله ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ [الأنعام: ١٦١] .

وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « **إني لم أُبْعَثْ باليهودية ولا بالنصرانية ، ولكني بُعِثْتُ بالحنيفية السَّمْحَةِ** » الحديث [(١)] .

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : قيل : يا رسول الله ! أيُّ الأديان أحب إلى الله ؟ قال : « **الحنيفية السمحة** » [(٢)] .

وعن أُبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ : أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « **إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن** » ، فقرأ عليه : ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ [البينة: ١] ، وفيها : « **إن ذات الدين عند الله الحنيفية المسلمة لا اليهودية ولا النصرانية ولا المجوسية من يعمل خيرًا فلن يُكْفَرَه .. ** » الحديث [(٣)] .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد [٢٢٢٩١] (٣٦/ ٦٢٣ ، ٦٢٤) من حديث أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ ، وأخرج أيضًا [٢٤٨٥٥] (٤١/ ٤٣٩) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ مرفوعًا بلفظ : « **إني أُرْسِلتُ بحنيفية سَمْحَةٍ** » ، وحسَّن المحققون إسناده ، وانظر : ص (١١٠) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد [٢١٠٧] ، وغيره ، وحسنه الحافظ في « الفتح » (١/ ١١٧) ، وانظر ص (١١٠) .

(٣) أخرجه الترمذي رقم [٤١٧١] ، وغيره ، وقال : « هذا حديث حسن صحيح » ، وجوَّد إسناده الحافظ في « الفتح » ، وحسنه الألباني في « صحيح الترمذي » رقم [٣٠٥٨] .
وقال ابن العربي ـ رحمه الله ـ : « هذا المتلوُّ على أُبيٍّ قد نُسخ كله كما روي في الصحيح ، وهو مما نُسخ لفظه ، ومعناه صحيح في الدين بجملته » اهـ . من « عارضة الأحوذي » (١٣/ ٢٦٤) .

فصــل: المتحَنِّفُونَ في الجاهِلِيَّة

لم يتدنس كل العرب بالشرك وعبادة الأوثان والأصنام وغيرها [(١)] ، فقد وُجد منهم من استبصر ببصيرته ، فأقرَّ بوجود الله ـ تعالى ـ وتوحيده ، ولم يدرك عامتهم دعوةَ رسول الله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بل بقي على أصل فطرته ، ونظر بعين بصيرته فلم يغير ولم يبدل ، وهم البقايا ممن كان على دين إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ [(٢)] .

والحنفاء : « أفراد من قبائل متفرقة » [(٣)] .

وقد سُموا « الحنفاء » تسمية لهم باسم دينهم الذي اتبعوه دين ابراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ القائم على التوحيد الخالص لله ـ تعالى ـ .

وقد ذكر أهل الأخبار من هؤلاء الحنفاء في قريش أكثر ممن ذكروه منهم في غيرها من القبائل العربية الأخرى . ولا غرو في هذا ، فإن قريشًا هم صريح ولد إسماعيل بن إبراهيم ـ عليهما السلام ـ .

وقد حفظ لنا التاريخ ذكر كوكبة من أولئك الحنفاء من ذرية إسماعيل بن إبراهيم ـ عليهما السلام ـ بَقُوا يعبدون الله ـ تعالى ـ على بقية من دين إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ جماعاتٍ وَوُحْدانًا .

فمن الجماعات : أولاد معد بن عدنان ، وربيعة ، ومُضَر .

---

(١) وقد بقي العرب من عدنان وقحطان ـ قبل ظهور عمرو بن لحيٍّ الخزاعي فيهم ـ على بصيرة من أمرهم يتعبدون بشريعة خليل الرحمن إبراهيم ـ التي تلقوها من ولده نبي الله إسماعيل ، وهي الحنيفية التي جاء بها محمد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

(٢) وهؤلاء لم يكونوا مقرين عمرو بن لحي الخزاعيَّ الذي كان أول من غير دين إسماعيل ـ عليه السلام ـ فنصب الأوثان ، وسيب السائبة ، ووصل الوصيلة ، وبحر البحيرة ، وحمى الحامي ، بل رفضوا ما ابتدعه من الدين ، وأنكروا ما شرعه من عبادة الأصنام وغيرها من المنكرات و الأباطيل التي سوَّلتها له نفسُه .

(٣) « بلوغ الأرب » (٢/ ٢٤٤) .

ومن أفراد الناس مِن ولد إسماعيل أيضًا : عبد المطلب بن هاشم جد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وهاشم بن عبد مناف الجد الثاني لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وعبد مناف بن قصي الذي كان « يُبغض الأصنام » [(١)] ، وقصي بن كلاب أول من بنى الكعبة بعد إبراهيم وإسماعيل ، وكان « ينهى عن عبادة الأصنام » [(٢)] . وكعب بن لؤي الجد السابع لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

قال العلامة محمود شكري الألوسي ـ رحمه الله ـ : « وذهب كثير من العلماء إلى أن جميع أصول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الآباء ، والأمهات كانوا مُوَحِّدين في اعتقادهم ، مؤمنين بالبعث ، والحساب ، وغير ذلك مما جاءت به الحنيفية من الأحكام » [(٣)] .

وكأن انتشار الحنيفية في ذرية إسماعيل بن إبراهيم وبقاءها فيهم ، أو في بعضهم ، إنما كان استجابة من الله تعالى لدعوتهما حين قالا : ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ [البقرة: ١٢٨] . وتحقيقًا لقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٨] . قال قتادة : « أي التوحيد ، والإخلاص ، لا يزال في ذريته من يوحِّدُ الله ويعبده » [(٤)] .

ومن أفراد الحنفاء :

خطيب العرب قاطبة قُسُّ بنُ سَاعِدَةَ الإيادِيُّ توفي قبل الهجرة بنحو ثلاث وعشرين سنة [(٥)] .

---

(١) « بلوغ الأرب » (٢/ ٢٨٤) ، وانظر : « نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب » (١/ ٣٢٧) .

(٢) « نفس المرجع » (٢/ ٢٨٥) .

(٣) « نفسه » (٢/ ٢٨٢) .

(٤) « تفسير الطبري » (٢٠/ ٥٧٧) .

(٥) « الأعلام » (٥/ ١٩٦) ، وانظر : « البداية والنهاية » (٣/ ٢٩٩) ط. دار هجر .

ومنهم : أبو قيس صِرْمَة بن أنس « فارق الأوثان ، وترهب في الجاهلية ، واغتسل من الجنابة ، وهَمَّ بالنصرانية ، ثم أمسك عنها ، ثم دخل بيتًا له ، فاتخذه مسجدًا ، لا يدخله طامث ، ولا جنب ، وقال : (أعبد رب إبراهيم) ، فلما قدم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المدينة ، أسلم ، وحَسُنَ إسلامه .. » [(١)] .

ومنهم : سويد بن عامر المصطلقي ، وعمير بن جندب الجهني ، وزهير بن أبي سلمى ، وخالد بن سنان بن غيث العبسي ، وعبد الله بن تغلب القضاعي ، وكعب بن لؤي بن غالب [(٢)] .

ومن أعيان الحنفاء : زيد بن عمرو بن نفيل [(٣)]

قال صاحب « الاستيعاب » : « كان زيد بن عمرو بن نفيل بن فهرٍ القرشي العدوي يطلب دين الحنيفية دين إبراهيم ـ عليه السلام ـ قبل أن يُبعث النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وكان لا يذبح للأنصاب ، ولا يأكل الميتة والدم » .

وذكر ابن إسحاق أن أسماء بنت أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ قالت : لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل مسندًا ظهره إلى الكعبة يقول : « يا معشر قريش ! والذي نفسي بيده ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيري » [(٤)] .

وروى الواقدي عن ابنه سعيد بن زيد [(٥)] قال : « توفي أبي وقريش تبني الكعبة ، وكان ذلك قبل المبعث بخمس سنين » .

---

(١) « بلوغ الأرب » (٢/ ٢٦٦) ، و« الإصابة » (٣/ ٤٢٢) .

(٢) انظر : « بلوغ الأرب » (٢/ ٢٤٤ ـ ٢٨٦) .

(٣) انظر : « نفس المرجع » (٢/ ٢٦٩ ـ ٢٧٥) .

(٤) وانظر : « صحيح البخاري » (٨/ ٥٣٤ ، ٥٣٨) رقم [٣٨٢٨] ط. دار طيبة .

(٥) من السابقين إلى الإسلام ، هاجر وشهد أحدًا والمشاهد بعدها ، ولم يكن بالمدينة زمان بدر ، فلذلك لم يشهدها ، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وكان إسلامه قديمًا قبل عمر ، وكان إسلام عمر عنده في بيته ، لأنه كان زوج أخته فاطمة .

ولما التقى ورقة بن نوفل ثلاثة من الحنفاء منهم زيد بن عمرو بن نفيل قال لهم : « تعلمون والله ما قومكم على دين ، لقد أخطئوا الحجة ، وتركوا دين إبراهيم ، وما حَجَرٌ تطيفون به ؟ لا يسمع ، ولا يبصر ، ولا ينفع ، ولا يضر ، يا قوم التمسوا لأنفسكم الدين » [(١)] .

توفي زيد بن عمرو بن نفيل قبل المبعث بخمس سنين يوم أن كانت قريش تبني الكعبة [(٢)] .

وقد خرج ورقة بن نوفل ، هو وزيد بن عمرو بن نفيل « يلتمسان الدين حتى انتهيا إلى راهب بالـمَـوْصِل ، فقال لزيد بن عمرو بن نفيل : من أين أقبلتَ يا صاحب البعير ؟ قال : من بَنِيَّةِ إبراهيم ، قال : وما تلتمس ؟ قال : ألتمس الدين ، قال : ارجع ؛ فإنه يوشك أن يظهر في أرضك » [(٣)] .

كان زيد بن عمرو بن نفيل يستقبل القبلة ، ويقول : « ديني دين إبراهيم ، وإلهي إله إبراهيم » [(٤)] .

وذكر البخاري في « صحيحه » أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدين ، ويتبعه ، فلقي عالمًا من اليهود فسأله عن دينهم ، فقال : إني لعلي أن أدين دينكم فأخبرني ، فقال : لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله ! قال زيد : ما أفر إلا من غضب الله ، ولا أحمل من غضب الله شيئًا أبدًا ، وأنَّى أستطيعه ! فهل تدلني على غيره ؟ قال : ما أعلمه إلا أن يكون حنيفًا .

---

(١) انظر : « البداية والنهاية » (٣/ ٣١٧) .

(٢) « المستدرك » للحاكم (٣/ ٤٣٨) .

(٣) « مسند الطيالسي » [٢٣٤] .

(٤) « كشف الأستار عن زوائد البزار » (٣/ ٢٨١) .

قال زيد : وما الحنيف ؟ قال : دين إبراهيم ، لم يكن يهوديًّا ، ولا نصرانيًّا ، ولا يعبد إلا الله ، فخرج فلقي عالمًا من النصارى ، فذكر مثله . فقال : لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله ! قال : ما أفر إلا من لعنة الله ، ولا أحمل من لعنة الله ، ولا من غضبه شيئًا أبدًا ، وأنَّى أستطيع ! فهل تدلني على غيره ؟ قال : ما أعلمه إلا أن يكون حنيفًا ، قال : وما الحنيف ؟ قال : دين إبراهيم ، لم يكن يهوديًّا ، ولا نصرانيًّا ، ولا يعبد إلا الله ، فلما رأى زيد قولهم في إبراهيم ـ عليه السلام ـ خرج ، فلما برز ، رفع يديه ، فقال : « اللهم إني أَشْهَدُ أني على دين إبراهيم » [(١)] .

قال الحافظ ابن حجر عن زيد : « وكان ممن طلب التوحيد ، وخلع الأوثان ، وجانب الشرك ، لكنه مات قبل المبعث » [(٢)] .

وقال عنه ابن كثير : « اعتزل الأوثان ، وفارق الأديان من اليهود والنصارى والملل كلها إلا دينَ الحنيفية دينَ إبراهيم ، يُوَحِّدُ الله ، ويخلَعُ مَن دونَه ، ولا يأكل ذبائح قومه ، باداهم بالفراق لما هم فيه » [(٣)] .

قال الذهبي : « زيد بن عمرو بن نفيل هو الذي قال فيه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (**إنه يُبعث أمة وحده**) وكان على دين إبراهيم ، ورأى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتوفي قبل مبعثه ـ صلى الله تعالى عليه وسلم ـ .

وكان دخل الشام والبلقاء ، وكان نفر من قريش زيد وورقة وعثمان بن الحرث وعبيد بن جحش خالفوا قريشًا ، وقالوا لهم : (إنكم تعبدون ما لا يضر ولا ينفع من الأصنام) ، ولا يأكلون ذبائحهم ، واجتمع بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل البعثة ، وقال له : إني شامت النصرانية واليهودية فلم أر فيها ما أريد ، فقصصت ذلك على

---

(١) أخرجه البخاري [٣٨٢٧] ، وانظر : « فتح الباري » (٧/ ١٤٤) .

(٢) « فتح الباري » (٧/ ٢٤٣) .

(٣) « البداية والنهاية » (٣/ ٣١٨) .

راهب فقال لي : إنك تريد ملة إبراهيم الحنيفية وهي لا توجد اليوم ، فالحق ببلدك فإن الله ـ تعالى ـ باعثٌ من قومك من يأتي بها ، وهو أكرم الخلق على الله » اهـ [(١)] .

وفي « صحيح البخاري » أن زيد بن عمرو بن نفيل كان يُحيي [(٢)] الموءودة ، يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته : « لا تقتلها ، أنا أكفيك مؤنتها » ، فيأخذها ، فإذا ترعرعت [(٣)] قال لأبيها : « إن شئتَ دفعتُها إليك ، وإن شئت كفيتك مؤنتها » [(٤)] .

وقد ذكره البيضاوي عند تفسير قوله ـ تعالى ـ : ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ الآية [البقرة: ٢٢] وقال : « هو مُوَحِّد الجاهلية » .

وهو القائل في فراق دين قومه :

أربًّا واحدًا أم ألفَ ربٍّ ... أدين إذا تقسمت الأمورُ
عزلت اللات والعزى جميعًا ... كذلك يفعل الجَلْدُ الصبور
فلا عزى أدين ولا ابنتيها ... ولا صَنَمَيْ بني عمرٍو أزورُ
ولا غنمًا أدين وكان ربًّا ... لنا في الدهر إذ حِلْمِي يسير [(٥)]

ومن أعيان الحنفاء : ورقة بن نوفل

ذكر البقاعي أن ورقة كان ممن وحَّد الله في الجاهلية ، فخالف قريشًا وسائر العرب في عبادة الأوثان وسائر أنواع الإشراك ، وعرف [بفطرته] وعقله الصحيح أنهم أخطؤوا دين إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ ، واجتهد في طلب الحنيفية دين إبراهيم ليعرف أحب الوجوه إلى الله ـ تعالى ـ في العبادة ، فلم يكتف بما هداه إليه عقلُه بل ضرب في الأرض ليأخذ علمه عن أهل العلم بكتب الله ـ تعالى ـ المنزلة من عنده الضابطة

---

(١) « بلوغ الأرب » (٢/ ٢٤٨) ، وانظر : سيرة ابن هشام (١/ ٢٥٠) .
(٢) والإحياء هنا مجاز ، والمراد بإحيائها : إبقاؤها .
(٣) ترعرع الصبي : تحرك ونشأ .
(٤) رواه النسائي في « الكبرى » [٨١٨٧] ، والبخاري تعليقًا [٣٨٢٨] .
(٥) « بلوغ الأرب » (٣/ ٤٥) .

للأديان ، فأداه سؤاله أهل الذكر الذين أمر الله بسؤالهم إلى أن اتبع الذي أوجبه الله ـ تعالى ـ في ذلك الزمان ، وهو الناسخ لشريعة موسى ـ عليه السلام ـ دين النصرانية ، **ولم يتبعهم في التبديل بل في التوحيد** ، وصار يبحث عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذي بشر به موسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ ، وقال أشعارًا يتشوق فيها غاية التشوق إلى إنجاز الأمر الموعود لينخلع من النصرانية إلى دين هذا النبي ، لأنه كان قال لزيد بن عمرو بن نفيل ـ لما قال لهم العلماء : إن أحب الدين إلى الله تعالى دين هذا المبشِّر به ـ : « أنا أستمر على نصرانيتي إلى أن يأتي هذا النبي » [(١)] .

وفي البخاري أن ورقة بن نوفل : « كان امرءًا تنصَّر في الجاهلية » .

وفي سيرة ابن إسحاق : « استحكم في النصرانية » .

وورقةلم ينقل عنه تصريح بتنصره ، بل كان يصرح أنه على الحنيفية ، بل كان يردد بعد ممات صديقه زيد بن عمرو بن نفيل : « إلهي إله زيد ، وديني دين زيد » [(٢)] .

ولم ينقل عنه إقامة شعائر النصرانية ، فضلًا عن أن يدعو أحدًا لاعتناقها .

والنصرانية التي كانت سائدة في عهده في بلاد العراق والشام لم تكن على ملة إبراهيم لما فيها من وثنية التثليث ، كيف وقد نفر من وثنية قومه وتعدد آلهتهم ؟!

نفي نصرانية التثليث عن ورقة بن نوفل :

نُقل عن ورقة بن نوفل أنه « كان امرءًا قد تنصَّر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتابَ العِبْراني ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب » [(٣)] ، وأنه « استحكم في النصرانية ، واتبع الكتب من أهلها ، حتى علم علمًا من أهل الكتاب » [(٤)] .

---

(١) انظر : « بلوغ الأرب » (٢/ ٢٧٢ ، ٢٧٣) .

(٢) « كشف الأستار » (٣/ ٢٨٢) .

(٣) انظر : « صحيح البخاري » (١/ ٥٣ – فتح) ط. دار طيبة .

(٤) « سيرة ابن هشام » (١/ ٢٤٣) ، أما رواية أنه « استحكم في النصرانية » فهي لم تُذكَر بسندٍ أصلًا ، ويجاب =

لكن لم يَنقل عنه من ذكر تنصره أنه آمن بالنصرانية المحرفة القائلة بالثالوث ، بل صرح بعض الباحثين بما يتسق مع ماضي ورقة وشخصيته ، ويبرئه من اعتناق التثليث ، فقد قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ وهو يشرح عبارة « وكان امرءًا تنصَّر في الجاهلية » : « أي صار نصرانيًّا ، وكان قد خرج هو وزيد بن عمرو بن نفيل ، لما كرها عبادة الأوثان إلى الشام وغيرها يسألون عن الدين ، فأما ورقة فأعجبه دين النصرانية فتنصر ، وكان لقي مَن بقي مِن الرهبان على دين عيسى ، ولم يبدل ، ولهذا أخبر بشأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والبشارة به ، إلى غير ذلك مما أفسده أهل التبديل » [(١)] .

وقال البقاعي ـ رحمه الله ـ : إنه « لم يتبعهم ـ أي النصارى ـ في التبديل ، بل في التوحيد » [(٢)] .

وقال ابن حجر ـ رحمه الله ـ ردًّا على من ذهب إلى أنه كان على اعتقاد النصارى في عدم نبوة عيسى ودعواهم أنه أحد الأقانيم : « فهو محال ، لا يُعَرَّجُ عليه في حق ورقة وأشباهه ممن لم يدخل في التبديل ، ولم يأخذ عمَّن بدل » [(٣)] .

وقال أبو زرعة العراقي ـ رحمه الله ـ : « الظاهر أن ورقة لم يكن متمسكًا بالمبدَّل من النصرانية ، وإنما كان متمسكًا بالصحيح منها ، الذي هو على الحق » [(٤)] .

بل صرح الشيخ أبو زهرة ـ رحمه الله ـ بقوله : إنه إنما دخل في النصرانية لأنه « علمها ديانة وحدانية ، لا ديانة تثليث ، لأنه ـ أي التثليث ـ دخيل عليها ؛ ولأن

= عنها بأنه ليس معنى استحكامه فيها أنه قد دان بها ، بل معناه أنه علمها حق العلم بها ، وخَبَرَ تفاصيلها ، وأدرك أنها ليست الدين الذي أنزله الله على المسيح ـ عليه السلام ـ شأن الباحث المطلع على ديانات الآخرين دون أن يَدين بها ، وانظر : « ورقة بن نوفل في بطنان الجنة » للدكتور عويد بن عياد المطرفي .

(١) « فتح الباري » (١/ ٥٨) .

(٢) انظر : « بلوغ الأرب » (٢/ ٢٧٢ ، ٢٧٣) .

(٣) « فتح الباري » (١/ ٦٠) .

(٤) « طرح التثريب بشرح التقريب » (٤/ ١٩٤ ، ١٩٥) .

نصرانية الشرق التي كانت في العراق وأطراف الجزيرة العربية كانت تتبع (نسطورس) [١] الذي أنكر أن يكون المسيح إلهًا ، أو ابن الله ، إذ كان يعتقد أن عبارة الابن التي وردت في بعض كتبهم أضلتهم » [٢] .

أدلة من نفى تنصُّر ورقة :

الأول : أن سيرة حياته تصرخ بأنه كان يسعى حثيثًا في البحث عن الحنيفية ملة إبراهيم ـ عليه السلام ـ ، وأنه رفض مبدأ تعدد الآلهة ، ونَبَذَ عبادةَ الأوثان ، فكيف يفر منها إلى ديانة تثليثية شركية حُرِّفت عن أصلها التوحيدي ، ويدل على ذلك قوله :

لقد نصحت لأقوام وقلت لهم ... أنا النذير فلا يَغْرُرْكُمُ أَحَدُ
لا تعبدون إلاهًا غيرَ خالقِكم ... فإن أبيتم فقولوا: بيننا حَدَدُ
سبحان ذي العرش لا شيءٌ يُعَادِلُهُ ... ربُّ البريَّة فردٌ واحدٌ صَمَدُ
سبحانه ثم سُبحانًا يعود له ... وقَبْلُ سَبَّحَهُ الجوديُّ والجَمَدُ
مُسَخَّرٌ كُلُّ مَن تحت السماءِ له ... لا ينبغي أن يساويَ مُلْكَهُ أَحَدُ
لم تغن عن هُرْمُزٍ يومًا خزائنُهُ ... والخُلْدَ قد حاولتْ عادٌ فما خَلَدُوا
ولا سُليمانُ إذ أَدْنَى الشُّعُوبَ له ... الجنُّ والإنسُ تَجرِي بينها البُرُدُ
لا شيء مما ترى تَبْقَى بشاشتُه ... يبقى الإلهُ ويُودِي المالُ والولدُ [٣]

---

(١) « نسطورس » بطريرك القسطنطينية ، نفى ألوهية المسيح ـ عليه السلام ـ المزعومة ، ووصفه بأنه « إنسان مملوء بالبركة ، أو أنه مُلهم من الله » ، وأثبت أن مريم ـ عليها السلام ـ هي أم عيسى الإنسان ، وليست أمَّ إله ، ولأجل ذلك نُفي « نسطورس » إلى مصر بعد أن أصدر مجمع « أفسس » الأول سنة (٤٣١م) قرارًا بلعنه ، وطرده من الحياة الأبدية !
ورغم ذلك انتشر مذهبه في الشرق والعراق و(المَوْصِل) والفرات وبابل وأرض الجزيرة .

(٢) « خاتم النبيين » صلى الله عليه وآله وسلم لأبي زهرة (١/ ٣٧٠ ، ٣٧١) .

(٣) « نسب قريش » للزبيري ص (٢٠٨) ، ولورقة أشعار أخرى ناطقة بإيمانه ونصرته لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ونصرة المستضعفين من أصحابه كبلال ـ رضي الله عنه ـ كما في سيرة ابن إسحق (١٧٠ ، ١٧١) ، =

الثاني : أنه صرح بلسانه بأنه على الحنيفية ملة إبراهيم ـ عليه السلام ـ ، وكان ديدنه في حياة صديقه ونديمه زيد بن عمرو بن نفيل وبعد مماته أن يقول ـ وقد استقبل القبلة ـ : « إلهي إله زيد ، وديني دين زيد » [(١)] ، ومعلوم أن زيدًا كان يستقبل القبلة ، ويقول : « ديني دين إبراهيم ، وإلهي إله إبراهيم » [(٢)] ، وكان يتوجه إلى القبلة ويقول :

رَشِدْتَ فأنعمتَ ابنَ عَمْرٍو فإنما ... تجنَّبْتَ تَنُّورًا من النارِ حاميا

بدينك دينًا ليس دينٌ كمثلِهِ ... وتركِكَ جِنَّاتِ الجبالِ كما هيا [(٣)]

الثالث : أنه ضرب في الأرض باحثًا عن الدين الحق ، برفقة صديقه الحميم زيد بن عمرو بن نفيل ، حتى لقيا راهبَ بيعةٍ في أرض البلقاء كان ينتهي إليه علمُ النصرانية [(٤)] ، ولما سأله زيد عن الحنيفية دين إبراهيم قال له الراهب : « إنك لَتسأل عن دينٍ ما أنت بواجدٍ من يحملك عليه اليوم ، لقد درس علمه ، وذهب من كان يعرفه ، ولكنه قد أظلك خروجُ نبي يُبعث بأرضك التي خرجت منها بدين إبراهيم الحنيفية ، فالحق ببلادك ، فإنه مبعوث الآن ، هذا زمانه » [(٥)] .

= و« دلائل النبوة » للبيهقي (٢/ ١٤٩) ، وقال ابن القيم : « وكان كلما اشتد عليه ـ أي بلال رضي الله عنه ـ العذاب يقول : أحدٌ ، أحدٌ ، فيمر به ورقة بن نوفل ، فيقول : إي والله يا بلال ، أحد ، أحد ، أما والله لئن قتلتموه لأتخذنه حنانًا » اهـ . من « زاد المعاد » (٣/ ٢٢) ، والمعنى : أنه كان يهدد المشركين ويحذرهم من قتل بلال ، ومما سيُلحقه بهم من سُبَّة ونقص وعار فيما لو قتلوه ، بكثرة زياراته لقبره ، وتحننه وتعطفه وترحمه عليه لتمسكه بدين الله ، وقتله في سبيله .

(١) « كشف الأستار عن زوائد البزار » (٣/ ٢٨٢) .

(٢) « نفس المرجع » (٣/ ٢٨١) .

(٣) قال الهيثمي : « رواه البزار ، ورجاله رجال الصحيح غير مجالد ، وقد وُثِّق ، وهذا من جيد حديثه » اهـ . من « مجمع الزوائد » (٩/ ٤١٩) .

(٤) « سيرة ابن إسحق » ص (٩٩) .

(٥) « نفس المرجع » ص (٩٩) ، وانظر : « مسند الطيالسي » (٣٢) .

كما أنه شهد حوار صديقه زيد مع العالم اليهودي الذي قال له : « لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله » ، فقال له زيد : « ما أفر إلا من غضب الله ، ولا أحمل من غضب الله شيئًا أبدًا ، وأنَّى أستطيعه ؟ » ، ثم لقي العالم النصراني ، فذكر مثلَه ، ورد عليه زيدٌ قائلًا : « ما أفر إلا من لعنة الله ، ولا أحمل من لعنة الله ولا من غضبه شيئًا أبدًا ، وأنَّى أستطيع ؟ » ، وأنه سأل كلًّا منهما : « فهل تدلني على غيره ؟ » ، وأن كلاهما أجابه : « ما أعلمه إلا أن يكون حنيفًا » قال : وما الحنيف ؟ قال : « دين إبراهيم ، لم يكن يهوديًّا ولا نصرانيًّا ، ولا يعبد إلا الله » [(١)] .

فهل ـ بعد هذا ـ يرضى ورقة لنفسه أن يقع في لعنة الله وغضبه ، وهو الذي ضرب في الأرض يبحث عن الحنيفية ؟

الرابع : وعلى الجهة الأخرى لم يُنقل عن ورقة تصريح في يوم من الأيام يُقر فيه أنه دان بدين النصرانية ، ولم يُنقل أنه أقام شعائرها لا في مكة ولا في غيرها ، فضلًا عن أن يدعو إليها أحدًا ، أو يذكرها بخير ويشيد بها .

بل إن ورقة أخرج نفسه من أهل الكتاب حين قال لخديجة ـ رضي الله عنها ـ « يا بُنيَّة أخي ، ما أدري لعل صاحبك النبي الذي ينتظر أهل الكتاب الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل » [(٢)] ، ولم يقل : « الذي ننتظره ، ونجده مكتوبًا عندنا » .

الخامس : أن ورقة كان يستصحب قول الراهب لزيد بن عمرو : « أما إن الذي تطلب سيظهر بأرضك ، أو قال له : وقد خرج بأرضك ، أو : هو خارج ، فارجع ، وصدِّقْه ، وآمِن به » [(٣)] .

---

(١) تقدم تخريجه ص (٩٦) .

(٢) « دلائل النبوة » للبيهقي (١/ ١٤٥) .

(٣) « معاني القرآن وإعرابه » للزجاج (٢/ ٦٧) .

ومن ثَمَّ استبشر حين قصَّ عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خبر ما رأى ، وقال له ورقة : « هذا الناموس [١] الذي نزَّل الله على موسى ، يا ليتني فيها جَذَعًا ، ليتني أكون حيًّا إذ يخرجك قومك » ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « **أَوَمُخْرِجِيَّ هم ؟** » ، قال : « نعم ، لم يأت رجلٌ قطُّ بمثل ما جئتَ به إلا عُودي ، وإن يُدْرِكْني يومُك أنصرْك نصرًا مؤزَّرًا » ، ثم لم يلبث ورقةُ أن تُوُفِّيَ ، وفَتَر الوحيُ » [٢] .

فقد سارع ورقة إلى الإيمان برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وتمنى أن يستفرغ وسعه في نصرته ، وقد علَّق الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ على موقف ورقة بأن ترضى عنه ، ثم قال : « فإن مثل هذا الذي صدر عنه تصديقٌ بما وُجد ، وإيمان بما حصل من الوحي ، ونية صالحة للمستقبل » [٣] .

وروى الإمام أحمد أن خديجة لما أتت ورقة بن نوفل ، وذكرت له حال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لها : « إن يكُ صادقًا فإن هذا ناموسٌ مثلُ ناموس موسى ، فإن بُعث وأنا حي فسأعزِّره ، وأنصره ، وأومن به » [٤] .

وعن أسماء بنت أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ قال : سئل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن ورقة بن نوفل ، فقال : « **يُبعَثُ يوم القيامة أمةً وحده** » [٥] .

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن خديجة ـ رضي الله عنها ـ سألت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن ورقة بن نوفل ، فقال : « **قد رأيته في المنام ، فرأيت عليه ثيابَ بياضٍ ، فأحْسَبُه لو كان من أهل النار لم يكن عليه بياض** » [٦] .

---

(١) الناموس : صاحب السر ، والمراد به هنا : جبريل ـ عليه السلام ـ ، كما في « الفتح » (١/ ٦٠) .

(٢) رواه البخاري (١/ ٥٣ – فتح) حديث رقم [٣] .

(٣) « البداية والنهاية » (٣/ ٩) .

(٤) رواه الإمام أحمد في « المسند » (٤/ ٣٠٥) ، وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٥) رواه الطبراني في « الكبير » (٢٤/ ٨٢) ، وقال الهيثمي : « رجاله رجال الصحيح » كما في « المجمع » (٩/ ٤١٩) .

(٦) رواه الإمام أحمد في « المسند » (٤٠/ ٤٣٠) رقم (٢٤٣٦٧) ، وقال محققوه : « إسناده ضعيف » ، وحسنه

وسئل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن ورقة بن نوفل ، فقال : « **قد رأيته ، فرأيتُ عليه ثياب بياض ، أبصرته في بُطنان** [(١)] **الجنة ، وعليه السندس** » الحديث [(٢)] .

وعن أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « **لا تسبوا ورقة ؛ فإني رأيت له جنة أو جنتين** » [(٣)] .

فمن ثم عده علماء الإسلام [(٤)] من الصحابة لأنه آمن به ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ورآه ، واجتمع به مؤمنًا به ، ومات على ذلك أيضًا .

ابن كثير في « البداية والنهاية » (٤/ ٢٢) .

(١) بُطنان الجنة : جمع بَطْن ، والبطن من كل شيء جوفه .

(٢) رواه ـ بنحوه ـ أبو يَعْلَى في « مسنده » [٢٠٤٧] .

(٣) قال ابن كثير : « وهذا إسناد جيد ، ورُوي مرسلًا ، وهو أشبه » « البداية والنهاية » (٤/ ٢٣) ، وعلَّق عليه الألباني فقال : « لا وجه لترجيح المرسل وقد أخرجه عن أبي معاوية الحاكم (٢/ ٦٠٩) ، وقال : (صحيح على شرط الشيخين) ، ووافقه الذهبي ، وقال في (مجمع الزوائد) (٩/ ٤١٦) : رواه البزار متصلًا ومرسلًا ، ورجالهما رجال الصحيح » اهـ . من « صحيح السيرة النبوية » للألباني ص (٩٤) .

(٤) كالطبري ، والبغوي ، وابن قانع ، وابن السكن ، وابن منده ، والنووي ، والسهيلي ، وابن القيم ، وابن حجر ، وابن كثير ، وغيرهم ، وقال الحافظ العراقي : « ينبغي أن يُقال : إن أول من آمن من الرجال ورقة بن نوفل » اهـ . من « طرح التثريب » (٤/ ١٩٧) ، « ومال البلقيني إلى أنه أول من أسلم من الرجال » كما في « إرشاد الساري » للقسطلاني (١/ ٦٧) .

دلالة موقف المتحنفين على اقتضاء الفطرة الإسلام

إن موقف المتحنفين يدل على أن العبد قد يصيب الحق بخواطر تجول في نفسه ، وأدلة قد انتظمت وترتبت بداخله على وجوب التمسك به دون أن تُلقى عليه حُجج وبينات من خارج ذاته ، ويدل أيضًا على أن بالفطرة قوة تقتضي : حب الفاطر ووجوب عبادته وحده ، وأن هذا يتم في النفس بغير سبب منفصل عنها ، فوجوده فيها لا يتوقف على توفر شرط ، ولكن على انتفاء مانع ، وهذا بخلاف إحداث الكفر فهو متوقف على وجود شرط منفصل عن الفطرة وليس على انتفاء مانع خارج عنها ، مثل تربية وتنشئة الوالدين لطفلهما عليه . قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « **فأبواه يهوِّدانه ، أو ينصِّرانه ، أو يمجِّسانه** » .

ولو لم يكن ذلك كذلك لاستحال أن يصل عبد إلى الحق إلا بعد أن يسمعه مُدَلَّلًا عليه بالبينات والحجج من خارج نفسه ، وهذا بخلاف الواقع .

قال ابن حزم ـ رحمه الله ـ ما ملخصه : « الناس في حصول الإيمان بالله تعالى ـ اليومَ ـ قسمان :

ـ فمنهم من لا يسكن قلبه إلى الإسلام إلا بعد الدليل والبرهان ، وهذا يجب عليه النظر .

ـ ومنهم من وفقه الله ـ تعالى ـ لتصديقه عليه السلام ، وخَلَقَ ـ عز وجل ـ في نفوسهم الإيمان ، كما قال تعالى : ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧] » [(١)] .

ومما يبين هذا المعنى من الحديث أيضًا أن الله تعالى أخبر أن الشياطين قد صرفت الناس عن مقتضى الخلقة التي خلق الله الناس عليها إلى الشرك ، فدل

(١) « الفِصَل » لابن حزم (٤/ ٣٥ ، ٣٦) .

ذلك على أن الشياطين قد أخرجتهم واجتالتهم عن مقتضى الفطرة إلى ما يناقض مقتضاها وهو الشرك ، ولذلك سمى الله ما كانوا عليه قبل صرف الشياطين لهم عنه دينًا ، ولو كانوا قبل إغواء الشياطين لهم على خلقة لا تقتضي أن يكونوا موحدين لم توصف بهذا الوصف ، ولم يكن لاجتيال الشياطين لهم حينئذ معنى .

ولهذا لم يذكر في الحديث إلَّا ما يمنع من تحقق مقتضى الفطرة ، وهو اجتيال الشياطين للناس وأمرهم إياهم بالشرك ، فدل على أن الخلقة التي خُلقوا عليها مقتضية للتوحيد ما لم يمنع من تحقق ذلك المقتضى مانع ، وهذا هو المقصود بفطرية التوحيد .

قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ :

« فأخبر أن تغيير الفطرة التي خُلقوا عليها بأمرٍ طارئٍ من جهة الشيطان ، ولو كان الكفار منهم مفطورين على الكفر لقال : (خلقتُ عبادي مشركين فأتتهم الرسل فاقتطعتهم عن ذلك) ، كيف وقد قال : (خلقت عبادي حنفاء كلهم) ، فهذا القول [١] أصح الأقوال ، والله أعلم » اهـ [٢] .

فائدة من حديث عياض المجاشعي ـ رضي الله عنه ـ :

قال الإمام المحقق ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ :

(وقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما يَروي عن ربِّه ـ تبارك وتعالى ـ : « **إني خلقتُ عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين ، وحرَّمت عليهم ما أحللتُ لهم** » يتضمن أصلين عظيمين مقصودين لأنفسهما ، ووسيلةً تعينُ عليهما :

---

(١) إشارة إلى ما دل عليه القرآن والسنة أنهم وُلدوا حنفاء على فطرة الإسلام .

(٢) « أحكام أهل الذمة » (٢/ ٦٠٩) .

أحدُهما : عبادتُه وحده لا شريك له .

والثاني : أنه إنما يُعبد بما شرعه وأحبه وأمر به .

وهذان الأصلان هما المقصود الذي خَلَق له الخلق فصدهما الشِّرك والبدع . فالمشرك يعبد مع الله غيره . وصاحب البدعة يتقرب إلى الله بما لم يأمرْ به ولم يشرعْه ولا أحبَّه . وجعل سبحانه حِلَّ الطيبات مما يُستعان به على ذلك ، ويُتوسل به إليه . فمدار الدين على هذين الأصلين وهذه الوسيلة . فأخبر سبحانه أن الشياطين اقتطعت عباده عن هذا المقصود وعن هذه الوسيلة ، فأمرتهم أن يُشركوا به ما لم ينزل به سلطانًا . وهذا يتناول الإشراك بالمعبود الحق ، بأن يُعبد معه غيره ، والإشراك بعبادته الحقة ، بأن تُعبد بغير شرعه . وكثيرًا ما يجتمع الشِّرْكانِ فيعبدُ المشركُ معه غيرَه بعبادةٍ لم يشرعْ سبحانه أن يُتعبد له بها [(١)] . وقد ينفرد أحد المشركين فيشرك به غيره في نفس العبادة التي شرعها ، أو يعبده وحده بعبادةٍ شركية لم يشرعها ، أو يتوسل إلى عبادته بتحريم ما أحله . وقد ذمَّ اللهُ سبحانه المشركين على هذين النوعين في كتابه في سورة الأنعام والأعراف وغيرهما ، يذكر فيها ذمَّهم على ما حرَّموه من المطاعم والملابس ، وذمَّهم على ما أشركوا به من عبادة غيره ، أو على ما ابتدعوه من عبادته بما لم يشرعه . وفي المسند « أحبُّ الدين إلى الله الحنيفيةُ السمحةُ » [(٢)] .

---

(١) ولشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ كلام بديع في هذا المعنى حقُّه أن يكتب بماء العَين لا بماء الذهب ، في كتابه الفذ : « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » (٢/ ١٨٨ ـ ٢٠٠) ، (٣/ ١٦٩ ـ ١٨١) فلا يفوتنك فإنه نفيس .

(٢) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (١٠٩) رقم [٢٨٨] ، والطبراني في « الكبير » (١١/ ٢٢٧) رقم [١١٥٧١] ، رقم [١١٥٧٢] ، والإمام أحمد في « المسند » (٣/ ٣٥٥) رقم [٢١٠٧] بتحقيق أحمد شاكر ، وفي « المسند » أيضًا مرفوعًا : « إني لم أبعث باليهودية ، ولا بالنصرانية ، ولكني بُعثت بالحنيفية السمحة » (٥/ ٢٢٦) ، وراجع ص (٩٤) .

فهي حنيفيةٌ في التوحيد وعدم الشرك ، سَمْحةٌ في العمل وعدم الآصار والأغلال بتحريمهم من الطيبات الحلال . فيُعبد سبحانه بما أحبَّه ، ويُستعان على عبادته بما أحلَّه . قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا ﴾ [المؤمنون: ٥١] وهذا هو الذي فطر الله عليه خلقه . وهو محبوب لكل أحد . مستقر سنته في كل فطرة . فإنه يتضمن التوحيد ، وإخلاص القصد ، والحب لله وحده ، وعبادته وحده بما يحبُّ أن يُعبد به ، والأمر بالمعروف الذي تحبه القلوب ، والنهي عن المنكر الذي تبغضه وتنفر منه ، وتحليل الطيبات النافعة ، وتحريم الخبائث الضارة) اهـ [(١)] .

❁ ❁ ❁

(١) « شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل » ص (٦٣٢ ، ٦٣٣) .

ذِكْرُ آيَتَيْنِ كَرِيمَتَيْنِ تَدُلَّانِ عَلَى اقْتِضَاءِ الفِطْرَةِ الإِسْلَامَ

الآية الأولى : قال الله ـ تعالى ـ في المنافقين : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٦] فيه إشارة إلى فطرة الإسلام : قال الزمخشري : (فإن قلت) : كيف اشتروا الضلالة بالهدى وما كانوا على هدى ؟ قلتُ : « جُعلوا لتمكنهم منه وإعراضه لهم كأنه في أيديهم ، فإذا تركوه إلى الضلالة فقد عطَّلوه ، واستبدلوها به ، ولأن الدين القيم هو فطرة الله التي فطر الناس عليها ، فكل من ضلَّ فهو مستبدلٌ خلافَ الفطرة » [(١)] اهـ .

ونقل الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسيرها قول قتادة : « استحبوا الضلالة على الهدى » ثم قال : « أي الكفر بالإيمان ، وهذا الذي قاله قتادة يشبهه في المعنى قوله تعالى في ثمود : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ [(٢)] [فصلت: ١٧] . وقال البقاعي : « أي لجوا في هواهم فكلَّفوا أنفسهم ضدَّ ما فطرها الله عليه مع ما نصب من الأدلة حتى أخذوا (الضلالة) أي التي هي أقبح الأشياء (بالهدى) الذي هو خير الأشياء ومدار كل ذي شعور عليه ، فكأنه لوضوح ما قام عليه من الأدلة مع ما رُكِز منه في الفِطَر كان في أيديهم فباعوه بها » [(٣)] اهـ .

وقال الخطيب الشربيني : « والمعنى أنهم أخذوا بالهدى الذي جعله الله لهم بالفطرة التي فطر الناس عليها مُحَصِّلين الضلالة التي ذهبوا إليها ، واختاروا الضلالة واستحبوها على الهدى » [(٤)] اهـ .

---

(١) « الكشاف » (١/ ٣٦) .

(٢) « تفسير القرآن العظيم » (١/ ١٤١) .

(٣) « نظم الدرر » (١/ ١١٧) .

(٤) « السراج المنير » (١/ ٥٤) .

وقال الألوسي : « أو يقال : المراد بالهدى الهدى الجِبِلِّي ، وقد كان حاصلًا لهم حقيقة ـ فإن كل مولود يولد على الفطرة » [(١)] اهـ .

والحاصل أنه ـ عز وجل ـ جعل الهدى هو رأس المال الحاصل عندهم ، والذي منحهم الله إياه ، إلا أنهم عرَّضوه للزوال ، وخسروه حين بدَّلوا هذه الفطرة المستقيمة القريبة منهم ، واشتروا بها الضلالة البعيدة عنهم ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾ .

❁ ❁ ❁

الآية الثانية : قال الله ـ تعالى ـ : ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ الآية [البقرة: ٢٥٧] .

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ من أراد منهم الإيمان ، أو ثبت في علمه تعالى إيمانُه مآلًا ، أو حالًا بأن آمن بالفعل .

﴿يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ بهدايته وتوفيقه .

وفسَّر الحسن الإخراج هنا بالمنع ، فالمعنى : يمنعهم عن أن يدخلوا في شيء من الظلمات ، فعصمة الله للمؤمنين عن مواقعة الضلال إخراج لهم من ظلام الكفر . والظلمات هنا : هي التابعة للكفر أو المعاصي أو الشبه ، أو الجهل كيف كانت .

والنور : نور الإيمان ، أو نور الطاعات ، أو نور الإيقان بمراتبه .

قال الشربيني : « .. أو أنهم الثابتون على الإيمان ، بأن يخرجهم من الشبهة في الدين إن وقعت لهم بما يهديهم ويوفقهم له من أجلها ، حتى يخرجوا منها إلى نور اليقين » [(٢)] .

---

(١) « روح المعانى » (١/ ١٦١) .

(٢) « السراج المنير » (١/ ٢٦٨ ، ٢٦٩) .

وقال ابن عطية : « ومن كفر بعد وجود الداعي النبي المرسل فشيطانه ومُغْوِيه كأنه أخرجه من الإيمان إذ هو مُعَدٌّ وأهل للدخول فيه ، وهذا كما تقول لمن منعك الدخول في أمر : أخرجتني يا فلان من هذا الأمر ، وإن كنت لم تدخل فيه ألبتة » اهـ[(١)] .

وقال الرازي ـ عفا الله عنا وعنه ـ :

« قوله تعالى ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ ظاهره يقتضي أنهم كانوا في الكفر ثم أخرجهم الله ـ تعالى ـ من ذلك الكفر إلى الإيمان .

ثم هنا قولان :

القول الأول : أن يجري اللفظ على ظاهره ، وهو أن هذه الآية مختصة بمن كان كافرًا ثم أسلم ، والقائلون بهذا القول ذكروا في سبب النزول روايات : **إحداها :** قال مجاهد : هذه الآية نزلت في قوم آمنوا بعيسى ـ عليه السلام ـ وقوم كفروا به ، فلما بعث الله محمدًا ـ صلى الله عليه وسلم ـ آمن به من كفر بعيسى ، وكفر به من آمن بعيسى ـ عليه السلام ـ . **وثانيتها :** أن الآية نزلت في قوم آمنوا بعيسى ـ عليه السلام ـ على طريقة النصارى ، ثم آمنوا بعده بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد كان إيمانهم بعيسى حين آمنوا به ظلمة وكفرًا ، لأن القول بالاتحاد كفر ، والله ـ تعالى ـ أخرجهم من تلك الظلمات إلى نور الإسلام . **وثالثتها :** أن الآية نزلت في كل كافر أسلم بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

القول الثاني : أن يُحمَل اللفظ على كل من آمن بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ سواء كان ذلك الإيمان بعد الكفر أو لم يكن كذلك ، وتقريره أنه لا يبعد أن يقال :

---

(١) « المحرر الوجيز » (٢/ ٣٣ ، ٣٤) .

يخرجهم من الظلمات إلى النور وإن لم يكونوا في الظلمات ألبتة [(١)] ، ويدل على جوازه : القرآن والخبر والعرف .

أما القرآن : فقوله تعالى : ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣] ومعلوم أنهم ما كانوا قط في النار ، وقال تعالى ﴿... لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ﴾ [يونس: ٩٨] ولم يكن نزل بهم عذاب ألبتة ، وقال في قصة يوسف ـ عليه السلام ـ : ﴿إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٣٧] ولم يكن فيها قط ، وقال تعالى : ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ [النحل: ٧٠] وما كانوا فيه قط [(٢)] .

---

(١) فالإخراج هنا مستعار ، وقد يقال للممتنع من الشيء : خرج منه ، وإن لم يكن دخل فيه .

(٢) وقريب من هذا قول الله ـ تعالى ـ : ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ٨٨ ، ٨٩] ، فمعنى قولهم : ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ لَتَصِيرُنَّ ، ومن استعمالات (عاد) في لغة العرب :

ـ عاد الشيء إلى حالٍ كان فيها قبل ذلك ، ومنه قول الفضل بن عباس بن عتبة :

إن عـادت العقـربُ عُـدْنا لهـا وكانـت النعـلُ لهـا حاضـرهْ

ومنه قول جميل بثينة :

ألا ليـت أيـامَ الـشبابِ جديـدُ وعهـدًا تـولى يـا بُثَـيْنُ يعـودُ

وقد تستعمل (عادَ) بمعنى صار ، ولا تتضمن أن الحال كانت متقدمة ، ومنه قول أمية بن أبي الصلت يمدح سيف بن يزن إثر ظفره بالحبشة :

تِلـك المكـارمُ لا قَعْبَـانِ مـن لَـبَن شِـيبَا بمـاءٍ فعـادَا بَعْـدُ أبْـوالا

والقَعْب بفتح القاف : القَدَح الضخم الغليظ الجافي ، وقيل : قدح من خشب مقعَّر ، والجمع القليل : أَقْعُب ، والكثير : قِعَابٌ ، وشيبا : خُلِطا ، والأبوال : جمع بول ، وهو معروف .

ومنه قول الآخر : (وعاد رأسي كالثَّغامة) ، والثغامة شجرة تبيضُّ كأنها الثلج .

فقولهم في الآية : ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ﴾ ـ وشعيب ـ عليه السلام ـ لم يكن قطُّ كافرًا ـ يقتضي أنها بمعنى صار ، وأما في جهة المؤمنين بعد كفرهم فيترتب المعنى الآخر ويخرج عنه شعيب ـ عليه السلام ـ .

انظر « المحرر الوجيز » لابن عطية (٣/ ٦١٣ ، ٦١٤) ، « زاد المسير » (١/ ٣٠٧) ، (١/ ٢٢٦) .

وأما الخبر : فروي أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ سمع إنسانًا قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، فقال : « **على الفطرة** » ، فلما قال : أشهد أن محمدًا رسول الله ، قال : « **خرج من النار** » [(١)] ، ومعلوم أنه ما كان فيها ...

وأما العرف : فهو أن الأب إذا أنفق كل ماله فالابن قد يقول له : أخرجتني من مالك ، أي : لم تجعل لي فيه شيئًا ، لا أنه كان فيه ثم أُخرج منه ، وتحقيقه أن العبد لو خلا عن توفيق الله ـ تعالى ـ لوقع في الظلمات ، فصار توفيقه تعالى سببًا لدفع تلك الظلمات عنه ، وبين الدفع والرفع مشابهة ، فبهذا الطريق يجوز استعمال الإخراج والإبعاد في معنى الدفع والرفع ـ والله أعلم » اهـ [(٢)] .

وقوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] .

قال الإمام المحقق ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله ـ :

« وهذا يتضمن إخراج الشياطين لهم من نور الفطرة إلى ظلمة الكفر والشرك ، ومن النور الذي جاءت به الرسل من الهدى والعلم إلى ظلمات الجهل والضلال » [(٣)] .

وقال البقاعي ـ رحمه الله ـ : [(من النور) أي الفطري (إلى الظلمات) قال الحرالي : فيه بيان استواء جميع الخلق في حقيقة النور الأول إلى الروح المجندة إلى الفطرة المستوية « **كل مولود يولد على الفطرة** »] [(٤)] .

---

(١) عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يُغير إذا طلع الفجر ، وكان يستمع الأذان ، فإن سمع أذانًا أمسك ، وإلا أغار ، فسمع رجلًا يقول : « الله أكبر ، الله أكبر » ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « **على الفطرة** » ، ثم قال : « أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله » ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « **خرجتَ من النار** » رواه مسلم كتاب الصلاة (٩) رقم (٣٨٢) .

(٢) « التفسير الكبير » (٦/ ٥٥٦ ، ٥٥٧) .

(٣) « أحكام أهل الذمة » (٢/ ٥٣٢) .

(٤) « نظم الدرر » (٤/ ٤٦) .

وقال الخطيب الشربيني ـ رحمه الله ـ : « (يخرجونهم) أي : يدعونهم (من النور) الذي مُنِحوه بالفطرة (إلى الظلمات) أي الكفر »[١] .

وقال الألوسي ـ رحمه الله ـ : « (من النور) : أي الفطري الذي جُبل عليه الناس كافة ، أو نور البينات المتتابعة التي يشاهدونها بتنزيل تمكنهم من الاستضاءة بها منزلة نفسها »[٢] .

وقال القاسمي ـ رحمه الله ـ : « (من النور) أي الإيمان الفطري الذي جبل عليه الناس كافة ، أو من نور البينات التي يشاهدونها من جهة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ »[٣] .

وقال العثيمين ـ رحمه الله ـ : « أو يقال : هذا باعتبار الفطرة ، فإن كل مولود يولد على الفطرة ، فكانوا على الفطرة السليمة ، والإيمان ثم أخرجوهم كقوله : (**كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه**) »[٤] .

(١) « السراج المنير » (١/ ٢٦٩) .
(٢) « روح المعاني » (٣/ ١٥) .
(٣) « محاسن التأويل » (٣/ ٦٦٧) .
(٤) « تفسير القرآن الكريم » (٣/ ٢٧٣) .

الفصل الثاني

إشكالات وجوابها

الفصل الثاني :
إشكالات وجوابها [١]

ذكر المعترضون على تفسير الفطرة بالمعنى الشرعي ـ أي الإسلام ـ بعض الشبهات ، فمنها :

الشبهة الأولى :

قولهم : إن هذا يتعارض مع واقع النفس البشرية ، فالمولود لا يكون عارفًا بالتوحيد منذ ولادته ، وليس مسلمًا بالفعل ، بل هو مسلم إذا بلغ وعقل واختار الإسلام ، والطفل لا يمكن أن يعقل شيئًا عند ولادته ، ومن لا يعلم شيئًا استحال منه كفر أو إيمان أو معرفة أو إنكار .

والجواب :

أن أساس هذا الاشتباه هو الظن بأنه إذا قيل إن الفطرة هي الإسلام ، أو هي الخلقة المقتضية للإسلام أنه لا بدَّ أن يكون الطفل عالمًا بذلك منذ ولادته ، وهذا لم يقله أحد من السلف الذين فسروا الفطرة بالإسلام ، وإنَّما يُعْلَمُ ذلك إذا عَقَلَ ومَيَّز ، والخلاف ليس في هذا ، وإنما هو في الخِلقة التي يولد عليها المولود : هل هي خِلقة مقتضية للتوحيد ، أم أنها مجرد قابلة له فحسب ؟

وقد بينا فيما تقدم أن الفطرة تقتضي التوحيد وتستلزمه ، دون أن يكون الطفل عالمًا به منذ ولادته .

فقولنا : « إن الفطرة تقتضي الإسلام » ، لا يلزم منه أن يكون مقتضى الفطرة متحققًا للإنسان منذ ولادته لأنه يتعارض مع واقع النفس البشرية ، كما يتعارض

---

(١) انظر : « التمهيد » للحافظ ابن عبد البر (١٨/ ٦٨ـ٧٧) ، و « درء تعارض العقل والنقل » (٨/ ٣٨٣ ، ٣٨٤) ، و « المعرفة في الإسلام » ص (٢٤٤ـ٢٤٨) .

مع أصل التكليف . وإنما يولد الإنسان على خلقة وجبلة مقتضية لمعرفة الله وتوحيده إذا ميز وعقل ، ما لم يعرض للفطرة ما يصرفها عن أصلها .

فأما تعارضه مع واقع النفس البشرية : فإنا نعلم قطعًا أن المولود حين يولد وقبل أن يميز لا يمكن أن يعرف التوحيد ، لكنه مع ذلك قد خُلِقَ خِلْقَةً مهيِّئة لمعرفة الله وتوحيده إذ أدرك وميَّز .

ولهذا نفى الله نفيًا عامًّا مطلقًا أن يكون أحد من الناس يعلم بأي شيء حين ولادته ، فقال تعالى : ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ [النحل:٧٨] ، لأن العلم إنما يتحقق باجتماع قوة الإحساس بالواقع الخارجي وقوة الغريزة العقلية . فمن حُرِمَ إحدى القوتين بحيث لا يدرك شيئًا من المحسوسات أو لا يعقل شيئًا ؛ لم يمكن أن يتحقق له أي مقتضًى من مقتضيات الفطرة لا التوحيد ولا غيره .

وعلى هذا لا يمكن تفسير إخبار النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن كل مولود يولد على الفطرة أنه يكون موحِّدًا بمجرد الخِلقة التي وُلِد عليها ، بحيث يكون عارفًا بالتوحيد منذ ولادته ، كما لا يكون مقصود من فسر الفطرة بالإسلام من السلف أن المولود يكون مسلمًا بالفعل ، وإنما يولد على خلقة مقتضية للإسلام إذا ميز وعقل .

وبنمو الطفل رويدًا رويدًا ؛ تبدأ الفطرة الكامنة في الاستيقاظ داخل أعماق نفسه ، وتتحرك لتجذبه بكل قوة نحو الحقيقة العظمى في الوجود ، ففي بعض مراحل نموه [(١)] يبدأ في إلقاء أسئلة تكاد لا تنتهي عما يحيط به : من رفع السماء ؟ لماذا هي زرقاء ؟ أين تذهب الشمس ليلًا ؟ لماذا لا تظهر لنا في الليل ؟ أين يذهب النور حين يحل الظلام ؟ لماذا تتلألأ النجوم ؟ أين تنتهي الأرض ؟ من أين أتيت ؟ وأين كنت قبل أن آتي إلى الدنيا ؟

---

(١) بعد اكتساب اللغة ، وبداية سن التمييز .

إنها الفطرة المغروسة في أعماق نفسه تبدأ في الاستيقاظ لتتحرك ، وتتعرف على خالق الكون وما فيه ، وكلما نمت ملكاته وزاد علمه وإدراكه ؛ كلما اطمأن قلبه بالإيمان بالله وحده ، لا شريك له .

وتشتد هذه التساؤلات عن الكون والحياة والإنسان ، وتلح على ذهنه في فترة المراهقة ، ومناهزة الاحتلام ، أي قبل جريان القلم ، وبدء سن التكليف .

يقول « هيلير » : « هذا اللغز العظيم الذي يستحث عقولنا : ما العالم ؟ ما الإنسان ؟ من أين جاءا ؟ من صنعهما ؟ من يدبرهما ؟ ما هدفهما ؟ كيف بدءا ؟ كيف ينتهيان ؟ ما الحياة ؟ ما الموت ؟ ما القانون الذي يجب أن يقود عقولنا في أثناء عبورنا في هذه الدنيا ؟ أي مستقبل ينتظرنا بعد هذه الحياة ؟ هل يوجد شيء بعد هذه الحياة العابرة ؟ وما علاقتنا بهذا الخلود ؟ هذه الأسئلة لا توجد أمة ولا شعب ولا مجتمع إلا وضع لها حلولًا جيدة أو رديئة ، مقبولة أو سخيفة ، ثابتة أو متحولة » [(١)] .

وحين يصل الفتى إلى سن البلوغ عاقلًا فإنه يصبح مكلفًا شرعًا ، وقد أطلق المختصون بعلم النفس على مرحلة المراهقة (ما بين الثانيةَ عشرةَ والتاسعةَ عشرةَ) اسم : « **مرحلة اليقظة الدينية** » [(٢)] حيث تتميز بشدة رغبة المراهق في التعرف على ما يتصل بالله والدين مع حب المجادلة والإقناع ، وتشتد رغبته في التمسك بالدين أو العكس (كظاهرة من ظواهر التقلب الانفعالي والعاطفي) [(٣)] .

---

(١) نقله عنه الزحيلي في : « وظيفة الدين في الحياة » ص (٣٥) .

(٢) أما الدراسات الغربية التي تتحدث عما يسمونه « ظاهرة الشك الديني » في مرحلة المراهقة ؛ فهي تعكس حال مجتمعات أفسدت فطرة أبنائها ، وقدمت لهم عقيدة منحرفة ومصادمة لفطرتهم ، ومن الظلم تعميم نتائجها على من بقيت فطرتهم سليمة وبخاصة في المجتمعات الإسلامية ، وانظر « تربية المراهق بين الإسلام وعلم النفس » للدكتور محمد السيد الزعبلاوي ص (٥٤٩ ـ ٥٥٤) .

(٣) انظر : « في بيتنا مراهق » للدكتورة زينب سالم ص (١٤٨ ـ ١٥٩) ، و « سيكولوجية المراهق » للأستاذ إبراهيم قشقوش ص (٣٧٥) ، و « الأسس النفسية للنمو من المهد إلى الشيخوخة » د . فؤاد البهي السيد =

قال الأستاذ سيد قطب ـ رحمه الله ـ معلقًا على قوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ الآية :

« هذا التوجيه لإقامة الوجه للدين القيم يجيء في موعده ، بعد تلك الجولات في ضمير الكون ومشاهده ، وفي أغوار النفس وفطرتها ، يجيء في أوانه وقد تهيأت القلوبُ المستقيمةُ الفطرة لاستقباله ، كما أن القلوب المنحرفة قد فقدت كل حجة لها وكل دليل ، ووقفت مجردة من كل عُدَّةٍ لها وكل سلاح ، وهذا هو السلطان القوي الذي يصدع به القرآن ...

﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ وبهذا يربط بين فطرة النفس البشرية وطبيعة هذا الدين ، وكلاهما من صنع الله ، وكلاهما موافق لناموس الوجود ، والله الذي خلق القلب البشري هو الذي أنزل إليه هذا الدين ليحكمه ويصرفه ويَطِبَّ له من المرض ، وَيُقَوِّمه من الانحراف ، والله أعلم بمن خلق ، وهو اللطيف الخبير ، والفطرة ثابتة ، والدين ثابت ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ » اهـ [(١)] .

وقال الإمام الخطابي مبينًا المقصود بقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « **كل مولود يولد على الفطرة** » الحديث : « حاصل المعنى من هذا الحديث إنما هو الثناء على هذا الدين ، والإخبار عن محله من العقول وحُسْنِ موقعه من النفوس [(٢)] ، وليس من إيجاب حكم الإيمان للمولود بسبيل » اهـ [(٣)] .

= ص (٣٥) ، و « المراهقون » للدكتور عبد العزيز النغيمشي ص (٣٩ ـ ٤٣) ، و « أسس سيكولوجية الطفولة والمراهقة » ترجمة د . أحمد سلامة ، و« تربية المراهق » للدكتور محمد السيد الزعبلاوي .

(١) « في ظلال القرآن » (٥/ ٢٧٦٨) .

(٢) فالقول بأن الطفل مولود على الفطرة لا يمكن أن يعني أنه مكلَّف ، ولكن الله تعالى وهبه هذه الفطرة لتيسِّر له قبول الدين ، وتعينه على محبة الشريعة والانقياد لها .

(٣) « أعلام الحديث » للخطابي (١/ ٧١٦ ، ٧١٧) .

وقال الإمام السبكي ـ رحمه الله ـ : « خُلق الطفل سليمًا من الكفر مؤمنًا مسلمًا على الميثاق الذي أخذه الله على ذرية آدم ، .. فالطفل على الميثاق الأول ، وله ميثاق ثانٍ وهو قبول الفرائض بعد وجوده وأهلية التكليف ، فمتى مات قبل ذلك مات على الميثاق الأول ، فدخل الجنة .

ولا يُعتقد أن أصحاب هذا القول يقولون : إنه يولد معتقِدًا الإسلام ، هذا لا يقوله عاقل ، وإنما أرادوا أنه يجري عليه حكم الإسلام الذي أقر به في الميثاق الأول كما يجري حكم الإسلام على من أسلم حقيقة ثم نام أو مات » اهـ[(١)] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ :

(معلوم أن قوله : كل مولود يولد على الفطرة ، ليس المراد به أنه حين ولدته أمه يكون عارفًا بالله موحدًا له بحيث يعقل ذلك ، فإن الله يقول : ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴾ [النحل: ٧٨] . ونحن نعلم بالاضطرار أن الطفل ليس عنده معرفة بهذا الأمر ، ولكن ولادته على الفطرة تقتضي أن الفطرة تقتضي ذلك ، وتستوجبه بحسبها . فكلما حصل فيه قوة العلم والإرادة ، حصل من معرفتها بربها ، ومحبتها له ، ما يناسب ذلك . كما أنه وُلِدَ على أنه يحب جلب المنافع ودفع المضار بحسبه . وحينئذ فحصول موجب الفطرة ، سواء توقف على سبب ، وذلك السبب موجود من خارج ، أو لم يتوقف ، على التقديرين يحصل المقصود . ولكن قد يتفق لبعضها فوات الشرط أو وجود مانع ، فلا يحصل مقصود الفطرة .

فنفس الفطرة تستلزم : الإقرار بخالقه ومحبته وإخلاص الدين له ، وموجبات الفطرة ومقتضاها تحصل شيئًا بعد شيء ، بحسب كمال الفطرة ، إذا سَلِمتْ عن المعارض .

---

(١) « شرح حديث (كل مولود يولد على الفطرة) » ص (١٩ ، ٢٠) .

شأنها في ذلك شأن كافة الحواس كالسمع ، والبصر ، والنطق . . . فكما يجوز لنا أن نقول : إن الإنسان ولد ناطقًا مع أننا نجزم بعجزه عنه ساعة ولادته [١] ، إلا أنه ينمو معه بنمو جسده ، ويتحقق [٢] فيه إذا سلم عن معارضه ، فكذلك الفطرة سواء بسواء .

وبالجملة : فكلما حصل في الطفل قدر من العلم والإرادة ، حصل له قدر من معرفته بربه وحبه مع إخلاص الدين له بما يناسب ذلك .

وليس المراد مجرد قبول الفطرة لذلك أكثر من غيره ، كما أن كل مولود يولد ، فإنه يُولد على محبة ما يلائم بدنه من الأغذية والأشربة ، فيشتهي اللبن الذي يناسبه .

وهذا من قوله تعالى : ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، وقوله : ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٢، ٣] ، فهو سبحانه خلق الحيوان مهتديًا إلى طلب ما ينفعه ودفع ما يضره ، ثم هذا الحب والبغض يحصل فيه شيئًا فشيئًا بحسب حاجته . ثم قد يعرض لكثير من الأبدان ما يُفسد ما وُلِدَ عليه من الطبيعة السليمة والعادة الصحيحة ، وهكذا ما وُلد عليه من الفطرة ، ولهذا شُبِّهَتِ الفطرةُ باللبن ، بل كانت إياه في تأويل الرؤيا ؛ وذلك لما عُرِضَ على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلة الإسراء اللبن والخمر ، فاختار اللبن ، فقيل له : « **أصبتَ الفطرةَ** ،

---

(١) فهو ناطق بالقوة ، والقوة في هذا السياق تَعني كونَ الشيء مستعِدًّا لأن يوجد ولَّما يوجد ، ويقابلها : الفعل ، وهو كون الشيء خارجًا من الاستعداد إلى الوجود .

(٢) وهذا « التحقيق » (= actualization) هو الإخراج إلى حيز الفعل والواقع ، أي أن يُظهر الطفل كفاءة كانت كامنة فيه ، وعلى سبيل المثال : حين يبدأ الطفل الكلام يقال إنه قد حقَّق أو أخرج إلى حيز الواقع قدرة ـ كانت كامنة فيه ـ على استخدام اللغة . انظر « سيكولوجية الطفولة والمراهقة » للأستاذ إبراهيم قشقوش ص (٥٢١) .

أو **هُدِيتَ الفطرة** »[(١)] ، فمناسبة اللبن لبدنه وصلاحه عليه ، دون غيره ، كمناسبة الفطرة لقلبه ، وصلاحه بها دون غيرها[(٢)] .

الشبهة الثانية :

قالوا : لو كان الأطفال قد فُطِروا على الكفر أو الإيمان عند ولادتهم ؛ ما انتقلوا عنه أبدًا ، وقد نجدهم يؤمنون ثم يكفرون .

والجواب : أن هذا إنما يقوم على الاستدلال السابق ، من جهة الظن بأن القول بفطرية التوحيد يقتضي أن يكون الطفل موحدًا منذ ولادته عالمًا بذلك ، بحيث يكون مخلوقًا عليه خلقةً ليس له فيها اختيار ، فلا يكون حينئذٍ موحِّدًا باختياره ، وإنما لأن الله قد خلقه على التوحيد .

لكن القول بفطرية التوحيد لا يستلزم ذلك ، وإنما يدل على أن الفطرة خِلْقةٌ تقتضي التوحيدَ ، وأنه ليس متحققًا للمولود بالفعل منذ الولادة ، وإنما هو متحقق له بالقوة المقتضية له مع انتفاء موانعه .

ولهذا ذكر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في حديث الفطرة إمكان عدم تحقق مقتضى الفطرة ، مع أنه أراد بها الخلقة المقتضية للإسلام ، ولو كان لا يمكن تخلف مقتضاها لم يمكن أن يكفر أحد . فعُلِمَ أن اقتضاء الفطرة للإسلام ليس مطلقًا غير مشروط ، كما أنه لا يمكن أن يتحقق ذلك المقتضى قبل أن يعقل الطفل ويميز ، ويكون له الاختيار بين أن يلتزم بمقتضى الفطرة أو أن ينحرف عنها .

---

(١) رواه البخاري في « صحيحه » [٣٤٣٧] ، (٦/ ٤٧٦) ، ولفظ الحديث عنده : « **وأُتيت بإناءين : أحدهما لبن والآخر فيه خمر ، فقيل لي : خُذْ أيَّهما شِئْتَ . فأخذتُ اللبن ، فشربته ، فقيل لي : هُديتَ الفطرة ـ أو أصبتَ الفطرةَ ـ أما إنك لو أخذتَ الخمرَ غَوَتْ أمتُك** » .

(٢) « درء تعارض العقل والنقل » (٨/ ٣٨٣ ، ٣٨٤) ، وانظر : « فتح الباري » (٣/ ٢٩٣ ، ٢٩٤) .

ـ كما أن قولهم : « لو كان الأطفال يولدون على الإيمان ما انتقلوا عنه أبدًا ، وقد نجدهم يؤمنون ثم يكفرون » يكون صحيحًا لو أنهم تُركوا على طبيعتهم دون تأثير خارجي ، فهذا الانتقال عن الفطرة الإسلامية إلى اليهودية أو النصرانية أو المجوسية لا يكون صادرًا من الطفل ذاته ، وإنما هو أثر للبيئة التربوية والتعليمية وبخاصة الأبوين [(١)] .

ـ ثم إن التحول عن مقتضى الفطرة باختيار الإنسان نفسِه أمر ممكن وارد ، فقد ينتكس الموحِّد بإرادته ويرتد عن التوحيد ـ عياذًا بالله من ذلك ـ ، وقد يختار المشرك أن يتحول إلى التوحيد ، وهذا كله لا يتنافى مع كونه وُلد على الفطرة التي تقتضي الإسلام ، لأن تحقق « مقتضى » الفطرة وهو الإسلام لا يكون إلا بالاختيار [(٢)] .

الشبهة الثالثة :

قالوا : الإسلام والإيمان قول باللسان ، واعتقاد بالقلب ، وعمل بالجوارح ، وهذا معدوم من الطفل ، فيستحيل أن يكون المقصود بقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « كل مولود يولد على الفطرة » الإسلام .

والجواب : أن المقصود بالإسلام في تفسير حديث الفطرة : الإسلام العام الذي هو التوحيد ، وحقيقته إخلاص القصد والطلب لله وحده [(٣)] ، وليس المقصود به

---

(١) ومن المفكرين الغربيين من استوعب هذه الحقيقة حين وضَّح خطورة التربية وتأثيرها في الفطرة ، حيث قال « بستا لوتزي » : « تشبه التربية الصحيحة شجرة مغروسة قرب مياه غزيرة ، وقد أودعت الأرض بذرة صغيرة تحتوي خصائص الشجرة وشكلها ، والشجرة بكاملها سلسلة متصلة من الأقسام العضوية ، وقد توفرت خصائصها في البذرة والجذور .

الإنسان شبيه بالشجرة ، وفي الطفل تكمن الملكات التي يجب أن تظهر في أثناء الحياة .. لا يستطيع المربي وضع قوى وملكات جديدة في الإنسان ، كما أنه لا يستطيع منحه التنفس والحياة ، إن عمله منحصر في العناية بتجنيب النمو الطبيعي أي تأثير غير مناسب ، يجب أن نربي قوى الإنسان الأخلاقية ، والعقلية ، والعملية في ذاته لا عن طريق الاصطناع » اهـ . بواسطة « مفهوم الفطرة بين الفكر الإسلامي والفكر الغربي » لعبد الله البيشي ص(٨٧) .

(٢) انظر : « درء التعارض » (٨/ ٣٦٢) .

(٣) فالإسلام مركب من السلامة ، وهي الإخلاص لله ـ عز وجل ـ ، والاستسلام ، وهو الخضوع لأمره ، والانقياد لشرعه سبحانه .

دين الإسلام الخاص المشتمل على جملة العقائد والشرائع وما لا يُعلم إلَّا من جهة الوحي إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وهذا أمر ظاهر .

وقد جاءت آيات كثيرة بالدلالة على الإسلام بهذا المعنى ، كما في قوله تعالى عن إبراهيم ـ عليه السلام ـ : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: ١٣١] . وقَصَّ عنه وعن إسماعيل ـ عليهما السلام ـ قولهما : ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ [البقرة: ١٢٨] ، وقَصَّ الله عن موسى ـ عليه السلام ـ قوله : ﴿ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٨٤] .

وقال تعالى عن حواريي عيسى ـ عليه السلام ـ : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ [المائدة: ١١١] . وقَصَّ الله تعالى عن سحرة فرعون قولهم : ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٦] ، والآيات في هذا المعنى كثيرة معلومة [(١)] .

والفطرة إنما تقتضي هذا الإسلام العام [(٢)] الذي هو التوحيد ، وأما تفاصيل العقائد والشرائع فإنما تكتسب وتُعلَم بالأدلة التفصيلية ، ويتفاوت الناس في العلم بها تفاوتًا عظيمًا .

الشبهة الرابعة :

قالوا : قد قال ـ تعالى ـ في الحديث القدسي : « يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدوني أهدكم » [(٣)] ، وهذا يعارض تفسير قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « كل مولود يولد على الفطرة » بالإسلام .

---

(١) انظر كتاب « الكلمة المقدسة » للمؤلف ، فصل : « لا إله إلا الله هي الدين المقبول عند الله » ص (١٤٥ – ١٥٨) .

(٢) وهذا الإسلام العام هو الأصول العقدية المشتركة بين جميع الأنبياء والمرسلين ـ عليهم السلام ـ ، وانظر : « الكلمة المقدسة » ص (٩٨ – ١١٤) .

(٣) تقدم تخريجه ص (١١) .

ولجواب هذه الشبهة لابد من تمهيد مقدمتين :

المقدمة الأولى : بيان لمعنيين من معاني إطلاق (الضلال) في القرآن الكريم .

(أحدهما) إطلاق الضلال على الذَّهاب عن العلم :

قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي ـ رحمه الله تعالى ـ :

« قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [يوسف: ٨] .

الظاهر أن مراد أولاد يعقوب بهذا الضلال الذي وصفوا به أباهم ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام في هذه الآية الكريمة ـ إنما هو الذَّهاب عن علمِ حقيقةِ الأمرِ كما ينبغي .

ويدل لهذا ورودُ الضلال بهذا المعنى في القرآن وفي كلام العرب . فمنه بهذا المعنى قوله ـ تعالى ـ عنهم مخاطبين أباهم : ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾ [يوسف: ٩٥] ، وقوله ـ تعالى ـ في نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ [الضحى: ٧] ، أي لست عالمًا بهذه العلوم التي لا تُعرف إلا بالوحي ، فهداك إليها ، وعلمَكَها بما أوحى إليك من هذا القرآن العظيم . ومنه بهذا المعنى قول الشاعر :

وتظن سلمى أنني أبغي بها ... بَدَلًا أراها في الضلال تهيمُ

يعني : أنها غير عالمة بالحقيقة في ظنها أنه يبغِي بها بدلًا ، وهو لا يبغي بها بدلًا .

وليس مراد أولاد يعقوب الضلال في الدين ، إذ لو أرادوا ذلك لكانوا كفارًا ، وإنما مرادهم أن أباهم في زعمهم في ذَهاب عن إدراك الحقيقة ، وإنزال الأمر منزلته اللائقة به ، حيث آثر اثنين على عشرة ، مع أن العشرة أكثر نفعًا له ، وأقدر على القيام بشئونه وتدبير أموره » اهـ [(١)] .

---

(١) « أضواء البيان » (٣/ ٤٦ ، ٤٧) .

وقال أيضًا ـ رحمه الله تعالى ـ :

« قوله تعالى : ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧] .

هذه الآية الكريمة يوهم ظاهرها أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان ضالًّا قبل الوحي ، مع أن قوله تعالى : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] ، يدل على أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فُطِر على هذا الدين الحنيف ، ومعلوم أنه لم يهوِّده أبواه ولم ينصراه ولم يمجساه ، بل لم يزل باقيًا على الفطرة حتى بعثه الله رسولًا ، ويدل لذلك ما ثبت من أن أول نزول الوحي كان وهو يتعبد في غار حراء ، فذلك التعبد قبل نزول الوحي دليل على البقاء على الفطرة .

والجواب : أن معنى قوله : ﴿ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [(١)] أي غافلًا عما تعلمه الآن من الشرائع وأسرار علوم الدين التي لا تُعلم بالفطرة ولا بالعقل ، وإنما تُعلم بالوحي ، فهداك إلى ذلك بما أوحى إليك ، فمعنى الضلال على هذا القول الذَّهابُ عن العلم [(٢)] .

ومنه بهذا المعنى قوله تعالى : ﴿أَن تَضِلَّ [(٣)] إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢] .

---

(١) قال الزمخشري : « ﴿فَهَدَىٰ﴾ فهداك فعرفك القرآن والشرائع .. والأنبياء يجب أن يكونوا معصومين قبل النبوّة وبعدها من الكبائر والصغائر الشائنة ، فما بال الكفر والجهل بالصانع ، ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [يوسف: ٣٨] ، وكفى بالنبي نقيصة عند الكفار أن يسبق له كفر » اهـ . من « الكشاف » (٤/ ٢٢٠) .

(٢) ومثل هذا قول موسى ـ عليه السلام ـ ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٢٠] أي : فعلتها إذ فعلتها وأنا في ذلك الحين من الضالين : أي قبل أن يوحي الله إليَّ ، ويبعثني رسولًا ، ويعلمني حقيقة العلوم التي لا تُعلم إلا عن طريق الوحي ، فهذا الضلال ذهاب عن علم شيء ما ، وليس من الضلال في الدين .

(٣) أي تذهب عن علم حقيقة المشهود به ، بدليل قوله بعده : ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ .

وقوله : ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي [١] وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢] ، وقوله : ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥] ، وقول الشاعر :

وتظن سلمى أنني أبغي بها ... بَدَلًا أراها في الضلال تهيمُ

ويدل لهذا قوله تعالى : ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى: ٥٢] ، لأن المراد بالإيمان شرائع دين الإسلام .

وقوله : ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣] ، وقوله : ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣] ، وقوله : ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦] » اهـ [٢] .

(وثانيهما) : إطلاق (الضلال) في القرآن الكريم مرادًا به الضلال في الدين ، أي الذهاب عن طريق الحق التي جاءت بها الرسل ـ صلوات الله عليهم وسلامه ـ ، وهذا أشهر معانيه في القرآن ؛ ومنه بهذا المعنى : ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧] ، وقوله : ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات: ٧١] ، وقوله : ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ [يس: ٦٢] إلى غير ذلك من الآيات .

المقدمة الثانية : هنا نوعان من الهداية :

الأول : هداية الدلالة والبيان :

بتبيين الحق وتمييزه من الباطل بحيث يشهده القلب كشهود العين للمرئيات ، وذلك يكون بأدلة الحق وشواهده وأعلامه وآياته المسموعة والمتلوة ، وآياته المشهودة المرئية .

---

(١) أي : لا يذهب عنه علمُ شيء كائنًا ما كان .

(٢) « دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب » ص (٣٣٤ ، ٣٣٥) .

وهذه الهداية هي حجة الله على خلقه ، التي لا يعذب أحدًا إلا بعد وصوله إليها ، ومنها قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ [التوبة: ١١٥] ، وقوله سبحانه : ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [الرعد: ٧] ، وقوله عز وجل : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت: ١٧] ، وقال مخاطبًا نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢] .

فهذا القسم من الهداية يملكه الله تعالى ، ويُقْدِر عليه أنبياءه ورسله وأتباعهم .

الثاني : بيان مستلزمٌ وموجِبٌ للهداية الخاصة ، التي يقارنها العناية والتوفيق والاصطفاء وقطع أسباب الخِذلان وموادِّه عن القلب ، فلا تتخلف عنه الهداية ألبتة ، وهذا النوع لا يقدر عليه إلا الله سبحانه ، لا يقدر عليه مَلَكٌ مقرب ، ولا نبِيٌّ مرسَلٌ .

ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص: ٥٦] .

أما الجواب عن الشبهة المذكورة :

فإن الحديث القدسي يشير إلى أن أسباب الهداية بيد الله ـ عز وجل ـ وحده ، فإن قُصد بالضلال : الذهاب عن العلم ، فإن الهداية تكون باكتساب هذا العلم ، وتيسير أسبابه .

قال الحافظ ابن رجب ـ رحمه الله ـ : « لابد للعبد من تعليم الإسلام بالفعل ، فإنه قبل التعليم جاهل لا يعلم شيئًا ، كما قال ـ عز وجل ـ : ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾ [النحل: ٧٨] ، وقال لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ [الضحى: ٧] ، والمراد : وجدك غير عالم بما علَّمك من الكتاب والحكمة ، قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾ [الشورى: ٥٢] ، فالإنسان يولد مفطورًا على قبول الحق ، فإن هداه الله سبَّب له من يُعلمه الهدى ، فصار مهتديًا بالفعل بعد أن كان مهتديًا بالقوة ،

وإن خذله الله قيَّض له من يعلمه ما يغير فطرته كما قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (**كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه...**) »[(١)] .

وإن أريد بالضلال الضلال في الدين والانحراف عن الحق الذي جاء به الأنبياء ، فلا عاصم منه إلا الله سبحانه ، ومن أسباب العصمة منه : الدعاء وسؤال الهداية ، ولهذا قال : « **فاستهدوني أهدِكُم** » ، كما علم المؤمنين أن يسألوه في فاتحة الكتاب : ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ السورة ، لأنه الذي بيده الهداية ، وهو القادر عليها .

وقيل : إن المقصود من قوله ـ عز وجل ـ : « **كلكم ضال إلا من هديته** » يعني إذا رفع عنهم عنايته ، ووكلهم إلى أنفسهم ، وتُركوا وطباعَهم التي تُؤْثِرُ الشهوةَ والراحةَ وإهمالَ النظر ؛ ضلوا .

❁ ❁ ❁

ـ ولا يدعي أحد أن معنى « **يولد على الفطرة** » أنه يولد عالمًا بالإسلام والتوحيد والشرائع حتى يُدَّعَى التعارض مع قوله ـ عز وجل ـ : « **كلكم ضال إلا من هديته** » بمعنى : الذهاب عن العلم ، وقد فصلنا القول في بيان ذلك فيما مضى[(٢)] .

ـ ثم إن الخطاب في الحديث القدسي ليس للصغار الذين رُفع عنهم القلم ، بل للمكلفين بالإيمان الاختياري الكسبي بدليل قوله ـ تعالى ـ في الحديث القدسي : « **يا عبادي ! إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيرًا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه** » .

فلا تعارض بين الحديث القدسي وبين حديث الولادة على الفطرة ، والله أعلم .

---

(١) « جامع العلوم والحكم » (٢/ ٣٩ ، ٤٠) .

(٢) راجع ص (١٣٠ – ١٣٢) .

الفصل الثالث

الحقيقة النفسية للفطرة

الفصل الثالث:
الحقيقة النفسية للفطرة

قابلية الإنسان العلم والإرادة:

من المعلوم يقينًا لدى كافة البشر: أن الإنسان هو المخلوق الوحيد المتميز عن بقية المخلوقات بقابليته لمعرفة الحق والعمل به.

وتلك حجة قاطعة على وجود قوة فطرية جِبِلِّيَّة تحضه على ذلك، وتعينه على امتثاله؛ وإلا فلو قمنا جادِّين بحَضِّ البهائم مثلًا على معرفة خالقها ووجوب عبادته لما تسنى لنا هذا، وذلك لعدم قابليتها له.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ: «من المعلوم أن النفوس إذا حصل لها معلِّم ومحضِّض حصل لها من العلم والإرادة بحسب ذلك. ومن المعلوم أن كل نفس قابلة للعلم وإرادة الحق. ومعلوم أن مجرد التعليم والتحضيض لا يوجب العلم والإرادة، لولا أن في النفس قوةً تقبل ذلك، وإلا فلو علَّم البهائم والجماداتِ وحضَّضها، لم يحصل لها ما يحصل لبني آدم، والسبب في الموضعين واحد، فعُلم أن ذلك لاختلاف القوابل.

ولهذا يشترك الناس في سماع القرآن ويتفاوتون في آثاره فيهم من العلم والحال، وهكذا في سائر الكلام. وإذا كان كذلك عُلم أن في النفوس قوةً تقتضي العلمَ والإرادة.

يبين ذلك أن ذلك المرِّجح إذا حصل من خارج، فمعلوم أنه نفسه لا يوجب بنفسه حصول العلم والإرادة في النفس، إلا بقوة منها تقبل ذلك، وتلك القوة لا تتوقف على أخرى، وإلا لزم التسلسل الذي لا يتناهى بين طرفين متناهيين، أو الدَوْر القَبْلي،

وكلاهما ممتنع بالضرورة واتفاق العقلاء . فهذا يدل على أن في النفس قوةً ترجح الدِّين الحق على غيره . وحينئذ فالمخاطِبُ إنما عنده [١] تنبيهها على ما لا تعلمه لتعلمه ، أو تذكيرها بما كانت ناسية لتذكره ، أو تحضيضَها على ما لا تريده لتريده ، ونحو ذلك .

وكل هذه الأمور يمكن أن تحصل بخواطر في النفس تقتضي تنبيهها وتذكيرها وتحضيضها . واعتبار الإنسان ذلك من نفسه يوجب علمه بذلك ، فإن ما يسمعه الإنسان من كلام البشر يمكن أن يخطر له مثله في قلبه . فعُلِم أن الفطرة يمكن حصول إقرارها بالصانع والمحبة والإخلاص له بدون سبب منفصل ، وأنه يمكن أن تكون الذات كافية في ذلك .

ومن المعلوم أنه إذا كان المقتضي لذلك قائمًا في النفس وقُدِّر عدم المعارض ، فالمقتضي السالم عن المعارضِ المقاومِ يوجب مقتضاه .

فعُلم أن الفطرة السليمة إذا لم يحصل لها من يفسدها كانت مُقِرَّةً بالصانع ، عابدةً له » [٢] .

ومَثَل الفطرة مع الحق كبَصَر العين مع الشمس ، فكل ذِي عين مبصرة لو تُرِكت عينُه بغير حجاب عليها فإنه يرى الشمس ، والعقائد الباطلة كاليهودية والنصرانية والمجوسية مثل الحجاب على العين ، فهي تحول بين البصر وبين رؤية الشمس ، كما أن كل ذِي حِسٍّ سليم يحب الحُلْوَ ، إلا أن يعرض في طبيعته فساد ، يجعل الحُلْوَ في فمه مُرًّا :

ومن يكُ ذا فم مريضٍ ... يجد مُرًّا به الماءَ الزُّلالا

إن عماد الفطرة قوتان ضروريتان في نفس كل إنسان : قوة العلم ، وقوة الإرادة .

---

(١) كذا بالأصل ، والظاهر أنها : قَصَدَ .

(٢) « درء التعارض » (٨/ ٤٦١ـ ٤٦٣) .

أما قوة العلم : فإنها تقتضي معرفة الله وتوحيده ، وهذه المعرفة ليست استدلالية نظرية ولكنها فطرية ضرورية [١] ، والدليل على ثبوتها هو مجرد تحققها ووضوحها وكونها من المعارف البدهية .

دلالة القوة العلمية للفطرة على وجود الله تعالى ، وإثبات الكمال المطلق له

تختص معرفة الله تعالى بعدم إمكان الفصل بين تصور وجوده وتحقق وجوده ، فمعرفة الله ـ عز وجل ـ ليست متعلقة بموجودٍ مجردٍ من الصفات ، بل هي متعلقة بوجود له الكمال المطلق .

« إن معرفة الله تعالى ليست من جنس التصورات الممكنة [٢] ، بل هي تصور ضروري مفروض على الذهن ، ولهذا لم يمكن الفصلُ بين تصور وجوده وتحقق وجوده كبقية الأشياء ، لأن تصورها ليس ضروريًّا بل ممكنًا ، ولم يمكن تصور أكثر من إله ، لأن معرفة الله إنما تتعلق بمعين متصف بجميع صفات الكمال ، والضرورة الفطرية لا تحتمل اتصاف غير الله بها ، كما لا يمكن النقص من صفات الكمال الثابتة لله تعالى بالفطرة لأنها ضرورية ، ولو كانت قائمة على تصور نظري لأمكن النقص منها . وكما يقول (ديكارت) فإنه « لا يبقى ما يقال بعد ذلك إلَّا أن هذه الفكرة وُلِدت ووُجِدَتْ معي منذ خُلِقْتُ ، كما وُلِدَتْ الفكرةُ التي لديَّ عن

---

(١) الحقائق الضرورية لا يمكن الاستدلال على كونها ضرورية بمقدمات نظرية ، وإلا لم تكن حقائق ضرورية ، ولكن يمكن الاستدلال على نفيِ أن تكون نظرية ، وبما أن المعارف إما ضرورية أو نظرية ؛ فإذا انتفى كونُها نظرية لزم أن تكون ضرورية .

(٢) فاصطدام القمر بالأرض ـ مثلًا ـ هو أمر جائز عقلًا يمكن تصوره ، وهو أمر لم يقع ، فهنا يمكن الفصل بين « تصور » وجوده ، وبين « تحقق » وجوده بالفعل .

نفسي ، والحق أنه لا ينبغي أن نعجب من أن الله حين خلقني غرس فيَّ هذه الفكرة لكي تكون علامة للصانع مطبوعة على صنعته » [(١)] .

وبذا يتبين وجه دلالة القوة العلمية للفطرة على وجود الله تعالى ، وأن ذلك يتضمن بالضرورة إثبات الكمال المطلق لله تعالى ، لاستحالة أن تكون معرفة الله متعلقة بموجود مجرد من صفات الكمال ، بل إن وجود الله تعالى يستلزم بالضرورة اتصافه بالكمال المطلق ، كما أن اتصافه بالكمال المطلق يتضمن إثباتَ وجوده بالضرورة . وعلى هذا فإن القوة العلمية للفطرة تقتضي الدلالة على وجود الله تعالى ، وعلى وجوب اتصافه بالكمال المطلق ، وهذه هي حقيقةُ فطريةِ معرفةِ الله تعالى .

وإذا تقرر أن الإنسان مفطور على إثبات الكمال المطلق لله تعالى ، فإنه لا بد أن يكون مفطورًا على محبة الله وتوحيده ، لأن الإنسان مفطور على محبة الكمال ، وإذا كان ثبوت الكمال لله تعالى هو مقتضى الفطرة فلابد أن يكون لازمه الضروري وهو محبة الله وتوحيده فطريًّا أيضًا » [(٢)] .

وقال الإمام المحقق ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ :

(.. حتى إنه لو قُدِّر أنه لم يرسل رسلَه ولم ينزل كتبَه لكان في الفطرة والعقل ما يقتضي شكرَه وإفرادَه بالعبادة ، كما [أنَّ] فيهما ما يقتضي تناولَ المنافع واجتنابَ المضارِّ ، ولا فرق بينهما في الفطرة والعقل ؛ فإن الله فطر خليقته على محبته والإقبال عليه ، وابتغاء الوسيلة إليه ، وأنه لا شيء على الاطلاق أحبُّ إليها منه ، وإن فسدت فِطرُ أكثر الخلق بما طرأ عليها مما اقتطعها واجتالها عمَّا خُلِق فيها ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾[الروم: ٣٠] .

---

(١) « التأملات » ص (٢٠٣) .

(٢) انظر : « المعرفة في الإسلام : مصادرها ، ومجالاتها » للدكتور عبد الله القرني ص (٢٢٠ ـ ٢٢٣) .

فبيَّنَ سبحانه أن إقامةَ الوجه ـ وهو إخلاصُ القصد ، وبذلُ الوُسع لدينه ، المتضمن محبتَه وعبادته ، حنيفًا ، مقبلًا عليه ، معرضًا عما سواه ـ هو فطرتُه التي فطر عليها عبادَه ، فلو خُلُّوا ودواعيَ فِطَرهم لما رَغِبُوا عن ذلك ، ولا اختاروا سواه ، ولكن غُيِّرت الفِطرُ وأُفسِدت ، كما قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « **ما من مولود إلا يولدُ على الفطرة ، فأبواه يهوِّدانه و ينصِّرانه ويمجِّسانه ، كما تُنْتَجُ البهيمة بهيمةً جَمْعاء ، هل تُحسُّون فيها مِنْ جَدعاء ؟ حتى تكونوا أنتم تجدعونها** » ، ثم يقول أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم : ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ﴾[الروم: ٣٠ – ٣١] (١) .

و﴿مُنِيبِينَ﴾نُصِبَ على الحال من المفعول ، أي فَطَرهم منيبين إليه .

والإنابةُ إليه تتضمَّنُ الإقبالَ عليه بمحبته وحده والإعراض عمّا سواه .

وفي « صحيح مسلم » عن عِياض بن حِمَار ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « **إن الله أمرني أن أعلِّمكم ما جهلتم مما علَّمني في مقامي هذا ـ أنه قال ـ : كلُّ مال نَحَلْتُهُ عبدًا فهو له حلال ، وإني خلقت عبادي حنفاءَ فأتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وأمَرتْهم أن يشركوا بي مالم أنزِّل به سلطانًا ، وحرَّمَت عليهم ما أحللتُ لهم** » (٢) ؛ فأخبر سبحانه أنه إنما خلق عبادَه على الحنيفيَّة المتضمِّنة لكمال حبِّه ، والخضوع له ، والذُّلِّ له ، وكمال طاعته وحده دونَ غيره .

وهذا من الحقِّ الذي خُلِقَت له ، وبه قامت السَّمواتُ والأرض وما بينهما ، وعليه قام العالم ، ولأجله خُلِقت الجنةُ والنَّار ، ولأجله أرسَل رسلَه وأنزل كتبَه ، ولأجله أهلَك القرونَ التي خرجت عنه وآثرت غيرَه .

---

(١) انظر تخريجه ص (٦٣) .

(٢) انظر تخريجه ص (٨٩) .

فكونُه سبحانه أهلًا أن يُعْبَد ويُحَبَّ ويُحْمَد ويُثنى عليه أمرٌ ثابتٌ له لذاته ، فلا يكونُ إلا كذلك ، كما أنه الغنيُّ القادرُ الحيُّ القيُّومُ السميعُ البصير ، فهو سبحانه الإلهُ الحقُّ المبين ، والإلهُ هو الذي يستحقُّ أن يُؤْلَه محبةً وتعظيمًا ، وخشيةً وخضوعًا ، وتذلُّلًا وعبادة ، فهو الإلهُ الحقُّ ولو لم يخلُق خلقَه ، وهو الإلهُ الحقُّ ولو لم يعبدوه .

فهو المعبود حقًّا ، الإلهُ حقًّا ، المحمودُ حقًّا ، ولو قُدِّر أنَّ خلقَه لم يعبدوه ولم يحمدوه ولم يَأْلَهوه ، فهو الله الذي لا إله إلا هو قبل أن يخلقهم وبعد أن خلقهم وبعد أن يفنيهم ، لم يسْتَحْدِثْ بخلقه لهم ولا بأمره إياهم استحقاقَ الإلهية والحمد ، بل إلهيتُه وحمدُه ، ومجدُه وغِناه أوصافٌ ذاتيةٌ له يستحيلُ مفارقتُها له ، كحياته ووجوده وقدرته وعلمه وسائر صفات كماله .

فأولياؤه وخاصَّتُه وحِزبُه ـ لَمَّا شَهِدت عقولهم وفِطرُهم أنه أهلٌ أن يُعْبَد وإن لم يرسِل إليهم رسولًا ، ولم ينزِّل عليهم كتابًا ، ولو لم يخلُق جنةً ولا نارًا ـ علموا أنه لا شيء في العقول والفِطر أحسن من عبادته ، ولا أقبح من الإعراض عنه .

وجاءت الرُّسلُ ، وأُنزِلَت الكتبُ بتقرير ما استَودع سبحانه في الفِطر والعقول من ذلك ، وتكميله ، وتفصيله ، وزيادته حُسْنًا إلى حُسْنِه .

فاتفقت شريعتُه وفطرتُه ، وتطابقَا وتوافقَا ، وظهر أنهما من مشكاةٍ واحدة .

فعبدُوه وأحبُّوه ومجَّدوه وحمدُوه بداعي الفطرة وداعي الشرع وداعي العقل ، فاجتمعَت لهم الدَّواعي ونادتهم من كلِّ جهة ، ودَعَتهم إلى وليِّهم وإلههم وفاطرهم ، فأقبلوا إليه بقلوبٍ سليمةٍ لم يعارِض خبَره عندها شبهةٌ توجبُ ريبًا وشكًّا ، ولا أمرَه شهوةٌ توجبُ رغبتَها عنه وإيثارَها سواه .

فأجابوا دواعيَ المحبة والطاعة إذ نادتْ بهم : حيَّ على الفلاح ، وبذلوا أنفسهم في مرضاة مولاهم الحقِّ بَذْلَ أخي السَّماح ، وحَمِدوا عند الوصول إليه مسراهم ، وإنما يحمد القومُ السُّرى عند الصباح ، فدينهم دين الحب ، وهو الدين الذي لا إكراه فيه ، وسيرهم سير المحبين ، وهو السير الذي لا وقفة تعتريه .

.. ولا ريب أنَّ كمال العبوديَّة تابعٌ لكمال المحبة ، وكمال المحبة تابعٌ لكمال المحبوب في نفسه ، والله سبحانه له الكمالُ المطلق التَّامُّ من كلِّ وجه ، الذي لا يعتريه توهُّمُ نقصٍ أصلًا ، ومَنْ هذا شأنُه فإنَّ القلوبَ لا يكونُ شيءٌ أحبَّ إليها منه ما دامت فِطرُها وعقولها سليمة ، وإذ كان أحبَّ الأشياء إليها فلا محالة أنَّ محبتَه توجبُ عبوديتَه وطاعتَه ، وتتبُّعَ مرضاته ، واستفراغ الجهد في التعبُّد له والإنابة إليه .

وهذا الباعث أكمل بواعث العبودية وأقواها) [(١)] اهـ .

(وهذا التلازم بين اختصاص الله بالكمال المطلق وبين إخلاص التوحيد له هو مقتضى قوله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾[الإخلاص: ١ ، ٢] ، فالأحدية الثابتة لله تعالى هي مقتضى اختصاصه بالكمال المطلق ، بحيث يستحق لأجل ذلك أن يكون هو المقصود المراد دون غيره ، وهذا معنى أنه الصمد ، فإن الصَّمْدَ في اللغة بمعنى القَصْد ، والصَّمَد هو المقصود [(٢)] .

وأحدية الله تعالى وتفرده بالكمال المطلق هو معنى اختصاصه بالمثل الأعلى في قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠] ، وقوله تعالى : ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[الروم: ٢٧] . لكنه يلزم من ذلك أن يكون الله هو المعبود وحده . حتى إن بعض السلف فسَّر الآية بهذا المقتضى ، فقال : إن المثل الأعلى هو توحيد

---

(١) انظر : « مفتاح دار السعادة » (٢/ ١٠٧٨ ـ ١٠٨٢) .

(٢) انظر : « مجموع الفتاوى » (١٧/ ٢١٤ـ ٢٣٤) .

الله تعالى . كما في قول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ :إنه بمعنى شهادة أن لا إله إلَّا الله ، وقول قتادة : هو الإخلاص والتوحيد [(١)] ، وعلى هذا الوجه فسره الإمام ابن جرير حيث قال : « ولله المثل الأعلى ، وهو الأفضل والأطيب والأحسن والأجمل ، وذلك التوحيد والإذعان له بأنه لا إله غيره » [(٢)] .

ومما جاء في هذا المعنى قوله تعالى :﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴾ [مريم: ٦٥] . فانتفاء أن يكون لله سَمِيٌّ يساميه ويشابهه ، مما يستلزم تفرده بصفات الكمال هو المقتضي لاستحقاقه أن يُفْرَدَ بالعبادة .

وبذا يظهر التلازم الضروري بين القوة العلمية للفطرة وما تقتضيه من معرفة الله تعالى وإثبات اختصاصه بالكمال المطلق ، والقوة الإرادية للفطرة وما تقتضيه من إفراد الله بالعبادة ، وأن فطرية معرفة الله تستلزم فطرية توحيده تعالى) [(٣)] .

❁ ❁ ❁

(١) انظر : « الكلمة المقدسة » للمؤلف ص (٤٤٤ – ٤٤٧) .

(٢) «جامع البيان » (١٤/ ١٢٥) .

(٣) « المعرفة في الإسلام » ص (٢٢٣، ٢٢٤) .

كلام نفيس لابن القيم فيه الأدلة العقلية على الحقيقة النفسية للفطرة

قال ـ رحمه الله تعالى ـ :

وهذا الذي أخبر به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مِن أن كلَّ مولودٍ يُولد على الفطرةِ الحنيفيةِ هو الذي تقوم **الأدلةُ العقليةُ** على صحته ، وأنه كما أخبرَ به الصادقُ المصدوقُ ، ومَن خالف ذلك فقد غلِطَ ، وبيانُ ذلك من وجوه :

أحدها : أن الإنسان قد يحصلُ له من الاعتقاداتِ والإراداتِ ما يكون حقًّا ، وقد يحصلُ له منها ما يكون باطلًا ، إذ اعتقاداته قد تكون مطابقةً لمعتقدها وهي الحقُّ ، والخبر عنها يسمى صِدقًا ، وقد تكون غيرَ مطابقةٍ وهي الباطلُ ، والخبرُ عنها يُسمى كذبًا .

والإراداتُ تنقسمُ إلى ما تكونُ نافعةً له متضمنةً لمصلحته ، ومرادُها هو الخيرُ والحسْنُ ، وإلى ما هو ضارّةٌ له مخالفة لمصلحته ، ومرادُها هو الشر والقبح ، وإذا كان الإنسان تارةً يكون معتقدًا للحق مريدًا للخير ، وتارة يكون معتقدًا للباطل مريدًا للشر ، فلا يخلو إما أن تكون نسبةُ نفسه الباطنة إلى النوعين نسبةً واحدةً بحيث لا يكونُ فيها مرجِّحًا لأحدهما على الآخر ، أو تكون نفسُه مرجحةً لأحدِ الأمرين على الآخر .

فإن كان الأولُ ؛ لزمَ أن لا يوجدَ أحدُ النوعين إلا بمرجِّح منفصل عنه ، فإذا قُدِّرَ رجحانُ أحدهما ترجَّح هذا ، والآخرُ ترجح هذا ، فإما أن يتكافأ المرجِّحان أو يترجَّح أحدُهما ، فإن تكافآ لزمَ أن لا يحصلَ واحدٌ منهما ، وهو خلاف المعلوم بالضرورة ، فإنا نعلمُ أنه إذا عُرِض على كل أحدٍ أن يعتقدَ الحق ويَصدق ، وأن يريدَ

ما ينفعُه ، وعُرض عليه أن يعتقدَ الباطلَ ويَكذب ويريد ما يضره ؛ مال بفطرته إلى الأول ، ونفرَ عن الثاني ، فعُلم أن فطرةَ الإنسان قوةٌ تقتضي اعتقادَ الحق وإرادة الخير ، وحينئذٍ الإقرارُ بوجود فاطره وخالقه ، ومعرفتُه ، ومحبته ، والإيمانُ به ، وتعظيمه ، والإخلاص له ، إما أن يكون من النوع الأول ، أو الثاني ، وكونه من الثاني معلومُ الفسادِ بالضرورة ، فتعيَّن أن يكون مِن الأول ، وحينئذ فيجب أن يكون في الفطرة ما يقتضي محبتَه ومعرفتَه والإيمانَ به والتوسلَ إليه بمحابِّه .

الوجه الثاني : أن عبادته وحده بما يحبه إما أن يكون أكمل للناس علمًا وقصدًا ، أو الإشراكُ به أكمل ، والثاني معلومُ الفسادِ بالضرورة ، فتعين الأولُ ، وهو أن يكونَ في الفطرةِ مقتضٍ يقتضي توحيده وتألهه وتعظيمه .

الوجه الثالث : أن الحنيفيةَ التي هي دينُ الله ، ولا دينَ له غيرها ، إما أن تكونَ مع غيرها من الأديان متماثلين ، أو الحنيفيةُ أرجحَ ، أو تكون مرجوحةً ، والأول والثالث باطلان قطعًا ، فوجب أن يكون في الفطرة مرجِّحٌ يرجِّح الحنيفية ، وامتنع أن يكون نسبتُها ونسبةُ غيرها من الأديان إلى الفطرة سواء .

الوجه الرابع : أنه إذا ثبت أن في الفطرة قوةً تقتضي طلب معرفة الحق وإيثاره على ما سواه ، وأن ذلك حاصلٌ مركوز فيها من غير تعليم الأبوين ولا غيرهما ، بل لو فُرض أن الإنسان تربَّى وحده ، ثم عَقَل ، وميَّز ؛ لوجد نفسَه مائلةً إلى ذلك نافرةً عن ضده ، كما تجدُ الصبيَّ عند أول تمييزه يعلم أن الحادث لا بد له مِن مُحْدِثٍ ، فهو يلتفتُ إذا ضُرب مِن خَلْفه لِعلمه أن تلك الضربةَ لا بدَّ لها مِن ضارب ، فإذا شَعَر به بكى حتى يُقْتَصَّ له منه فيسكُن .

فقد رُكِزَ في فطرته الإقرارُ بالصانع ، وهو التوحيدُ ، ومحبة القِصاص ، وهو العدل ، وإذا ثبت ذلك ؛ ثبت أن نفسَ الفطرة مقتضيةٌ لمعرفته سبحانه ومحبته

وإجلاله وتعظيمه والخضوع له ، من غير تعليم ولا دعاء إلى ذلك ، وإن لم تكن فطرة كلِّ أحدٍ مستقلة بتحصيل ذلك ، بل يحتاج كثير منهم إلى سبب مُعِينٍ للفطرة مقوٍّ لها ، وقد بيَّنا أن هذا السببَ لا يحدث في الفطرةِ ما لم يكن فيها ، بل يُعينها ويذكرها ويقوِّيها ، فبعث الله النبيينَ مبشِّرين ومُنذرين يدعون العباد إلى موجَب هذه الفطرة ، فإذا لم يحصل مانع يمنع الفطرةَ عن مقتضاها ؛ استجابت لدعوةِ الرسل ، ولا بدَّ بما فيها مِن المقتضي لذلك ، كمن دعا جائعًا أو ظمآنَ إلى شراب وطعام لذيذ نافع ، لا تبعة فيه عليه ، ولا يكلفه ثمنه ، فإنه ما لم يحصل هناك مانع ؛ فإنه يجيبه ولا بد .

الوجه الخامس : أنا نعلم بالضرورة أن الطفلَ حين ولادته ليس له معرفة بهذا الأمر ولا عنده إرادة له ، ونعلم أنه كلما حَصَلَ فيه قوةُ العلم والإرادة حَصَل له مِن معرفته بربه ومحبته ما يناسبُ قوةَ فطرته وضعفَها ، وهذا كما يُشاهد في الأطفال مِن محبة جَلْب المنافع ودَفْع المضارِّ بحسب كمالِ التمييز وضعفه ، فكلاهما أمرٌ حاصلٌ مع النشأة على التدريج شيئًا فشيئًا إلى أن يصلَ إلى حدِّه الذي ليس في الفطرة استعدادٌ لأكثرَ منه ، لكن قد يتفقُ لكثيرٍ من الفِطر موانعُ متنوعةٌ تحول بينها وبين مقتضاها وموجَبها .

الوجه السادس : أنه من المعلوم أن النفوسَ إذا حصلَ لها معلِّم وداعٍ حَصَل لها من العلمِ والإرادة بحسبه ، ومِن المعلومِ أن كلَّ نفسٍ قابلةٌ لمعرفة الحق وإرادة الخير ، ومجردُ التعليم لا يوجبُ تلك القابليةَ ، فلولا أن في النفس قوةً تقبل ذلك لم يحصل لها القبول ، فإنَّ لحصوله في المحل شروطًا مقبولةً له ، وذلك القبولُ هو كونُه مهيئًا له مستعدًا لحصوله فيه ، وقد بينا أنه يمتنعُ أن يكون نسبةُ ذلك وضدِّه إلى النفس سواء .

الوجه السابع : أنه من المعلوم مشاركةُ الإنسان لنوع الحيوان في الإحساس والحركةِ الإراديةِ وجنس الشعور ، وأن الحيوانَ البهيمَ قد يكون أقوى إحساسًا وحياةً وشعورًا من الإنسان ، وليس بقابلٍ لما الإنسانُ قابلٌ له مِن معرفة الحق وإرادته دون غيره ، فلولا قوةٌ في الفطرة والنفسِ الناطقةِ اختُصَّ بها الإنسانُ دون الحيوان يقبلُ بها أن يعرفَ الحق ويريدَ الخير لكان هو والحيوانُ في هذا العدم سواء ، وحينئذٍ يلزمُ أحدُ أمرين كلاهما ممتنعٌ : إما كونُ الإنسان فاقدًا لهذه المعرفةِ والإرادة كغيره من الحيوانات ، أو تكون حاصلةً لها كحصولها للإنسان ، فلولا أن في الفطرة والنفس الناطقةِ قوةً تقتضي ذلك لما حَصَلَ لها ، ولو كان بغير قوةٍ ومقتضٍ منها لا يمكنُ حصولُه للجمادات والحيوانات ، لكنَّ فاطرها وبارئَها خَصَّها بهذه القوةِ القابلةِ ، وفَطَرَها عليها ، يُوَضِّحهُ :

الوجه الثامن : أنه لو كان السببُ مجردَ التعليم من غير قوةٍ قابلةٍ لَحَصلَ ذلك في الجمادات والحيوانات ، لأن السببَ واحدٌ ولا قوةَ هناك يُهيئُ بها هذا المحل من غيره ، فعُلم أن حصولَ ذلك في محلٍّ دون محلٍّ هو لاختلافِ القوابلِ والاستعدادات .

الوجه التاسع : أن حصولَ هذه المعرفة والإرادةِ في العدم المحض محالٌ ، فلا بدَّ من وجودِ المحل ، وحصولُه في موجودٍ غيرِ قابلٍ مُحال ، بل لا بد مِن قَبول المحل ، وحصوله مِن غيرِ مددٍ من الفاعل إلى القابل ، فلو قَطَع الفاعلُ إمدادَه لذلك المحل القابل لم يوجد ذلك القبول ، فلا بدَّ من الإيجاد والإعداد والإمداد ، فإذا استحال وجودُ القبول من غير إيجاد المحل ؛ استحال وجودُه مِن غير إعداده وإمداده ، والخلَّاقُ العليمُ سبحانه هو الموجِدُ المُعِدُّ المُمِدُّ .

الوجه العاشر : أنه من المعلوم أن النفسَ لا توجبُ بنفسها لنفسها حصولَ العلم والإرادة ، بل لا بد فيها من قوةٍ تقبل بها ذلك ، لا تكونُ هي المعطيةَ لتلك القوةِ ، وتلك القوةُ لا تتوقفُ على أخرى ، وإلَّا لزمَ التسلسلُ الممتنعُ والدورُ الممتنعُ [(١)] ، وكلاهما ممتنع ، فها هنا ثلاثة أمور ، **أحدها** : وجود قوةٍ قابلة ، **الثاني** : أن تلك القوةَ ليست هي المعطيةَ لها ، **الثالثُ** : أن تلك القوةَ لا تتوقفُ على قوةٍ أخرى ، فحينئذٍ لزمَ أن يكون فاطرُها وبارئها قد فَطَرها على تلك القوة ، وأعدَّها بها لقبول ما خُلقت له ، وقد عُلم بالضرورة أن نسبةَ ذلك إليها وضده ليسا على السواء .

الوجه الحادي عشر : أنا لو فَرَضنا توقفَ هذه المعرفةِ والمحبة على سببٍ خارجٍ أليس عند حصولِ ذلك السبب يوجدُ في الفطرة ترجيحُ ذلك ومحبتُه على ضده ، فهذا الترجيحُ والمحبةُ والأمر مركوزٌ في الفطرة .

الوجه الثاني عشر : أنا لو فرضنا أنه لم يحصل المفسدُ الخارجُ ولا المصلحُ الخارجُ ؛ لكانت الفطرةُ مقتضيةً لإرادةِ المصلح وإيثاره على ما سواه ، وإذا كان المقتضي موجودًا والمانعُ مفقودًا وَجَب حصولُ الأثر ، فإنه لا يتخلفُ إلا لعدم مقتضيه ، أو لوجودِ مانعِه ، فإذا كان المانعُ زائلًا حصلَ الأثر بالمقتضي السالم عن المُعارِض المقاوِم .

الوجه الثالث عشر : أن السببَ الذي في الفطرة لمعرفة الله ومحبته والإخلاص له إما أن يكون مستلزمًا لذلك ، وإما أن يكون مقتضيًا بدون استلزام ، أو يستحيل أن لا يكون له أثرٌ البتة ، وعلى التقديرين يترتبُ أثره عليه ، إما وحده على التقدير الأول ، وإما بانضمام أمر آخر إليه على التقدير الثاني .

---

(١) راجع تعريفهما ص (٢٥ ، ٢٦) .

الوجه الرابع عشر : أن النفسَ الناطقةَ لا تخلو عن الشعور والإرادة ، بل هذا الخُلُوُّ ممتنعٌ فيها ، فإن الشعورَ والإرادةَ من لوازم حقيقتها ، فلا يُتصور إلا أن تكون شاعرةً مريدةً ، ولا يجوزُ أن يقال إنها قد تخلو في حق خالقها وفاطرها عن الشعور بوجوده وعن محبته وإرادته ، فلا يكونُ إقرارُها به ومحبته مِن لوازم ذاتها ، هذا باطل قطعًا ، فإن النفس لها مطلوب مرادٌ بضرورة فطرتها ، وكونها مريدةً هو مِن لوازم ذاتها ، فإنها حيةٌ وكلُّ حيٍّ شاعرٌ متحرك بالإرادة ، وإذا كان كذلك فلا بد لكل مريدٍ من مراده ، والمراد إما أن يكون مرادًا لنفسه أو لغيره ، والمراد لغيره لا بد أن ينتهيَ إلى مرادٍ لنفسه قطعًا للتسلسل في العلل الغائية ، فإنه محالٌ كالتسلسل [(١)] في العلل الفاعلة ، وإذا كان لا بد للإنسان مِن مرادٍ لنفسه فهو الله الذي لا إله إلا هو الذي تألهه النفوسُ ، وتحبُّه القلوبُ ، وتعرفه الفِطرُ ، وتُقِرُّ به العقولُ ، وتشهد بأنه ربُّها ومليكُها وفاطرُها ، فلا بد لكل أحد من إلهٍ يألهه وصَمَدٍ يصمدُ إليه .

والعبادُ مفطورون على محبة الإله الحق ، ومعلوم بالضرورة أنهم ليسوا مفطورين على تأله غيره ، فإذن إنما فُطروا على تألهه وعبادته وحده ، فلو خُلُّوا وفِطَرَهم لما عبدوا غيرَه ، ولا تألهوا سواه ، يُوَضِّحهُ :

الوجهُ الخامسَ عشرَ : أنه يستحيلُ أن تكون الفطرةُ خاليةً عن التأله والمحبة ، ويستحيل أن يكون فيها تألهُ غيرِ الله لوجوه :

منها : أن ذلك خلافُ الواقع ، **ومنها :** أن ذلك المخلوق ليس أوْلى أن يكون إلهًا لكل الخلق مِن المخلوق الآخر ، **ومنها :** أن المشركين لم يتفقوا على إلهٍ واحدٍ ، بل كلُّ طائفةٍ تعبدُ ما تستحسنه ، **ومنها :** أن ذلك المخلوق إن كان ميتًا فالحيُّ أكملُ

---

(١) راجع تعريفه ص (٢٦) .

منه ، فيمتنعُ أن يكون الناسُ مفطورين على عبادة الميت ، وإن كان حيًّا فهو أيضًا مريدٌ فله إلهٌ يألهه وحينئذٍ فلزم الدورُ الممتنعُ [١] ، أو التسلسلُ الممتنعُ ، فلا بد للخلق كلهم مِن إله يألهونه ولا يألهُ هو غيرَه ، وهذا برهان قطعيٌّ ضروريٌ .

فإن قلت : هذا يستلزمُ أنه لا بد لكل حي مخلوقٍ من إلهٍ ، ولكن لِمَ لا يجوزُ أن يكون مطلوبُ النفس هو مطلقَ التأله والمألوه لا إلهًا معينًا ، كما تقوله طوائف الاتحادية ؟

قلت : هذا يتبين بالوجه السادس عشر ، وهو أن المرادَ إما أن يراد لنوعه أو لعينه ، فالأولُ كإرادة العطشان والجائع والعاري لنوع الشراب والطعام واللباس ، فإنه إنما يريد النوع ، وحيث أراد المعين فهو القَدْرُ المشتركُ بين أفراده ، وذلك القدرُ المشتركُ كلِّي لا وجودَ له في الخارج ، فيستحيلُ أن يُراد لذاته ، إذ المرادُ لذاته لا يكونُ إلا معينًا ، ويستحيل أن يوجد في اثنين ، فإن إرادةَ كل واحدٍ منهما لذاته تنافي إرادتَه لذاته ، إذ المعنيُّ بإرادته لذاته أنه وحدَه هو المرادُ لذاته الخاصة ، وهذا يمنعُ أن يُراد معه ثانٍ لذاته .

وإذا عُرف ذلك فلو كان القَدْرُ المشتركُ بين أفراد النوع أو بين الاثنين هو المرادَ لذاته ؛ لزمَ أن يكون ما يختصُّ به أحدُهما ليس مرادًا لذاته ، وكذلك ما يختصُّ به الآخرُ ، والموجودُ في الخارج إنما هو الذاتُ المختصةُ لا الكليُّ المشتركُ .. [٢] تعلق الثالثة بالقَدْرِ المشتركِ لم يكن للخُلْفِ في الخارج إله ، ولكان إلههم أمرًا ذهنيًّا وجودُه في الأذهان لا في الأعيان ، وهذا هو الذي تألهه طوائفُ أهل الوحدةِ والجهميةُ الذين أنكروا أن يكونَ اللهُ تعالى لا خارجَ العالمِ ولا داخلَه ، فإن هذا إنما

---

(١) راجع تعريفه ص (٢٥) .

(٢) بياض بالأصل .

هو إلهٌ مفروض يفرضُه الذهنُ كما يفرضُ سائرَ الممتنعات الخارجة ، وتظنه واجبَ الوجود وليس هو ممكنَ الوجود فضلًا عن وجوبه .

وبهذا يتبينُ أن الجهميةَ وإخوانَهم من القائلين بوحدة الوجود ليس لهم إلهٌ معين في الخارج يألهونه ويعبدونه ، بل هؤلاء ألهوا الوجودَ المطلقَ الكليَّ وأولئك ألهوا المعدومَ الممتنعَ وجوده .

وأتباعُ الأنبياء إلههم اللهُ الذي لا إله إلا هو ، الذي ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٤ – ٨] ، هو الذي فَطَر القلوبَ على محبته والإقرارِ به وإجلاله وتعظيمه وإثباتِ صفاتِ الكمال له وتنزيهه عن صفات النقائص والعيوب ، وعلى أنه فوق سماواته ، بائنٌ مِن خَلْقه ، تصعدُ إليه أعمالهم على تعاقبِ الأوقات ، وتُرفَع إليه أيديهم عند الرغبات ، يخافونه مِن فوقهم ويرجون رحمتَه تنزل إليهم من عنده ، فهممهم صاعدةٌ إلى عرشه تطلب فوقه إلهًا عَليًّا عظيمًا قد استوى على عرشه ، واستولى على خَلْقه ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [السجدة: ٥، ٦] (١) .

❁ ❁ ❁

(١) انتهى بطوله من « شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل » ص (٦٣٣ – ٦٤٠) .

اكتشف نفسك !

إن معرفة أغوار النفس البشرية أهم وأسهل ـ في الوقت نفسه ـ من اكتشاف آفاق الفضاء السحيق ، على شرط أن يتم ذلك من خلال « الوحي » الشريف الذي هو أصدق وأصح وأوثق مصادر المعرفة ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء : ١٢٢] ، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم : ٣ ، ٤] .

لقد أخبرنا الوحي الشريف عن « الحقيقة الشرعية للفطرة » ، ومن قبله دل العقل الصريح على «الحقيقة النفسية للفطرة » ، فالفطرة مشتركة بين جميع ولد آدم ، وهي « وعاء الإيمان » المغروس في كيانه منذ ولادته ، وكل مولود يُخلق وكأن بداخله جهازَ استقبال ينمو مع نموه بحيث يستقبل ـ إذا ميَّز وبلغ وعقل ـ موجةَ الإسلام فقط لا غير .

لقد دفع « الفضول » (١) أو غريزة (٢) « حب الاستطلاع » البشر إلى البحث ، ومحاولة اكتشاف المجهول ، فأنفقوا المليارات في صناعة المِناظِرِ المكبرة (التلسكوب) ، والمراصد الهائلة ، وأطلقوا سفن الفضاء ، والأقمار الصناعية كي يعلموا ما لا يعلمون في آفاق الكون إشباعًا لهذه الغريزة ، ولكن هذا الإنسان ضلَّ الطريق حين حاول اكتشاف ذاته ، ونفسه التي تسكن جسده (٣) ، وظل محرومًا من الإشباع الحقيقي والنافع لهذا الدافع « الفضول » .

---

(١) الفضول (Curiosity) : ميل يدفع الفرد إلى المعرفة ، وبخاصة معرفة الجديد من الأمور والأشياء ، وإلى استطلاع كل غريب ، ومعرفة المزيد عنه بالبحث والتقصي ، واكتشاف المجهول وفض غموضه . ويكمن حب الاستطلاع وراء ثراء المعرفة البشرية ونموها ، وتقدم الاختراعات والصناعات .

(٢) يميل البعض إلى اعتبار « حب الاستطلاع » غريزة ، ودافعًا فطريًّا موروثًا تستثيره المواقف والأشياء الغامضة أو المجهولة – انظر : « موسوعة علم النفس » للدكتور / فرج طه ص (٢٩٧ ، ٢٩٨) .

(٣) النفس تطلق على أمور ، وكذلك الروح ، « فيتحد مدلولُها تارةً ، ويختلف تارة ، فالنفس تطلق على الروح ، ولكن غالبًا ما تسمى نفسًا إذا كانت متصلة بالبدن ، وأما إذا أُخِذَتْ مجردةً ؛ فتسميةُ الروح أغلبُ عليها » اهـ من « شرح الطحاوية» ص (٢٩٢) .

إن من علامات النقص البشري أنه حينما فتش عن (نفسه) انتابته الحيرة ، وتملكه الاضطراب ، لقد كان « علم النفس » في أصله فرعًا من فروع الفلسفة ، ثم ترقى إلى أن صار علمًا ذا فروع عديدة ، ولطالما أَرَّقَتْ مضاجعَ النفسيين الماديين كلمةُ (نفس Psyché) ؛ وأحرجتهم كثيرًا ، فانتهوا إلى أن تخلص منها بعضهم فأطلق عليه « علم السلوك » تخلصًا من هذا الحرج ، وبذلك لم يحلوا المشكلة لكنهم (هربوا) من أن يبحثوها بمنهجية علمية وموضوعية ، ولن تحل إلا إذا سلكنا السبيل العلمي الوحيد ، الذي ينبني على أساس أن الوحي هو من طرق العلم ومصادر المعرفة اليقينية [(١)] ، وليس خَصْمًا للعلم [(٢)] ، وعلى أساس الحقيقة البديهية التي يقر بها كل عاقل وهي أن من اخترع آلة فهو أدرى الناس بها ، وأخبرهم بأسرارها ووظائفها وما يصلحها ، وما يعطبها .

فإذا كان الله تعالى هو وحده خالق هذه النفس وموجدها من العدم ، فإنه وحده مصدر علم حقيقة هذه النفس ، قال تعالى : ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] ، وقال ـ عز وجل ـ : ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ [النجم : ٣٢] ، وقال ـ سبحانه ـ : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس : ٧ ، ٨] ، وعن حذيفة ـ رضي الله عنه ـ قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « **إنَّ الله يصنَعُ كلَّ صانعٍ وصَنْعَتَه** » [(٣)] .

---

(١) فالإيمان بالغيب ليس مجرد عقيدة فحسب ، بل هو موقف (علمي) صحيح بأدق معنى لكلمة (علمي) .

(٢) انظر : ص (١٨٠) ، هامش رقم (٢) .

(٣) أخرجه البخاري في « خلق أفعال العباد » ص (٧٣) ، وابن أبي عاصم في « السنة » [٣٥٧] ، [٣٥٨] ، والحاكم (١/ ٣١) ، وقال : « صحيح على شرط مسلم » ، ووافقه الذهبي ، ثم الألباني كما في « الصحيحة » رقم [١٦٣٧] .

نحن نقر بإنجازات علم النفس فيما نجح فيه من إثراء المعرفة البشرية وإفادتها ، لاسيما فيما توصل إليه من نتائج مبنية على تجارب وبراهين علمية ، دون ما غرق فيه الذين يعتمدون النظريات غير المؤسسة على براهين وأدلة [١] ، وفي مقدمتها نظرية « فرويد » الذي لم يتحرج من أن يستند إلى خرافات وأساطير مثل ما زعمه من « عقدة أوديب » و« عقدة إلكترا » وغيرهما .

إن « علم النفس المادي » الغربي ينبثق من فلسفات معادية للإسلام في كثير من منطلقاته [٢] :

ـ فالتدين عندهم لا يعتبر أحد الدوافع (الفطرية) لدى الإنسان ، وإنما يعتبرونه دافعًا اجتماعيًّا (مكتَسَبًا) ؛ لأن الدين في زعمهم صناعة بشرية وليس وحيًا إلهيًّا .

ـ وهم يعتقدون في خرافة « داروين » التي تزعم أن الإنسان كائن متطور عن الحيوان ، وهم يجعلون سلوك الحيوان مَدخلًا مقبولًا لفهم سلوك الإنسان ، لأن « علم النفس » في أحد تعريفاته عندهم هو : « علم سلوك الكائن الحي ـ حيوانًا كان أم إنسانًا ـ الناتج عن المنبِّهات الخارجية والداخلية » .

---

(١) والعجيب أنهم يُقرون بذلك فيسمونها : theories (Armchair),(Non-evidence based) ، أي : النظريات غير القائمة على البرهان ، أو نظريات « الأريكة » .

(٢) وليس بينهم إجماع على نظرية واحدة ، وإنما تطرح كل مدرسة نظريةً تتبناها كأنها مسلَّمات ، وتطالب غيرها بالتسليم لها ، لكن ما نذكره هنا هي مسلمات مشتركة بين كثير منهم .

ولقد ظهرت في النصف الثاني من القرن العشرين مدارس في علم النفس حاولت التخلص من سلبيات المدارس السابقة ذات الاتجاهات المادية الإلحادية .

ومن المبشرات أنه ظهرت أخيرًا محاولات للتأصيل لعلم نفسٍ إسلامي تستهدف إنقاذ الدارسين المسلمين من الحيرة التي يعانونها حين تتصادم مبادئ علم النفس الغربي التي يدرسونها مع قواعد ومسلَّمات الإسلام التي يعتقدونها .

ـ وهم يتعمدون ـ عن قصد ـ في دراساتهم النفسية إقصاء الدين والعوامل الروحية مع أنها من أهم مكونات السلوك الإنساني [١] ، وذلك تأثرًا منهم بفلاسفة القرنِ الثامنَ عَشَرَ الماديين ، بل إن « فرويد » يرى أن كل المعتقدات الدينية مجرد أوهام كاذبة .

ـ وهم يرفضون الإقرار بوجود (الروح) في الإنسان بدعوى أنه لا يمكن ملاحظتها ماديًّا ، ولا إثباتها بالوسائل التجريبية المادية .

ـ وهم يرفضون التفسيرات الغيبية (الميتافيزيقية) ، ويزعمون أن المصدر الوحيد للمعرفة هو العقل عن طريق البحث العلمي المادي .

ـ وهم لا يعترفون بالوحي الإلهي إلى الأنبياء ـ عليهم السلام ـ كمصدر للمعرفة .

ـ وتركز مدارس « علم النفس » على تحصيل السعادة الدنيوية مع عدم الاعتراف بالحياة الأخروية بما فيها من بعث ونشور وحساب وجزاء في المصير الأبدي الخالد في النعيم أو العذاب . أما « غاية الوجود الإنساني » فهذا ليس من شأنهم ، وإنما يعزون هذه القضايا إلى « الفلسفة » .

إن علم النفس الغربي الذي يصوغ عقول عامة المتخصصين به في عموم الدنيا لا يزال ـ إلى حَدٍّ بعيد ـ هو علم نفس الرجل الأبيض ، ودراسات الغربيين تعكس أنهم يعتبرون واقع المجتمعات الغربية هو الميزان والمقياس الذي على أساسه تُقبل الفروض أو تُرفَض ، وهم حين يتكلمون عن المجتمع الإنساني فهم يعنون

---

(١) وجاء في كتاب (علم نفس القرن الواحد والعشرين) لمؤلفه William S. Buskist المطبوع في كاليفورنيا سنة ٢٠٠٨م : « يتخذ علم النفس في العَقد الأول من المليونية الجديدة مظهرًا آخرَ جديدًا ، أو ربما تقول : إنه يعود ببساطة من حيث أتى ، إن علم النفس أو في الحقيقة : كل المجتمع يدفع باتجاه اعتماد الروحانية وتقبل الإيمان ـ من جديد ـ كمصدر صحيح للمعرفة » اهـ . ص (٢١) .

المجتمع الغربي ، وحين يتحدثون عن الدين فهم يقصدون الدين النصراني ، كما فعل فرويد [١] الذي عمَّم حكمه ، فدعا إلى نبذ الأديان كلها دون أن يطلع عليها [٢] .

ويقول ساراسون Sarason عن تأثر علماء النفس بواقع مجتمعاتهم :

« إن تأثير الجوانب الاجتماعية الحضارية في مادة علم النفس ونظرياته أصبحت جزءًا منه لا يقل عن تأثير الهواء المحيط بنا ودخوله في دَمِنا . وكما علمتنا التجارب أن الهواء قد يصبح ملوثًا ويضر بصحتنا ، فعلى عالم النفس أن يتعلم أن البيئة الاجتماعية والحضارية التي يتغذى منها قد تحتوي على عوامل تضر بصحته وتطوره ولكن مثل هذا التصور من قبل علماء النفس لا يمكن أن يتم إلا إذا استطاعوا أن يتخلصوا ولو جزئيًّا من تكوينهم الاجتماعي حتى ينظروا إلى هذه التأثيرات الحضارية والاجتماعية في علم النفس من خارج هذا الإطار » [٣] .

أما « ماسلو » فإنه يعلنها صريحة بأن علم النفس علم غربي بصورة احتكارية حيث يقول : « **علم النفس الأكاديمي علم غربي بصورة احتكارية للغاية** ، لذا يحتاج إلى أن يتجه كذلك نحو المصادر الشرقية . وإذا كان علم النفس قد تحول بدرجة هائلة إلى ما هو موضوعي وعام وخارجي وسلوكي ، إلا أنه ينبغي أن يعرف أكثر عما هو ذاتي وخاص وداخلي وتأملي » [٤] .

من هنا ندرك البون الشاسع في قضية « فطرية الإسلام » بين الوحي الإلهي وبين ما يُسمى بعلم النفس الذي نشأ في بيئة عالَمانية وإطار مادي لا مكان فيهما للدين الحق ، ولا اعتبار فيهما لهدي الأنبياء ـ عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ .

---

(١) ولقد كان « فرويد » مُلْحِدًا من أصل يهودي .

(٢) انظر : « الصحة النفسية من منظور إسلامي » للدكتور صالح بن إبراهيم الصنيع ص (٢٥٣ – ٢٥٨) .

(٣) انظر : « علم النفس الحديث من منظور إسلامي » للدكتور مالك البدري ص (١٦) .

(٤) « علم النفس الإنساني » ص (٥١) .

الفصل السابع

الدليل الفطري

الفصل الرابع:
الدليل الفطري

تمهيد :

تنقسم المصادر العامة للتلقي عند أهل السنة والجماعة إلى قسمين :

الأول : مصادر أولية :

وهي : الكتاب الكريم ، والسنة الصحيحة ، والإجماع [١] .

الثاني : مصدران ثانويان :

وهما : الفطرة السليمة ، والعقل الصحيح .

أ – أما الفطرة : فإن الإسلام دين الفطرة ، وكل مسألة من مسائله يوجد في الفطرة ما يؤيدها ، ويشهد لصحتها [٢] :

ـ إما صراحةً : في الأصول الكبار [٣] .

ـ وإما إحالة : بمعنى أن الفطرة لا تنفر منها .

ب – وأما العقل : فهو مصدر من مصادر المعرفة الدينية ، غير أنه ليس مستقلًّا ، بل يحتاج إلى تنبيه الشرع وإرشاده إلى الأدلة .

---

(١) أما القياس فإنه ليس مصدرًا مباشرًا للتلقي ، وإنما يؤخذ بواسطته ـ وليس منه ـ الحكمُ الشرعي ، والقياس الأصولي لا يصح في مسائل الاعتقاد ، وإنما يُستعمل في العلم الإلهي قياسُ الأولى ، لا القياس الأصولي ولا المنطقي ، انظر : « مجموع الفتاوى » (٣/ ٢٩٦) .

(٢) فعامَّة شرائع الإسلام تساير الفطرة البشرية السوية ، وتلبي أشواقها ، وتُشْبع احتياجاتِ كل من الجسد والروح في توازن وانسجام وتناغم بغير إفراط ولا تفريط على أساس مبدأ : « **فأعط كل ذي حق حقه** » ، انظر : « الدين » للدكتور محمد عبد الله دراز ص (١٢ – ١٨) .

(٣) حيث تعطي العقيدة الإسلامية إجابات شافية كافية ومشبعة ومقنعة لكل تساؤلات العقل البشري حول مسائل الكون والوجود في الحياة ، وما بعدها ، كما تجود الشريعة الإسلامية بحلول سخية لكل مشاكل البشر على كل المستويات ، في يسر وسماحة ووسطية .

مَكَانَةُ الدَّلِيلِ الفِطرِيِّ وَحُجِيَّتُهُ

ـ لا أدل على تعظيم الإسلام لمكانة الفطرة من وصف الإسلام نفسِه بأنه الفطرةُ نفسُها في قوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ الآية [الروم : ٣٠] ، وهذا الوصف ليس من باب المبالغة ، بل هو وصف دقيق محيط شامل لتمام انطباق هذا الدين على الفطرة ، حتى كأنما هو هي ، لا تخالفه في شيء ، ولا يَنِدَّ عنه منها شيء .

ـ ثم أمر بالمحافظة عليها وعدم تغييرها حين قال تعالى : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : ٣٠] (١) .

ـ والدليل الفطري سابق على الدليل الشرعي والدليل العقلي ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ : « الرسل إنما تأتي بتذكير الفطرة ما هو معلوم لها ، وتقويته وإمداده ، ونفي المغيِّر للفطرة ، فالرسل بُعثوا بتقرير الفطرة وتكميلها ، لا بتغيير الفطرة وتحويلها ، والكمال يحصل بالفطرة المُكمَّلة بالشريعة المنزلة » (٢) .

ـ ولأن مقدمات الأقيسة العقلية تكون مقدمات فطرية ، وبناء عليه تفيد اليقين ، فإن مبنى العقل على صحة الفطرة وسلامتها (٣) .

ـ والفطرة تقدم على العقل عند التعارض ؛ لأن الفطرة لا تُرد بما دلت عليه مقاييس العقل ، ولا تُعارَضُ بها لأنها ـ أي الفطرة ـ يقينية ، ومقاييس العقل قد تكون ظنية ، وفي حالة كون مقاييس العقل يقينية يستحيل أن تعارض الفطرة ؛ لأن اليقينيات لا يمكن أن تتعارض لوجوب كونها حقًّا ، واستحالة خطأ أحدهما (٤) .

---

(١) على أحد القولين في تفسيرها ، راجع ص (٣٨ ، ٣٩) .

(٢) « مجموع الفتاوى » (١٦/ ٣٤٨) .

(٣) « منهاج السنة » (٢/ ١٥٠ ، ١٥١ ، ٦٤٤) ، « الرد على المنطقيين » (٣٢٣) .

(٤) انظر : « بيان تلبيس الجهمية » (٢/ ٢٥٢ – ٢٥٤) .

قضايا عقدية يُستدل عليها بالفطرة

١ – وجود الله تبارك وتعالى :

معرفة الخالق ـ عز وجل ـ فطرية مركوزة في النفوس البشرية ، لا تحتاج إلى استدلال عقلي ، ولا تكون نظرية [(١)] إلا عند من فسدت فطرته فاحتاجت إلى النظر والبرهان [(٢)] .

ووجود الرب ـ جل جلاله ـ أظهر من كل شيء على الإطلاق ، فهو أظهر للبصائر من الشمس للأبصار ، وأبين للعقول من كل ما تعقله وتقر بوجوده ، فما ينكره إلا مكابر يكذبه قلبُه وعقلُه وفطرتُه .

ومن أدلة ذلك :

ـ ما هو مشاهَد من الاحتياج النفسي والفقر الشديد والشوق المتأجج المتجه إلى صانع هذا الكون ومدبره في كل أحوال الإنسان لاسيما في وقت نزول الشدة والكرب ، فإنه ـ حينئذ ـ ينسى كل ما سوى الله ، ويبتهل إليه وحده ، ويفر إليه كما يفر الطفل إلى أمه ، والفصيلُ إلى أمه ، وما ذاك إلا بسبب نور الفطرة المركوز في أعماق الوجدان ، والذي يمنحه يقينًا جازمًا قاطعًا بوجود خالقه وفاطره الذي يُغيث ـ وحده ـ في الشدائد ، ويكشف الضر .

قال الله ـ عز وجل ـ : ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء : ٦٧] .

وقال ـ عز وجل ـ : ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ

---

(١) راجع معنى العلم النظري ص (٢٥) .

(٢) انظر : ص (٥٤ – ٦٢) .

أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [يونس : ٢٢] .

وعن عمران بن حصين ، قال : « قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأبي : « **يا حُصين كم تعبدُ اليومَ إلهًا ؟** » قال أبي : سبعةً : سِتًّا في الأرض ، وواحدًا في السماء . قال : « **فأيهم تَعُدُّ لرغبتك ورهبتك ؟** » قال : الذي في السماء »[(١)] .

٢ – توحيد الخالق ـ عز وجل ـ وعبادته وحده :

فطرية الإسلام لا تعني مجرد الإقرار بالصانع فحسب ، بل إقرارًا يتبعه عبودية لله وحده بالحب والتعظيم وإخلاص الدين له ، وهذا هو الحنيفية .

والقلب مفطور على علمه بالخالق وعبوديته له ـ عز وجل ـ ، وخروج بعض الناس عن الفطرة استثناء يؤيد القاعدة ولا يبطلها ، وهم قد حادوا عنها بما عرض لهم من مرض أو جهل أو ظلم أو جحود أو عناد .

ولقد احتج صاحب ياسين على قومه بما تقر به فطرهم وعقولهم ، وحكى الله عنه قوله : ﴿ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس : ٢٢ – ٢٤] .

٣ – علو الله على خلقه :

تدل الفطرة على صفة العلو لله ـ تبارك وتعالى ـ ، ودليل الفطرة أقوى من دليل العقل ؛ لأن الفطرة لا يستطيع أحد تبديلها ، وقد فطر الله عباده على أن

---

(١) أخرجه البخاري في « خلق أفعال العباد » [٤٣] ، والترمذي (٥/ ٥١٩) ، والطبراني في « الكبير » [٣٩٦] ، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيق « الجامع الكبير سنن الترمذي » (٦/ ٩٤) : « حديث صحيح ، وهذا إسناد ضعيف بهذه السياقة » اهـ.

يتوجهوا في الدعاء رافعي أكفهم ، رانين [١] بأبصارهم ، وكل مَن مسه ضر توجه بفطرته إلى جهة العلو ، ولو رجع المشككون في هذه الصفة إلى أنفسهم ؛ لوجدوا هذا المعنى مركوزًا في فطرهم ، ولا تقوى الشبه والشكوك التي أثاروها على مواجهة هذه الحقيقة ؛ إذ من المحال أن تنال الشبهات من المعلوم على وجه اليقين [٢] .

وقد قال أبو جعفر الهمذاني لأبي المعالي الجويني حين نفى صفة العلو لله تعالى : « أخبرنا يا أستاذ عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا : فإنه ما قال عارف قط : يا الله ؛ إلا وجد في قلبه ضرورة تطلب العلو ، لا يلتفت يَمْنَةً ولا يَسْرة ، فكيف ندفع هذه الضرورة عن أنفسنا ؟ » فلطم أبو المعالي على رأسه ، ونزل ، وبكى ، وقال : « حيَّرني الهمذاني ، حيرني الهمذاني » [٣] .

والاعتماد على الفطرة في إثبات صفة العلو ـ ولا سيما مسألة رفع الأيدي ـ من الاستدلالات الشائعة عند العلماء المتقدمين ، وقد قال بها عدد كثير منهم ؛ مثل : أبي حنيفة ، وابن خزيمة ، وابن قتيبة ، والدارمي ، وأبي الحسن الأشعري ، والخطابي ، والباقلاني ، وابن عبد البر ، وابن قدامة ، وابن تيمية ، وابن القيم ، وغيرهم [٤] .

٤ – إثبات الكمال المطلق لله ـ عز وجل ـ في ذاته وأسمائه وصفاته :

إثبات الكمال المطلق الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه لله قضية فطرية بدهية مركوزة في فِطَرِ جميع الخلق ، ما لم تعكر صفوَها التعقيداتُ الفكرية ، وركام

---

(١) من رنا بمعنى : أدام النظر في سُكونِ طَرْف .

(٢) انظر : « شرح القصيدة النونية » للدكتور / محمد خليل هراس (١/ ١٨٧) ، (٢/ ٢٧٨) .

(٣) « سير أعلام النبلاء » (١٨/ ٤٧٤) ، وقال الألباني في « مختصر العلو للذهبي » : « إسنادها صحيح مسلسل بالحفاظ » ص (٢٧٦ ، ٢٧٧) .

(٤) انظر : « اجتماع الجيوش الإسلامية » ص (١١٣ – ٢١٢) ، و« الماتريدية » للشمس السلفي (٢/ ٥٨٢ – ٦٠٥) .

التصورات والفلسفات البشرية ، وهي رديفة ومقارنة للإقرار بالخالق سبحانه ؛ إذ لا يُتَصَور إثباتُ الخالقِ في الفِطَرِ إلا على وجه يكون فيه موصوفًا بمنتهى الكمال وأقصى غاياته ، فكماله ملازم لكونه موجودًا وربًّا وخالقًا [١] .

وهناك اتفاق تام بين المؤمنين بالله قديمًا وحديثًا على أن مقام الألوهية سامٍ على كل مقام ، وأنه يحمل في ذاته وصفاته الكمال المطلق [٢] ، وإن كان جانب التطبيق والتفصيل قد شابه الكثير من التجاوزات ، فوصَفَتْ بعضُ الأديان المحرفة ربَّ العالمين بما لا يليق بكماله وجلاله ، كما نفى البعض عنه كثيرًا من صفات الكمال بحجج مختلفة ، لكن لم يصرح أحد بنفي الكمال إجمالًا عن الله ، أو وصفه بالنقائص .

إن إثبات صفات الكمال المطلق لله في حكم البدهيات التي لا يُحتاج في إثباتها إلى دليل أو برهان ، ولا يطالِب بالدليل عليها إلا كلُّ مكابرٍ مريضِ القلب لا يجديه دليل ، ولا تنفع معه حجة ، وهو أمر مركوز في فطر النفوس الصافية ، مستقر في أعماق القلوب السليمة ، وإنما تساق الأدلة العقلية تتميمًا للفائدة ، وزيادة في البيان [٣] .

٥ – الإقرار باليوم الآخر ودار الجزاء :

فإن الله تعالى أودع في الفطرة البشرية حُبَّ الخلودِ وإطالةَ الذِّكْر وامتدادَ الأثر ، وجبلها على كراهية الفناء والموت ، مما يدل على بقاء الروح بعد الموت ، والإيمان بالآخرة يلبي حاجاتٍ متأصلةً في الفطرة البشرية :

---

(١) « الأدلة النقلية العقلية على أصول الاعتقاد » للدكتور / سعود العريفي ص (٣٤٦) ، وانظر : « علاقة صفات الله بذاته » للدكتور / راجح الكردي ص (١٥١) .

(٢) « علاقة صفات الله بذاته » ص (١٥١) .

(٣) انظر : « العقائد » للشيخ حسن البنا ـ رحمه الله ـ ص (٤٩ – ٥٣) .

ـ فمنها : تحقيق العدل المطلق والاقتصاص من الظالم وإنصاف المظلوم ، ومنها الرغبة في البقاء الطويل والخالد غير المنقطع ، ثم إنها تمثل النهاية الطبيعية اللائقة بخليفة ممتاز كالإنسان ، يرتقي إلى الإحسان ، ويمضي قدمًا في الخط الصاعد إلى الأفق الكريم وهو الجنة ، ولا يمكن أن تكون نهايته عبثًا أو هباءً دون حكمة أو قصد [١] .

إن كل إنسان يجد في نفسه إيمانًا داخليًّا فطريًّا بالآخرة على أنها حقيقة واقعة ، لا تحتاج إلى استدلالٍ عليها ، بل مهما وَصَلَتْ درجةُ الكفرِ والعناد عند الإنسان ؛ فإنه يخاف الموت ويرهبه ، ويشعر أنه سينتقل بالموت إلى حيث يرى عمله ويُحاسب عليه .

ومن مظاهر تعظيم الإسلام للفطرة :

حرصه على حراستها وصيانتها من كل خوارمها ومفسداتها :

ـ كالشيطان الذي توعد بني آدم وقال : ﴿فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الأعراف : ١٦] ، وقال : ﴿لَّأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ١١٨ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِ﴾ [النساء:١١٨، ١١٩] .

وهذا التوعد بتغيير خلق الله ، يراد به في أحد أهم معنييه [٢] : إفساد الفطرة ، ويوضحه قولُ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما يرويه عن الله ـ عز وجل ـ أنه قال : « **إني خلقت عبادي حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم** » [٣] الحديث .

ومن مسالك الشيطان في إفساد الفطرة الوسوسة ، كما في قول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « **يأتي شيطانُ أحدِكم فيقول : مَن خَلَقَ كذا ؟ من خلق**

---

(١) « مقومات التصور الإسلامي » للأستاذ / سيد قطب ـ رحمه الله ـ ص (٣٦٩) .

(٢) انظر ص : (٣٦) .

(٣) تقدم تخريجه ص : (٨٩) .

كذا ؟ من خلق كذا ؟ حتى يقول : من خلق ربَّك ؟ فإذا بلغه ؛ فليستعذ بالله [(١)] ، ولينته » [(٢)] .

ـ وكالتأثيرات البيئية وفي مقدمتها الأبوان ، والأسرة ، والصحبة [(٣)] ، والإعلام ، ومناهج التعليم التي تشوش على الفطرة وتفسدها ، قال الله تعالى : ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف : ٢٨] .

وقال نوح ـ عليه السلام ـ : ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح : ٢٦ ، ٢٧] .

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ : « وإنما وجب انتهاؤه لأنه من المعلوم بالعلم الضروري الفطري لكل من سلمت فطرته من بني آدم أنه سؤال فاسد ، وأنه يمتنع أن يكون لخالق كل مخلوق خالق ، فإنه لو كان له خالق لكان مخلوقًا ، ولم يكن خالقًا لكل مخلوق ، بل كان يكون من جملة المخلوقات ، والمخلوقات كلها لابد لها من خالق ، وهذا معلوم بالضرورة والفطرة ، وإن لم يخطر ببال العبد قطعُ الدور والتسلسل ، فإن وجود المخلوقات كلها بدون خالق معلوم الامتناع بالضرورة » اهـ . من « درء التعارض » (٣/ ٣١٤) .
ونقل الحافظ في « الفتح » عن الطيبي ـ رحمه الله ـ قوله : « إنما أمر بالاستعاذة والاشتغال بأمر آخر ، ولم يأمر بالتأمل والاحتجاج لأن العلم باستغناء الله ـ جل وعلا ـ عن الموجِد أمرٌ ضروري ، لا يحتاج للاحتجاج والمناظرة ، والاسترسال في ذلك لا يزيد صاحبه إلا شكًّا وحيرة » اهـ. (٦/ ٣٩٣) ، (١٣/ ٢٨٧) .

(٢) انظر : « السلسة الصحيحة » رقم [١١٦] ، [١١٧] ، [١١٨] .

(٣) ومن الشواهد على شؤم الصحبة الفاسدة ما رواه سعيد بن المسيب عن أبيه قال : لما حَضَرَتْ أبا طالب الوفاةُ جاء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فوجد عنده أبا جهل ، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة ، فقال : « **أيْ عَمِّ ! قل : لا إله إلا الله ، كلمةً أُحاجُّ لك بها عند الله** » ، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية : « أترغب عن ملة عبد المطلب » ، فلم يزل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعرضها عليه ، ويُعيدانِه بتلك المقالة ـ أي : ويعيدانه إلى الكفر بتلك المقالة : « أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ » ـ حتى قال أبو طالب آخِرَ ما كلمهم : « على ملة عبد المطلب » ، وأبى أن يقول : لا إله إلا الله ، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « **والله لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك** » ، فأنزل الله ـ سبحانه وتعالى ـ : ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية [التوبة : ١١٣] ، وأنزل الله ـ عز وجل ـ في أبي طالب ، فقال لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص : ٥٦] ، رواه البخاري (٣/ ١٧٦) ، ومسلم [٢٤] .

ـ وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية أن للتقوى أثرًا عظيمًا في سلامة الفطرة ، حيث قال ـ رحمه الله ـ : « فلم عُظِّمَت التقوى ؟ فيقال : إنها هي تحفظ الفطرة وتمنع فسادها ، واحتاج العبد إلى رعايتها لأن المحبة الفطرية لا تحتاج إلى محرك ، ولهذا كان أعظم ما دعت إليه الرسل الإخلاص والنهي عن الإشراك ؛ لأن الإقرار الفطري حاصل لوجود مقتضيه ، وإنما يحتاج إلى إخلاصه ودفع الشرك عنه » ، إلى أن قال ـ رحمه الله ـ : « وأصل الدين هو عبادة الله : الذي أصله الحب والإنابة والإعراض عما سواه ، وهو الفطرة التي فطر عليها الناس » [(١)] .

(١) « مجموع الفتاوى » (١٥/ ٤٣٨) .

الفصل الخامس

مؤيدات الفطرة في عصرنا

كُنْ صَدِيقاً لِفطرتِكَ

قال الله ـ تعالى ـ : ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل : ٨٨] .

وقال ـ عز وجل ـ : ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه : ٥٠] .

وقال ـ سبحانه ـ : ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [لقمان: ١١] .

وقال ـ جل وعلا ـ : ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة : ٧] .

وقال ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين : ٤] .

وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « **كل خلق الله ـ عز وجل ـ حَسَنٌ** » (١) .

وكما أن الناس اليوم يقرون بأن الأشياء كلها يجب أن تعود إلى « طبيعتها الأولى » لأنهم توصلوا إلى أن أكمل أحوال العالم ما كانت عليه « الطبيعة » قبل طروء أسباب الفساد في البر والبحر والجو ؛ فكذلك « الطبيعة الفطرية » التي ينشأ عليها الناس هي أطهر وأسلم وأصح ما تكون ما لم يفسدها « التلوث البيئي : العَقَدي والتربوي » .

ومن رحمة الله بعباده أن فطرهم على الإقرار به ، وتوحيده ، وأنهم يبقون على هذا الاستعداد ما لم تفسده البيئة التربوية لاسيما تربية الوالدين ، فالفطرة ـ بجانب أنها من حجج الله على البشر ـ هي هبة ربانية ، ومنحة إلهية ، يهبها الله لكل مولود من بني آدم .

لقد عرف الموحِّدون ربهم بداعي العقل ، وداعي الفطرة ، ثم جاءت الرسل تؤكدان دلالتهما ، وتأمران بموجَبهما ؛ لأن الفطرة والعقل والوحي يتواردون على هذه الدلالة الواحدة .

---

(١) رواه الإمام أحمد [١٩٤٧٢] (٣٢/ ٢٢١) .

وقال المحققون : « إسناده صحيح على شرط مسلم » .

البيولوچيا الإلكترونيَّة

إن أحسن الآلات من صناعة الإنسان لا يمكن أن تُقارَنَ بالنظام العجيب الذي يوجد في الكون ، ولهذا فإن تقليد نظام الطبيعة قد أصبح اليوم موضوعًا خاصًّا في العلم ، يولي أهمية خاصة للسير بالآلات الميكانيكية وفق ذلك النظام ، وأصبحنا نرى علمًا جديدًا يُسمى (Bionics) لهذه الدراسة ، مختصًّا بهذا الفرع من العلوم التي كانت مقتصرة من قبل على اكتشاف القوى الكامنة في الطبيعة واستغلالها [١] .

وقد بدأ استخدام هذا المصطلح (Bionics) أي : (البيولوجية الإلكترونية) منذ عهد قريب ، أما مضمونه فقد انتبه إليه الكثيرون منذ أزمان بعيدة منهم (ليوناردو دافنشي) الذي استفاد من مراقبة الطيور وكيفية طيرانها فأوحت إليه بتصميم آلاتٍ تطير كطيرانها ، بل تصميم طائرة عمودية (الهليوكوبتر) .

وهذا العلم يسمى أيضًا (Biosimulation) أي : المحاكاة الحيوية ، وقد يُسمَّى : (Bio-inspiration) أي : الإلهام الحيوي .

إن علم الـ (Bionics) يُعني بتقليد ومحاكاة نظم المعلومات لدى الكائنات الحية ، ويُعني أيضًا بابتداع نظم للتحكم مستمدة من محاكاة وظائف هذه الكائنات وكيفية حصول ردود الفعل عندها ، والتحكم في حركتها ، وكيفية الملاحة ، وتكيفها وفق الظروف من حولها ، فيطبق كل ذلك من خلال تصميم نظم هندسية بالتقنية الحديثة .

إذن هذه النماذج التي ينتجها علم الـ (Bionics) ليست محاولة لاستنساخ الطبيعة ، ولكنها ثمرة جهد يبذل لفهم مبادئها ثم استعمالها في التطبيقات التكنولوجية .

لقد استفاد الباحثون في هذا العلم من ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ في المجالات المعمارية ، والطبية ، والصناعية ، وعلوم المادة .

---

(١) انظر : « الإسلام يتحدى » ص (٥٨) .

ومن أمثلة استغلال نظام الطبيعة في الصناعة : آلة التصوير ، وهي في الواقع تقليد ميكانيكي لعين الإنسان [١] .

ـ ومنها : جهاز التقاط وقياس (الذبذبات تحت الصوتية Infra-Sonic Vibrations) الذي يستقبل ويلتقط أخبار الفيضانات والزلازل وما أشبهها من الكوارث قبل حدوثها بمدة تتراوح بين اثنتي عشرةَ ساعة وخمسَ عشرةَ ساعة .

لقد استنبطوا هذا التفكير من سمكة قنديل البحر واسمها (هلامي Jelly Fish) وهي شديدة الحساسية حتى إنها لَتُحِسُّ بالذبذبات تحت الصوتية » اهـ . [٢] .

ـ وفي مجال « الهندسة الطبية » استفادوا منه في الأجهزة التعويضية كالساق (Bionic Leg) ، واليد (Bionic Hand) ، والقلب الصناعي ، والأذن (Bionic Ear) ، وغيرها .

ـ ومنه استفادوا تصميم الطائرات ، وقشرة القوارب (Hull) المبنية على محاكاة الجلد السميك للدولفين ، واستفادوا من الخفاش ظاهرة « تحديد الموقع بالصدى » (Echolocation of bats) وطبقوها في السونار ، والرادار ، والتصوير بالموجات فوق الصوتية (Medical Ultrasound imaging) .

وهذه مجرد نماذج تزيد يقيننا بأن الله تعالى هو ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ ، وهي كلها تقرر حقيقة جازمة أن فطرة الله [٣] التي فطر عليها المخلوقاتِ كلَّها هي أكمل صورة ، وأدق مثال لما ينبغي أن تكون عليه .

---

(١) فعدسة الكاميرا (Lens) هي كالشبكة الخارجية للعين ، والحجاب الحاجز (Diaphragm) هو قزحية العين (Iris) ، والفيلم الذي يتأثر بالضوء إنما هو شاشة العين التي توجد فيها خطوط وأشكال مخروطية ترى الأشياء معكوسة .
ومن العجيب أن أي عاقل لا يمكن أن يقبل دعوى أن « آلة التصوير » جاءت بنفسها « صدفة » دون مخترع اخترعها ، في حين يزعم بعض المنتسبين إلى العقل والعلم أن « العين البشرية » جاءت بمحض الصدفة دون خالقٍ أبدعها !

(٢) « الإسلام يتحدى » ص (٥٨ ، ٥٩) .

(٣) والفطرة هنا بمعناها اللغوي ، راجع ص (٢٣) .

ولهذا يتداعى العقلاء من كل الأمم من أجل المحافظة على البيئة الفطرية الطبيعية المتوازنة البديعة ، يقينًا منهم بأن أحسن أحوال العالم هو الحالة التي خلقه الله عليها ، قال تعالى : ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ﴾ [الحجر : ١٩] .

قال « جان جاك رُوسُّو » : « كل شيء يكون صالحًا حسنًا عندما يطلقه الخالق من يديه ، وكل شيء ينحط وينحل عندما يصبح بين يدي الإنسان » (١) .

وقال « Janine Benys » : « كلما تصرف عالَمُنا وفقًا للعالم الطبيعي ؛ كلما كنا أقرب بأن نبقى في هذه الأرض التي هي وطننا ، لكنها ليست وطننا وحدنا » .

فهل يُعقل بعد هذا كله أن لا يفطر الله تعالى الإنسانَ الذي كرَّمه على ملة التوحيد ، وفطرة الإسلام ؟ كيف – وقد خلق جسده في أحسن صورة وأكرمها – يترك قلبه فلا يخلقه أيضًا على أكمل وأجمل ما يكون بإيداعه بذرة دين الفطرة والإسلام ؟ (٢) .

وما أكثر الجماعات الداعية إلى « المحافظة على البيئة » ومحاربة « التلوث البيئي » ، ووقف التعدي عليها بالإفساد والتغيير ، وهم يرفعون شعار : « كن صديقًا لبيئتك » .

فأولى بنا ثم أولى أن نحمل رسالة (الفطرة) إلى هذا العالم الذي يعاني الشقاء والتعاسة ـ إلا من رحم الله ـ بسبب إفساد الطبيعة الفطرية التي فطر الله الناس عليها ، وأن ندعو كل إنسان إلى أن يكون صديقًا لفطرته ، وكلَّ أبوين إلى أن يفقها هذه الحقيقة ، وأن يحرصا على المحافظة على (فطرة أبنائهم) ، فلا يجنحوا بها بعيدًا عن الإسلام والتوحيد ، كي لا يحملا أوزارهم ، فوالله وبالله وتالله إن هذا البند يجب أن يتصدر بنود وثيقة « حقوق الطفل » لو كانوا يعلمون !

---

(١) «تاريخ الفكر الأوروبي الحديث » ص (٢٠٦) .

(٢) انظر عبارة « باستا لوتزي » هامش ص (١٢٨) .

فصل: شهادة العلم الحديث
جين الإيمان شاهدٌ من أهلها

من فضل الله ورحمته أن غرس فطرة الإسلام والتوحيد في أعماق كل نفس بشرية منذ ولادتها ؛ لأن هذه الغريزة الإيمانية تشده نحو الإيمان بالرسل ، وتُسَهِّل عليه الانقيادَ لنور الوحي ، وتؤزه أزًّا على الإسلام لله وحده ، والطاعة لشرعه ، والاستقامة على صراطه المستقيم .

ومما يُستأنس به في توكيد هذه الحقيقة أن العلم الحديث بدأ يقترب [١] من اكتشافها عبر علم الجينات (Genetics) [٢] وعبر علمٍ أخصَّ منه يُسمى (Neuro Theology) وهو مجال حديث يستهدف اكتشاف وفهم العلاقة بين المخ والأمور الإلهية أو الروحانية .

١ – لقد بدأ بالفعل الحديث حول « جين الإيمان » وأصدر (دين هامر Dean H. Hamer) أخصائي علم الأحياء الأمريكي بالمعاهد القومية بولاية ميريلاند كتابه :

---

(١) لأن هذه البحوث ـ حتى الآن ـ تتعلق بالتدين عمومًا ، وعقيدتنا تختص بالتدين بالإسلام دين الفطرة .

(٢) « الجين » هو المُوَرِّث ، أو (حامل الصفة الوراثية) التي يعطيها للمخلوق الجديد ، وهو يتخلق في بطن أمه . فمن (الجينات) ما يحمل لون الشعر ، أو لون العين ، أو الطول أو القصر ، وغير ذلك مما يجيء عليه الإنسان إلى هذه الحياة الدنيا ، ويتميز به عن إنسان آخر .

ويبلغ عددها (60.000 – 80.000) جين في الخلية الواحدة . وهي محمولة على عناصر أو وحدات تسمى (كروموسومات) وعددها (٢٣) زوجًا في نواة الخلية . ويبلغ طول الخلية عُشْر المليمتر !

وقد استطاع العلم حديثًا ، أن يعرف الخريطة المورثة في الإنسان (الجينوم البشري) ، وفي غيره من الحيوانات . وقد وعد العلماء ، عندما نشروا خبرهم هذا ، أن تمكنهم هذه المعرفة من تخليص الإنسان من كثير من الأمراض ، وتحسين قدراته في المستقبل .

(The God Gene)

How faith is hardwired into our genes ?

وجاء في التعريف بالكتاب : عالَم الجينات يخترق (Cracks) الشفرة وراء كوننا مهيئين للإيمان بالله ، ويسلط الضوء على تأثير جيناتنا على ميلنا إلى الإيمان .

وقد تمكن المؤلف (دين هامر) عالم الجينات الأمريكي من تحديد وعزل الجينات التي يبدو أنها مسؤولة عن السيطرة على مشاعرنا الإيمانية [١] ، وقد سمَّاها : (VMAT2) .

يقول (د. ريموند بارنوود) ، أخصائي علم الوراثة من ميريلاند : « لا يترتب على هذا الأمر (الكشف) ، أن بعض الناس لديهم عقيدة إيمانية ، والبعض الآخر ليس لديهم ، وإنما نحن جميعًا لدينا اعتقاد في وجود قوة مهيمنة . وهو اعتقاد إيماني مبرمج في نظامنا الجيني ، وشفراتنا الوراثية » اهـ .

وهذه الشهادة تكاد تشير إلى : فطرة الله التي فطر الناس عليها !

٢ – ومما صدر أيضًا كتاب : (وُلِدنا لِنُؤمِن Born to Believe) [٢] ألفه :

---

(١) ويشرح (د. دين هامر) طريقته في الكشف عن « جين الإيمان » من خلال تطويره لنظرية « قياس كمي للقيم الروحية والروحانيات » : « يحدد هذا النظام قيمة رقمية للشفافية أو قدرة الناس على ما وراء ذواتهم » . « وبقدر ما يكون الرقم عاليًا ، يكون الإنسان متصالحًا ومتناغمًا مع مفردات الكون من حوله » .

وقام « همر » بتطبيق هذا النظام على توأمين ، لقياس قدراتهم ، ومن ثم معرفة ما إذا كان المتطابقون وراثيًّا لديهم « مستويات سمو ذاتي » متطابقة أو متماثلة .

وما إن تمكن « هامر » من رصد وفرز أعلى الدرجات في « السمو الذاتي » حتى وازنها مع أنماط الحمض النووي (المادة الفاعلة في الجينات) وتمكن من تحديد (جين) وراثي نشط واحد ، يدعو الناس إلى عبادة الخالق ـ جل وعلا ـ ، وسُمِّي (جين الإيمان) وهو يتولى تنظيم مستويات الكيماويات التي تفرز وتدعم الاتصال بين بعض أجزاء المخ ، وانظر صحيفة (الرياض) السعودية بتاريخ (٢٥ من مارس ٢٠٠٥ م) .

(٢) جاء في التعريف به : An emerging discipline dedicated to understanding the complex relationship between spirituality and the brain .

وترجمته : إنه فرع من المعرفة ناشئ ومخصَّص لفهم الصلة المعقدة بين الروحانية والمخ .

(Andrew Newberg and Mark Woldman) .

٣ – وصـدر أيـضًا كتـاب (The God Part Of The Brain) أي : الجزء الإلهي من المخ ، من تأليف (Mathew Alper) يؤكد نفس المعنى [١] .

٤ – وصدر في نفس الموضوع كتاب :

Why God Won't Go Away?

Brain Science and the Biology of Belief

من تأليف : (Andrew Newberg et al) [٢] .

٥ – وفي دراسة علمية أجرتها الباحثة النفسية (لـورا كـوينج) مـن جامعـة (منيسوتا) الأمريكية ، عـلى (٥٤٦) شخـصًا ، مـنهم (١٦٩) زوجًـا مـن التـوائم الحقيقية ، ويمتلكون إرثًا جينيًّا متشابهًا تمامًا و(١٠٤) أزواج من التوائم غير الحقيقيـة ، أي لا يمتلكون إرثًا جينيًّا متشابهًا .. وتم طرح لائحة من الأسـئلة علـيهم لمعرفـة أهمية الدين والتدين في حياتهم (تأدية الـصلوات ، واحـترام الـشعائر الدينيـة .. ، وكيف كان تأثير الدين فيهم في أثناء طفولتهم) فماذا وجدت ؟

ـ وجدت الباحثة أن الـسلوك أو الموقـف كـان متـشابهًا بـين أفـراد التـوائم المتشابهة ، في مرحلة البلوغ ، لكنه لم يكن كذلك بين أفراد التوائم غير المتشابهة .

---

(١) وجاء في التعريف به : (It represents a stunning argument that our brain is hardwired to believe in God).

وترجمته : إنه ـ أي هذا الكتاب ـ يمثل برهانًا مذهلًا على أن عقولنا قد جُبِلت على الإيمان بالله .

(٢) وجاء في التعريف به أنه يؤكد فكرة أن :

The religious impulse is rooted in the biology of the brain.

وترجمته : إن الباعث على التدين متأصل في بيولوجية المخ .

ـ لم تلحظ الباحثة أي اختلاف على كلتا المجموعتين ، في مرحلة الطفولة إزاء مسألة الدين، وهو ما يؤكد وجود قواعد وراثية « جينية » لها علاقة بمسألة التدين ، إلا أن تأثير هذه القواعد يظهر بشكل تدريجي خلال مراحل النمو ، وذلك حينما يتخلص الفرد من تأثير البيئة المحيطة ، والأفكار المتوارثة التي تلقاها في أثناء الطفولة .

وهناك دراسات أخرى تؤكد هذه النتيجة ، وهذا يدل على أن الموضوع ، يلقي اهتمامًا شديدًا في مراكز بحثية كثيرة تقول نتائجها الحقائق المكتشفة نفسها ! [(١)] .

لقد أرادت العالَمانية والليبرالية وغيرهما للعلم الحديث (Science) أن يكون محايدًا إزاء قضية الدين والتدين ، بحيث يتم الفصل دائمًا بين (العلمي) و(الديني) [(٢)] ، وإذا بالحقائق العلمية تترى تؤكد يقينًا أن هذا (العلم) منحاز بكليته إلى الإسلام مصداق قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت : ٥٣] .

---

(١) انظر مجلة (منار الإسلام) عدد شهر نوفمبر ٢٠٠٥ م .

(٢) وهذا يعكس مدى تبعية هؤلاء المسمين بالمثقفين للفكر الغربي الذي خصَّ اسم (العلم) ، و« الطريقة العلمية » بما يُكْتَسَب بالوسائل التجريبية الحسية ، فمِن ثم يفرقون بين « العلم » و« الدين » كأنهما خصمان لا يلتقيان . مع أن الدين الحق ليس قسيمًا مغايرًا للعلم ، بل هو علم عن طريق الوحي ، قال تعالى : ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ ، فما جاءت به طرق الدين اليقينية هو من قبيل « الحقائق » العلمية .

إن طرق إثبات « الحقائق العلمية » في الإسلام هي :

أولًا : المعرفة المباشرة بالإدراك الحسي ، ولو تم إدراكها عن طريق الأجهزة والآلات والأدوات الصناعية والطبيعية .

ثانيًا : الاستدلال العقلي بمختلف طرقه الاستنتاجية والاستنباطية .

ثالثًا : الخبر الصادق ، وهو قسمان ، وكلاهما منحة من الله :

(الأول) : إنساني : يعتمد عليه الناسُ في نقل المعارف والأخبار المختلفة بعضُهم عن بعض .

(والثاني) : الوحي الرباني : الذي يختص الله به رسلَه المؤيدين بالمعجزات .

ومن هنا فلا ينبغي المقابلة بين (العلم) و(الدين) ولكن بين طرق اكتساب العلم : فمن طرق العلم ومصادر المعرفة ما يأتي به الدين عن طريق الوحي ، ومنها ما يكتسب بالوسائل الإنسانية كالحس ، والعقل ، والخبر الصادق .

انظر : « كواشف وزيوف » للميداني ص (١٧٤) وما بعدها .

فِطرِيَّةُ الإِسْلَامِ وَلَيْسَ غَرِيزَةُ التَّدَيُّنِ بِأَيِّ دِينٍ

توارد كلام الباحثين في التأكيد على فطرية التدين ، ورسوخه ، وأصالته في أعماق النفس البشرية .

وأقر علماء الأديان أن « الغريزة الدينية » مشتركة بين كل الأجناس البشرية حتى أشدها همجية وبدائية ، والاستقراء يؤكد أنه وُجدت في التاريخ مُدُن بلا مصانع أو معامل أو مدارس ، ومن غير علوم أو فنون أو فلسفات ؛ لكن لم توجد في تاريخ الإنسانية الطويل مدينة بلا معابد ، ولم توجد جماعة إنسانية بغير ديانة ؛ لأن الدين ظاهرة إنسانية عامة وشاملة ، وحيثما يوجد الناس يسكن الدين [(١)] .

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز ـ رحمه الله ـ :

« الفكرة الدينية تعبر عن حاجات النفس الإنسانية في مختلف ملكاتها ومظاهرها ، حتى أنه كما صح أن يُعرَّف الإنسان بأنه حيوان مُفَكِّر ، أو أنه حيوان مَدَني بطبعه ، يسوغ لنا كذلك أن نُعرفه بأنه حيوان متدين بفطرته » [(٢)] .

ومِن الفلاسفة العقليين مَن جعل الفطرةَ مجموعةَ غرائزَ تقوم بالنفس البشرية يشترك فيها أجناس البشر ، يعمل الفرد على إشباعها حسب بيئته وثقافته ، وغاية هذه الغريزة التوجه إلى الله ، وإشباعها يتم باعتناق (إحدى) الديانات التي تتطور بتطور البشرية ، وتتجاوب مع درجة الثقافة العقلية [(٣)] .

---

(١) انظر : « الدين » للدكتور / محمد عبد الله دراز ـ رحمه الله ـ ص (٧٥ ، ٧٦) .
(٢) « الدين » ص (٩١) ، وانظر : « موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين » للشيخ مصطفى صبري (٢/ ١٤) .
(٣) « الفطرة » للدكتور / علي القرني ص (٤٣٠) .

وجاء في معجم « لاروس » : « إن الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية ، حتى أشدها همجية وأقربها إلى الحياة الحيوانية ، وإن الاهتمام بالمعنى الإلهي وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية » [(١)] .

ويقول « أوجست ساباتييه » في كتابه « فلسفة الأديان » : « لماذا أنا متدين ؟ إني لم أحرك شفتي بهذا السؤال مرة إلا وأراني مسوقًا للإجابة عليه بهذا الجواب ، وهو : (أنا متدين ، لأني لا أستطيع خلاف ذلك) ، لأن التدين لازم معنوي من لوازم ذاتي ، يقولون لي : ذلك أثر من آثار الوراثة أو التربية أو المزاج ، فأقول لهم : قد اعترضتُ على نفسي كثيرًا بهذا الاعتراض نفسِه ، ولكني وجدته يُعَقِّد المسألة ولا يحلها » [(٢)] .

وقال الشاعر محمد إقبال :

إذا الإيمانُ ضاع فلا أمانَ ... ولا دنيا لمن لم يُحْيِ دِينا

ومن رَضِيَ الحياةَ بغيرِ دينٍ ... فقد جعل الفناءَ لها قرينا

إن الإشادة بنزوع الإنسان إلى التدين ليست مما يُفرح به ؛ لأنه تحصيلُ حاصل ، ومجردُ رصدٍ لواقع البشر قبل طروء الإلحاد على بعضهم ، لكنه يتناول القضية بمعزل عن حقيقة الفطرة التي أخبر الله ـ عز وجل ـ أنه فطر الناس عليها .

إن النزعة « الفطرية » الدينية أبعد مدى من « الغريزة » الدينية التي يتكلم عنها علماء الاجتماع ؛ لأن مفهوم تلك الغريزة عندهم لا يتجاوز الاهتمام بالمعنى الإلهي ، وبما فوق الطبيعة ، والتأمل في المسائل والقضايا الميتافيزيقية الكبرى ، ومحاولة البحث عن إجابات مقنعة لها ، أما الفطرة التي فطر الله الخَلْقَ عليها ، فلا تشبع أو ترتوي إلا باعتناق الدين الحق الذي يجد فيه العقل الإجابة الشافية عن جميع تساؤلاته الحائرة .

---

(١) « بحوث في الثقافة الإسلامية » ص (٣٩) .

(٢) « نفسه » ص (٣٨) .

ومن هذا المنطلق فقد عدَّ الإسلام اعتناق الأديان الأخرى ـ حتى لو كانت ذات أصل سماوي طرأ عليه التحريف والتبديل ـ خسرانًا وضلالًا ، فقال ـ سبحانه وتعالى ـ : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٨٥] ، كما اعتبر ذلك خروجًا وانحرافًا عن الفطرة السوية ، فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « **ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء ؟** » [(١)] .

فمِن ثَمَّ يجب أن لا نتسامح مع تعميم الكلام على النزعة الدينية المطلقة المبهمة ، حيث يُمتدَح التدين ولو كان بأديان محرفة أو وثنية ، فإن في هذا عدوانًا على الحقيقة ، وتشويشًا على مفهوم الإيمان ، وجناية على البشرية نفسها ، لأنه يُمَوِّه على الناس الطريق الوحيد لنجاتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة ألا وهو دين الفطرة ، وملة إبراهيم ، ودعوة موسى وعيسى ومحمد وسائر أنبياء الله ورسله ـ عليهم جميعًا الصلاة والسلام ـ .

(١) انظر : « مناهج الاستدلال على مسائل العقيدة الإسلامية » للدكتور / أحمد قوشتي ص (٣٣٧) ، و« الكلمة المقدسة » للمؤلف ص (١٤٥ – ١٥٨) ، و« نظرة في تاريخ العقيدة » له أيضًا .

فصل: شهادة الواقع

تزخر قصص المهتدين إلى الإسلام العائدين إلى فطرتهم التي فطرهم الله عليها، بالكم الوفير من الإقرار بحقيقة (الفطرة)، ولطالما عبَّروا عن هذه الحقيقة الواحدة بألفاظ متباينة متعددة لكنها كلَّها تلتقي في المعنى نفسه.

فكم من تائب شرح الله صدره للإسلام يبادر من يدعوه إلى الله والتوحيد بقوله: «هذا شيء عجيب، إن هذا هو ما كنت أعتقده طول عمري».

ولو ذهبنا نستقصي قصصهم هنا لطال الحديث، ولكن يكفي في مقامنا هذا (الطلُّ) بدل (الوابل).

ـ تقول الكاتبة والشاعرة الأمريكية (إيفيلين كوبلد):

«يغلب على ظني أنني مسلمة منذ نشأتي الأولى، فالإسلام دين الطبيعة الذي يتقبله المرء فيما لو تُرِك لنفسه»[(١)].

ـ وتقول (ماري أوليفر):

«أعظم فضيلة للإسلام أنه يأسر قلوب البشر بصورة تلقائية، ومن أجل هذا تجد في الإسلام سحرًا غريبًا وجاذبية عظيمة تجتذب إليها ذوي العقليات المتفتحة من غير المسلمين» اهـ.[(٢)].

ـ وتقول (فاطمة تزُفسكن):

«لقد بدا لي وأنا أتلو كتاب الله، أن الإسلام وحده هو الطريق الذي علمه الله للناس منذ بدء الخليقة، وأنه هو الحق»[(٣)].

---

(١) «لماذا يسلمون؟» ص (١٥).

(٢) «رجال ونساء أسلموا» (٤/ ١٤٢).

(٣) «نفسه» (٢/ ٩٩).

ـ ويقول (بنوا) :

« اتضح لي أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي يتمشى مع الفطرة الإنسانية » [١] .

ـ ويقول (عامر علي داود) :

« بفضل دراستي الحرة البعيدة عن كل تعصب مقيت ، أصبح إيماني بهذا الدين ـ الإسلام ـ قويًّا راسخًا . لقد آمنت برسالة القرآن ، وأحسست أن الإسلام هو دين الفطرة والكمال ، أنزل الله على قلب آخر الأنبياء وخاتمهم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، لقد اكتشفت أن الإسلام يخاطب الناس مباشرة ودون أية واسطة من أي نوع . من أجل ذلك كان هذا الدين متمشيًا مع الفطرة البشرية » [٢] .

ـ أما المفكر الإنكليزي أبو بكر سراج الدين (مارتن لِنجز سابقًا) فقد خاض بحار البحث في الديانات المنتشرة في العالم ، حتى استوقفه دين الإسلام ، فوجده يتفق مع فطرته ، وذكر أنه وجد فيه ذاته ، وشعر بأنه إنسان لأول مرة ! ثم قال بيقين المؤمن : « شاء الله أن أكون مسلمًا ، وعندما يشاء الله فلا رادَّ لقضائه ، وهذا هو سبب إسلامي أولًا وقبل كل شيء » [٣] .

وقال رجل هندوسي أسلم : « إن أول شيء جذبني إلى الإسلام هو البساطة والوضوح ، إن العديد من الديانات تتسم بالغموض والطقوس الغريبة التي لا تتمشى مع الفطرة السليمة التي فطر الله الإنسان عليها » [٤] .

ـ أما الفتى الأمريكي (ألكسندر فريتز) فقد قررت والدته أن تتركه حُرًّا ليختار دينه بنفسه بعيدًا عن التأثيرات العائلية أو الاجتماعية ، فأحضرت له

---

(١) « نفسه » (٦/ ٩) .

(٢) « نفسه » (٧/ ١١٨) .

(٣) « لماذا يسلمون ؟ » ص (١٥) .

(٤) « نفسه » ص (١٥) .

مجموعة كتب في الأديان السماوية [١] ، وبعد أن قرأها كلَّها قرَّر أن يُسلم لله بدون أن يلتقي بمسلمٍ واحدٍ ، وتعلَّم الصلاةَ بنفسه ، وحفظ بعض السور القرآنية ، وتعلم الأذان ، واختار لنفسه اسم (محمد عبد الله) تيمنًا باسم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وعندما سئل عن سبب إسلامه قال : « لا أدري ، كل ما أعرفه أنني قرأتُ عن الإسلام ، وكلما ازدادت قراءتي له ازددتُ له حبًّا » .

ـ وهذا فتى قبطي نصراني راهق البلوغ ، وكان أبوه قد تراخى في تعميده أو (تغطيسه) ، فاصطحبه إلى الكنيسة ليُعَمَّد ، فلما رآه القسيس راعه هيئته ووبَّخ أباه لتأخره هذه المدة ، وسوَّغ هذا التوبيخ بأن قال له : « ألا تعلم أنه حتى الآن مسلم ؟ » فالتقطتها أذن الفتى اليافع ، وظلت العبارة تتردد في أعماقه بإلحاح ، وهو يقول لنفسه : « لو كان هناك دين أفضل من الإسلام لفطرني الله عليه ، فبما أنه فطرة الله وصنعته ؛ فلابد أن يكون هو دين الحق » .

وكانت الجملة التي نطق بها القسيس هي الخيط الأول الذي نسج قصة اعتناقه الإسلام فيما بعد .

ألا رحم الله مَن قال :

« قد يستطيع أعداء الله أن يسدوا كل ثغرة يمكن أن تهديَ الناسَ إلى دين الله ، إلا ثغرة واحدة هي الفطرة الخالصة » .

ورحم الله الأستاذ محمد فريد وجدي الذي قال يومًا :

« إن الناس لو أدركوا معنى الإسلام ، وفقهوا ما يرمي إليه ؛ ما بقي على وجه الأرض من لا يعتنقه أو يدين بدين آخر » [٢] .

---

(١) لا يصح إطلاق عبارة « الأديان السماوية » بصيغة الجمع ؛ لأن السماء لم ينزل منها إلا دين واحد وهو الإسلام دعا إليه جميع الأنبياء والمرسلين ، انظر : « الكلمة المقدسة » ص (١٥٥) .

(٢) « الإسلام في عصر العلم » ص (٤٩٩) .

وصدق الله العظيم القائل في محكم كتابه العزيز : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : ٣٠] .

﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٨] .

حَلُّ اللُّغـزِ

« الإسلام أسرع الأديان انتشارًا في العالم » .

حقيقة متواترة على لسان « شهود من أهلها » ، فقـد صرحـت بهـا الجريـدة الرسمية للفاتيكان ، ووزارة الدفاع الأمريكية ، وشبكة CNN ، ومركز الأبحاث الاجتماعية في جامعة ولاية جورجيا ، ومركز بيو للإحصاء ، وموسوعة ويكيبديا ، ومعهد Gate Stone البريطاني ، وموسوعة Guiness للأرقام القياسية .

وفي قلب أوروبا بدأت أعداد المساجد تنـافس أعـداد الكنـائس في كـل مـن باريس وروما ولندن ، وأصبحت نسخ ترجمة معاني القرآن الكريم من أكثر الكتب مَبيعًا في الأسواق الأمريكية والغربية ، وهنـاك طفـرة في أعـداد المـساجين الـذين يعتنقون الإسلام هناك بصورة لافتة للنظر .

وصار الإسلام ثانيَ أكبر ديانة في بريطانيا ، وبحسب معدلات النمو الحاليـة فإن عدد المسلمين سيتضاعف مجددًا ـ إن شاء الله ـ مع التعداد الـسكاني القـادم في ٢٠٢١ م ، وسيشكلون وقتها (١٠ ٪) من السكان في بريطانيا .

ويقول البروفيسور (لورانس ماميا) أستاذ الأديان بكلية فاسار :

« إن الإسلام سيحكم العالم قريبًا لاسيما وأن نصف مساجد دولة كبريطانيـا كانت في الأساس كنائس ودور رعاية مسيحية تَحَوَّل شعبُها إلى الإسلام » .

وفي خلال عشر سنين سيكون في بلجيكا طفل مسلم بين كل ثلاثة أطفال .

وفي فرنسا ينتشر الإسلام حتى في قطاع السجون مما جعـل الإسـلام الـدين الثاني هناك .

وبدأ الغربيون يجترون نبوءة الأديب الإنكليزي (جورج برنارد شو) :

« إني أتنبأ بأن الناس سيُقبلون على دين محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أوروبا في المستقبل ، وقد بدأ يلقي القبول في أوروبا اليوم » .

وقامت في أوروبا ـ بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر بأمريكا ـ حركة « أوقفوا أسلمة أوروبا Stop Islamization » ، وتظاهر أنصارها في عدة عواصم أوروبية تطالب بالتصدي لتزايد عدد المسلمين في أوروبا الذي تجاوز العشرين مليونًا ، ووقفِ بناء المساجد ، ورفضِ الشريعة الإسلامية في أوروبا .

ونشرت صحيفة (تايمز) البريطانية في (١٣/ ١١/ ٢٠٠٦ م) أن القس المتقاعد « رونالد ويزلبرج » (٧٣ سنة) انتحر بحرق نفسه في دير « أوجستين » في مدينة « أيرفيرت » الألمانية احتجاجًا على انتشار الإسلام ، وعجزِ الكنيسة البروتستانتية عن احتوائه ، حيث صب البنزين على رأسه ، وأضرم النار فيها ، ونقلت الصحيفة عن أرملة القس أن زوجها انتحر بسبب ذعره من انتشار الإسلام ، وموقف الكنيسة من تلك القضية .

إن هذه الإحصاءات والشواهد تثير سؤالًا بل لغزًا :

كيف يكون الإسلام أسرع الأديان انتشارًا في العالم :

ـ والأمة الإسلامية في حال من الضعف والوهن ، ولا تؤدي واجب تبليغ الإسلام كما أمرها الله تعالى ، والمسلمون مضطهدون مستضعفون في بلادهم في كثير من أقطارهم ؟ وبعض المسلمين الذين يعيشون في بلاد غير إسلامية لا يعكس سلوكُهم الصورة الحقيقية للإسلام التي تجذب أهل هذه البلاد إليه ؟

ـ وعلى الجهة الأخرى نجد نشاطًا تنصيريًّا محمومًا تُنفَق فيه المليارات للترويج لملة التثليث ، وتقف وراءه دول ومنظمات ومؤسسات ، تنتشر في آفاق

الدنيا لاسيما في أفريقيا وآسيا وهي ترفع شعار « يسوع مقابل الغذاء » كشرط للعطاء .

ـ وتأتي (الإسلاموفوبيا) لتُرهب الناس من الإسلام ، وتصدهم عن سبيل الله ، وتبغيه عِوَجًا من خلال رصيد متراكم من الحقد والكذب والخُواف المرضي ، من خلال آلة إعلامية مغرضة لا تشم رائحة الإنصاف .

ـ ثم تأتي الإجراءات « القانونية » الصارمة كتنفيس عن شعور قادتهم ونُخَبهم بالعجز إزاء هذه الظاهرة ، وكمحاولة أخيرة يائسة لتنفير الناس عن الإسلام ، عسى أن تفلح قبضة القوانين في حجب نور الشمس الذي يمتد في آفاق الدنيا ، كقانون منع النقاب في فرنسا ، وقانون منع بناء المآذن [(١)] في سويسرا ، وغير ذلك .

يحاول الكثيرون حل هذا « اللغز » عن طريق تعداد محاسن الإسلام : عقيدتِه ، وشريعته ، وأخلاقه ، وهذا حق بلا ريب ، لكن الكثيرين أيضًا لا يلتفتون إلى « السر » الكامن وراء هذه الظاهرة ، والذي يمكن تلخيصه في عبارة « قابلية المحل » ، إنه ـ إن جاز التعبير ـ العميل السري المزروع داخل قلوب البشر منذ لحظة ولادة كل منهم ، إنه « عميل » منحاز إلى الإسلام ، كأنه جهاز استقبال ضُبط ليستقبل موجة هذا الدين الحنيف فقط لا غير ، وبقدر ما يبقى سليمًا من التحريف والعطب والتشويش والفساد الذي قد يطرأ عليه من تأثير البيئة التربوية ـ بقدر ما يكون انجذابه نحو هذا الدين ، وبقدر الرصيد المتبقي منه في كيان الإنسان يكون انجذابه إلى الإسلام ، وبقدر نفاد هذا الرصيد يكون نفوره وتنفيره من الإسلام .

إنه : ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم : ٣٠] .

---

(١) الذي صدر في نوفمبر ٢٠٠٩ م عقب استفتاء شعبي ، علمًا بأن عدد المآذن في سويسرا كلها أربع مآذن واحدة في كل من (جينيف) ، و(زيوريخ) ، و(فنتور) و(ونغن) فقط لا غير .

العَوْدَةُ إلى الفِطرة مِيلادٌ جَدِيدٌ [(١)]

إن الكفر معناه التغطية ؛ لأنه يغطي الخير الأصيل المتمثل في الفطرة ، فلو رُفع الغطاء ، وشهد الإنسان شهادة التوحيد ؛ عاد إلى فطرته الأصلية .

إن شهادة أن « لا إله إلا الله » شهادة ميلاد روحي ونفسي ووجداني وفكري وسلوكي ومنهجي جديد ، وبنطقها لا تتبدل فقط خانة الديانة في بطاقة الهوية ، لكن يُصاغ به الإنسان صياغة جديدة ، ويعاد ترتيب دولاب حياته من جديد .

وبشهادة أن « لا إله إلا الله » تتبدل المشاعر من أقصى طرف البغض والعداوة إلى أعلى درجات الحب والولاء .

وما أكثر الذين تحقق فيهم هذا التحول المدهش من لدن عصر الرعيل الأول حتى يومنا هذا !

لقد حدث هذا على مستوى الأمم حيث أسلمت أمم بكاملها لله ـ تعالى ـ ، وما حديث أمة (التتار) عنا ببعيد ، إذ هي أمة غالبة قاهرة تُخضعها ديانة الأمة المغلوبة فتعتنق عقيدتَها ، وترفع رايتها ، وتولد من جديد .

وحدث على مستوى الأفراد ، بحيث صار من الأخبار المألوفة منذ قرون حتى اليوم أن شخصًا يُشار إليه بالبنان في محاربته للإسلام وصده عن سبيل الله بكل ما أوتي من قوة ؛ يتحول بقدرة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ واصطفائه إلى جندي مجاهد ، وداعية مجالد ، يذب عن دين الله آناء الليل وأطراف النهار، وكأنه يكفِّر عما اقترف من تشويه للدين ومحاربة للتوحيد .

---

(١) انظر : « الكلمة المقدسة » للمؤلف ص (٣٠٣ – ٣٠٥) .

تقول (ديبورا بوتر) [١] :

« إن الناس في أوروبا وأمريكا يقبلون على اعتناق الإسلام بأعداد كبيرة .. لكن دون إجبار من أحد ، بل لأنهم متعطشون للراحة النفسية والاطمئنان الروحي الذي يقدمه لهم الإسلام ، حتى أن كثيرًا من المستشرقين والمبشرين النصارى الذين بدؤوا حملتهم مصممين على القضاء على الإسلام وإظهار عيوبه المزعومة ، أصبحوا هم أنفسهم مسلمين ، وما ذلك إلا لأن الحق حجته دامغة ، لا سبيل إلى إنكارها » [٢] .

إن قصص هداية ـ مَن أرادوا قهر الإسلام فقهرهم الإسلام بنوره ، ومنحهم هدايته فوُلدوا به ولادةً جديدة ـ تحوي كثيرًا من الفصول المشرقة ، قال الأستاذ عرفات العشي : « سبحان الله ! كم من خصمٍ لدودٍ للإسلام يناصبه العداء ، ويتآمر ضده ، ويكيد له أعظم الكيد ، ثم يتحول بإرادة ربانية سماوية إلى داعية مخلص للإسلام ، ولا يقتصر ذلك على زماننا ، فبدءًا بعمر بن الخطاب الذي كان ألد أعداء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والذي كان يريد قتل هذا النبي ، ثم أسلم فأصبح الفاروق عمر الذي ملأ الدنيا عدلًا وسعادة ، ومرورًا بآل أبي سفيان وزوجه هند آكلة الأكباد ، والتي دفعت ثمنًا باهظًا لقتل سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب أسدِ الله وأسدِ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، والتي كانت تقول للرسول بعد أن أسلمت : « والله ما كان هناك بيت أبغض إلينا من بيتك ، وها نحن الآن والله ما من بيت أحب إلينا من بيتك » ، وعلى مر العصور يحوِّل الله مَن

---

(١) فتاة أمريكية من مدينة « ترافيرز » بولاية متشجن ، ومتخصصة في « الصحافة » ، وقد تزوجت الداعية الإسلامي الفلسطيني الأستاذ محمد الحانوتي المتفرغ للدعوة الإسلامية في أمريكا ، ثم اعتنقت الإسلام بعد الزواج في عام (١٩٨٠ م) ، انظر قصة إسلامها مفصَّلة في كتاب : « رجال ونساء أسلموا » للأستاذ عرفات كامل العشي (٨/ ٩٦ – ١١٦) .

(٢) « رجال ونساء أسلموا » (٨/ ١١٤) .

شاءَ مِن عباده من المحاولة لهدم هذا الدين والإجهاز عليه إلى التضحية بالروح والنفس والنفيس للذود عنه » اهـ [١] .

ومن أمثلة هذه (الولادة الجديدة) التي يتبدل بسببها الأفكار والوجدان والمشاعر قصة ذلك الرجل الهندوسي (شايف برازاد) الذي كان قد كُلِّف بقيادة وتدريب أربعة آلاف رجل لهدم المسجد البابري في الهند ، وقد حدث ذلك فعليًّا في ٢١ من جمادى الآخرة ١٤١٣ هـ (الموافق ١٦ من ديسمبر ١٩٩٢ م) ، وهو الحادث الذي تزلزل له العالم الإسلامي كله .

لقد قام (شايف برازاد) مع المجموعة الهائجة التي تسلقت مئذنة المسجد المهيبة وهَدَمَتْها ، وأخذ يصيح : « رام ، رام » [٢] ..

وبعد مرور سبع سنوات على هذه الجريمة أحس بأنه قام بعمل فظيع ، وأخذ يلتمس من الله الغفران .

ثم انتقل إلى الشارقة بحثًا عن عمل ، وبالفعل التحق بعمل مناسب لكن القلق لم يفارقه ، وعانى من تأنيب الضمير وبقي منطويًا على نفسه حزينًا .

وذات مرة كان يمر بمسجدٍ ينطلق منه صوتُ خطبة باللغة الهندية ، فشعر بأنها شيء جديد متميز ، فأصغى بسمعه إليها ، وظل يواظب على استماع تلك الخطب ، حتى انتهى الأمر باعتناقه الإسلام ، واختفى من وجوه أفراد أسرته ، وتلقى تهديدات من قِبَل الحزب الهندوسي ، وهو الآن يطمح أن يصبح داعيًا مؤهلًا للدعوة إلى الإسلام ، وقد جاء في آخر ترجمته ما يُشعر بأنه قال : « إن اليد التي هدمت المسجد البابري هي نفسها التي ستعيد بناءه من جديد » [٣] .

---

(١) « نفسه » ص (٧٨) .

(٢) و« رام » هو اسم إلههم المزعوم ، الذي ادَّعَوْا أن المسجد قد بُني في موضع ولادته !!

(٣) « لماذا يُسلمون ؟ » للأستاذ محمد خير يوسف ص (٥٢ ، ٥٣) .

الفصل السادس

استثمار الفطرة في الخطاب الدعوي

الفصل السادس:
استثمار الفطرة في الخطاب الدعوي

نحن المسلمين أصدقاء الفطرة ، « نعتمد على سلامتها ، ونرد المنحرفين إليها ، وحينما نعرض الإسلام على الناس إلى آخر الدهر ، فمن أبرز ما يعيننا على نشر عقائده وقواعده مواثيقُ الفطرة التي أخذها الله على الناس من ظهور بني آدم » [(١)] .

ويكتسب موضوع « **استثمار** » هذه الفطرة في الخطاب الدعوي أهمية خاصة بسبب أنَّ تذكير الناس بأصل فطرتهم كان من وظائف الأنبياء عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام [(٢)] ، و « منهاج النبوة » يقتضي تأسيَ الدعاة بهم ، بأن يُقبلوا على المدعوِّين بتفاؤل وأمل ، ويوجهوا إليهم خطابهم الدعوي وهم على ثقة أن قلب المدعوِّ خُلِق مجهزًا بالفطرية التي تستقبل موجة (التوحيد) ، وترحب بها ، وتحتضنها ، وتندمج معها ، وتذوب فيها .

لقد ركَّز القرآن الكريم في خطابه على **الدليل الفطري** المتميز بالسهولة واليسر ، ووضوح الدلالة ، والوصول إلى الحقيقة من أقصر الطرق بدون عنت ولا مشقة ، لأنه يُستقى من داخل النفس ، ويتناسق معها ، ولأنه دليل يقيني قليل المقدمات ، مبني على أمور بدهية لا تشك فيها النفس ، وهي تقنع القلب والعقل معًا دون إجحاف بواحد منهما .

إن من المآخذ على المنهج الكلامي في عرض قضايا العقيدة اهتمامَه بجانب العقل فقط مع إهمال الأبعاد الأخرى في النفس البشرية الروحية والوجدانية .

---

(١) « تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل » ص (٣٢) للشيخ محمد الغزالي ـ رحمه الله ـ .

(٢) راجع ص (٥٦) .

ولقد أهملت كتبُ علم الكلام الفطرةَ مع كونها من أهم مداخل النفس لترسيخ العقيدة ، وذهب جمهور المتكلمين إلى أن معرفة الله ـ تعالى ـ ليست فطرية ضرورية ، وإنما هي نظرية يكتسبها الإنسان عن طريق النظر إلى مخلوقات الله تعالى ، وجعلوا لتلك المعرفة أدلة عقلية لا تحصل إلا بها ، وأوجبوها على الخَلْقِ .

وهذا المنهج الكلامي مخالف لأسلوب القرآن الكريم ، ومصادم لمنهاج النبوة ، ومنحرف عن منهج السلف الصالح [١] .

إن معرفة الله تعالى ليست نتيجة معادلات رياضية أو فيزيائية ، لكنها استجابة للنداء الداخلي في الإنسان ، لأنها جزء من كيانه ، وعلاقته بهذه المعرفة ليست علاقة عقلية ، وإنما هي وجدان داخلي ملتصق بالنفس ، وإن منبع اليقين بالله تعالى هو هذه المشاهدة الوجدانية الداخلية التي هي ـ قطعًا ـ أعلى من التصديق العقلي .

فينبغي ـ عند عرض حقائق الإسلام على المكلفين ، وبخاصة حقائقه العقدية ـ أن نستثمر هذه الفطرة المغروسة في كيان كل واحدٍ منهم ، إذ إن هذه الحقائق مطابقة لفطرة الإنسان ومتجاوبة معها ، ولا تتنافر أو تتعارض مع أيٍّ من ثوابتها ، ومن الضروري أن تُرَاعَى هذه الفطرة عند صياغة المسائل العقدية أو في أسلوب عرضها ، بعيدًا عن الطرق الكلامية الصعبة والمعقدة التي لا تتناسب مع عقول العامة وكثير من الخاصة .

❁ ❁ ❁

(١) انظر : « النطق بالشهادتين أول واجب على المكلفين » للمؤلف .

فِطرِيَّةُ الخطابِ القُرآنيِّ

لقد عُني القرآن الكريم عنايـةً عظيمـة بمخاطبـة الفطـرة ، وسَـوْقِ الأدلـة والبراهين المعتمدة عليها في تأسيس الاعتقاد ، وتهيئة نفس الإنسان لغرس الإيمان واليقين ، ولم يعول على المسالك التي اتخذتها الفلسفة وعلم الكلام ـ بكل مـا فيهـا من تعرجات واضطرابات ـ مدخلًا لهدايـة النفـوس البـشرية ؛ « لأن الله سـبحانه يعلم أن هذا الأسلوب لا يصل إلى القلوب ، ولا يتجـاوز منطقـة الـذهن البـاردة التي لا تدفع إلى الحركة ، ولا تـؤدي إلى بنـاء حيـاة »[(١)] ، وإنـما اتجـه مبـاشرة إلى الفطرة بما فيها من مقدمات صادقة بدهية ، فعرض عليها حقائق الوجود وقـضايا الاعتقاد وأصول الإيمان من خلال أدلة معتمدة على تلك المقدمات البدهية .

« إن المنهج القرآني في التعريف بحقيقة الألوهية يجعل الكون والحياة معرضًا رائعًا تتجلى فيـه هـذه الحقيقـة .. تـتجلى فيـه بآثارهـا الفاعلـة ، وتمـلأ بوجودهـا وحضورها جوانب الكينونة الإنسانية المدركة .. إن هذا المـنهج لا يجعـل (وجـود الله) سبحانه قضية يجادل عنها . فالوجود الإلهي يفعم القلب البشري ـ من خـلال الرؤية القرآنية والمشاهدة الواقعية على السواء ـ بحيث لا يبقى هنالك مجـال للجـدل حوله . إنما يتجه المنهج القرآني مباشرة إلى الحديث عن آثار هذا الوجود في الكـون كله ، وإلى الحديث عن مقتضياته كذلك في الضمير البشري والحياة البشرية .

والمنهج القرآني في اتباعـه لهـذه الخطـة إنـما يعتمـد عـلى حقيقـة أساسـية في التكوين البشري . فالله هو الذي خلق ، وهو أعلم بمن خلق : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦] .. والفطرة البشرية بها حاجـة ذاتيـة إلى التـدين ،

---

(١) « في ظلال القرآن » (٣/ ١٧٦٦) .

وإلى الاعتقاد بإله . بل إنها حين تصح وتستقيم تجد في أعماقها اتجاهًا إلى إله واحد ، وإحساسًا قويًّا بوجود هذا الإله الواحد . ووظيفة العقيدة الصحيحة ليست هي إنشاء هذا الشعور بالحاجة إلى إله والتوجه إليه ، فهذا مركوز في الفطرة . ولكن وظيفتها هي تصحيح تصور الإنسان لإلهه ، وتعريفه بالإله الحق الذي لا إله غيره . تعريفه بحقيقته وصفاته ، لا تعريفه بوجوده وإثباته . ثم تعريفه بمقتضيات الألوهية في حياته ـ وهي الربوبية والقوامة والحاكمية ـ والشك في حقيقة الوجود الإلهي أو إنكاره هو بذاته دليل قاطع على اختلال بيِّن في الكينونة البشرية ، وعلى تعطل أجهزة الاستقبال والاستجابة الفطرية فيها . وهذا التعطل لا يعالج ـ إذن ـ بالجدل . وليس هذا هو طريق العلاج !

إن هذا الكون، كون مؤمن مسلم ، يعرف بارئه ويخضع له ، ويسبح بحمده كل شيء فيه وكل حي ـ عدا بعض الأناسي ! ـ و (الإنسان) يعيش في هذا الكون الذي تتجاوب جنباته بأصداء الإيمان والإسلام ، وأصداء التسبيح والسجود . وذرات كيانه ذاته وخلاياه تشارك في هذه الأصداء ، وتخضع في حركتها الطبيعية الفطرية للنواميس التي قدرها الله . فالكائن الذي لا تستشعر فطرته هذه الأصداء كلها ؛ ولا تحس إيقاع النواميس الإلهية فيها هي ذاتها ، ولا تلتقط أجهزته الفطرية تلك الموجات الكونية ، كائن معطلة فيه أجهزة الاستقبال والاستجابة الفطرية . ومن ثم لا يكون هنالك سبيل إلى قلبه وعقله بالجدل ، إنما يكون السبيل إلى علاجه هو محاولة تنبيه أجهزة الاستقبال والاستجابة فيه ، واستجاشة كوامن الفطرة في كيانه ، لعلها تتحرك ، وتأخذ في العمل من جديد » [(١)] .

---

(١) « نفس المرجع » (٣/ ١٨٢٣) .

« إن القرآن الكريم يرشد الفطرة التي لم تتغير ، حتى تنشأ سليمة كما خُلِقَتْ ، ويُصلح الفطرةَ التي تغيرت ، بتذكيرها وتنبيهها لمواطن انحرافها وتغيرها .

الفطرة السليمة تحتاج إلى من يُؤمِّن لها طريقَ السير الصحيح ، والفطرة المتغيرة تحتاج قبل هذا إلى من يردها إلى الطريق الصحيح ، ثم يُؤمِّن سيرها فيه ، وهذا الذي تقوم به آيات القرآن الكريم .

وقد شبه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ تغيير الفطرة بعد خروجها مع المولود سليمة ، بتغيير البهيمة بعد ولادتها سليمة ، ليكون هذا التشبيه مثالًا يقرِّب إلى الذهن ما تحتاجه الفطرة السليمة ، وما تحتاجه المتغيرة .

فالقرآن الكريم يحرص ألا تتغير الفطرة ، وتبقى على سلامتها ، في الوقت الذي يدعو الفطرة التي انحرفت أن تعود إلى طريق السلامة ، وفي هذا السبيل نجد آياته تُذَكِّر الفطرة بأصل ما فيها قبل أن تتغير .

فأول ما تُذكر به الآيات هذه الفطرة ، معرفةُ الله وتوحيده ، وهذا معروف للفطرة معرفة عامة ، وهذه المعرفة العامة تجعل الفطرة مهيأة لقبول التفصيلات ، وبما أن أدوات تلقي هذه التفصيلات موجودة ، وهي : السمع والبصر والفؤاد ؛ فإن الآيات تقوم بعرض هذه التفصيلات مع التذكير المستمر بأنها فروع لهذا الأصل المركوز في الفطرة ، فتجد الفطرةُ نفسها منقادة لما ذكَّرها به القرآن الكريم ، أكثر مما هي منقادة لضده .

ويمكن تشبيه هذا الذي يتم في الفطرة عندما يذكرها القرآن بتفصيلات ما هو موجود بالأصل فيها ، بالطفل الذي يُولَد مهديًّا للارتضاع ، ومزودًا بآلة الرضاع فإذا كان الثدي ، وقُرب إليه ، ولم يحصل مانع ، حصل الارتضاع قطعًا .

القرآن الكريم يذكي ما في الفطرة ، أنه يدعوها إلى شيء لم يكن موجودًا فيها ، ولهذا وصف الله سبحانه كتابه بقوله : ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩] ، وقال عز وجل : ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧] ، وقال لنبيِّه الذي جاء بهذا القرآن : ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ٢١] ، ومن تأمل ما جاء به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من عقائد وشرائع ، لم يجد إلا تصديقًا بحق ، وتكذيبًا بباطل ، وأمرًا بمعروف ونهيًا عن منكر ، وتحليل طيب وتحريم خبيث ، وأمرًا بعدل ونهيًا عن ظلم ، وأصول هذه الأمور موجودة في فطرة كل إنسان ، لكن تفصيلاتها هي التي تحتاج إلى الوحي والرسالة ، والانحراف عنها ـ التنصر والتهود والتمجس ـ متوقف على الموانع الخارجية .

هذه هي الخاصية الأولى للمنهج القرآني ، وهي خاصية واضحة في آيات الأنفس ، فإن هذه الآيات إنما جاءت في القرآن تُذَكِّر ، ولذلك نجد الأمر بعد كل مجموعة من هذه الآيات يتوجه إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن **يُذكر** بهذه الآيات .

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الأعلى: ١ – ٩] .

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ١٧ – ٢١] .

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْىدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ۝٤٨ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧ – ٤٩] .

هذا التذكير القرآني تقف منه الفطرة السليمة موقف المتيقظ المستجيب للذكرى ، وتقف منه الفطرة المتغيرة موقف الغافل اللاهي ، لكن أسلوب القرآن الذي يكثر فيه الاستفهام قبل الإجابة ، يهز الفطرة اللاهية فتصغي ، وعندئذ تشترك مع الفطرة السليمة في سماع الجواب » [(١)] .

❁ ❁ ❁

(١) « دليل الأنفس » ص (٢٦ ، ٢٧) .

الكلمة الدينية عصا موسى

« إن (الكلمة الدينية) أبدًا ليست كسائر الكلام ! إنها باختصار شديد : (عصا موسى) ! فما دام الإنسان له قابلية للتدين ؛ فإنه حينئذ يحمل وجدانًا ذاتيًّا ، وبذورًا قوية متأهبة ، تحتاج إلى مجرد السقي لتنشق الأرض بقوة كي تعمر المكان خضرة وجمالًا .

إن مشهد موسى في القرآن لهو من الروعة بمكان ! ذلك أنه إذ رأى حبال السحرة وعصيهم كأنها ثعابين وأفاعٍ تسعى بين يديه أوجس في نفسه خيفة أن تنهزم حجته ويكون من المغلوبين ، لكن الله حينئذ أمره بأن لا يأبه لذلك ولا يهتم ، وإنما عليه أن يلقي عصاه ! وإن العصا ستفعل فعلها بإذن الله ، لا بعبقرية موسى ! قال الله ـ عز وجل ـ : ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٦ – ٦٩] . وقال سبحانه في سورة أخرى : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١٧ – ١١٩] .

وإنما (عصا موسى) في هذه الرسالة هي القرآن الكريم معجزة نبي الإسلام محمد بن عبد الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فالكلمة القرآنية موظفة في أي سياق دعوي أو أي نمط إصلاحي لها ما لعصا موسى من الأثر الغيبي ، والتأثير الوجداني . وإنما على الداعية أن يلقي (عصاه) ليس إلا ! » [(١)] .

لقد دخل التدافع الحضاري بين الأمة المسلمة وبين خصومها مرحلة مختلفة عن ذي قبل ، حيث صار الرهان الغربي اليوم قائمًا على تدمير الفطرة الإنسانية في

---

(١) « الفجور السياسي » للدكتور فريد الأنصاري ـ رحمه الله ـ ص (١٢٨ ، ١٢٩) .

الأمة ، بما يجعلها قابلة للابتلاع العولمي الجديد في دينها وأخلاقها وقيمها وسياستها واقتصادها وعمرانها ، وسائر نمط عيشها على الإجمال ، الأمر الذي لم يمر مثله في التاريخ بهذا العمق وهذا الشمول .

الخطر الجديد يستهدف الوجود الشخصاني للأمة بأكمله ، ويحاول اجتثاثه من أصله ، بوسائلَ أكثر تدميرًا ، ربما كان الأسلوب العسكري أقل منها وأهون تأثيرًا [(١)] .

ومن هنا فإن « التدين الفطري » في المجتمع هو العمق الاستراتيجي للدعوة الإسلامية ، وأخطر ما يهدد هذا التدينَ هو « **خوارم** » الفطرة ومفسداتها ، من فساد البيئة التربوية والاجتماعية ، وفساد الغزو الثقافي والإعلامي والفني ، وفساد الكيد السياسي ، كل ذلك يحاصر التدين ويحاول أن يجبره على التراجع [(٢)] .

وتأتي سنة « المدافعة » الاجتماعية عبر إيقاظ الفطرة وتدعيمها ، مع استصحاب الدعوة إلى التدين الاختياري المكتسب كما قال تعالى : ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥] .

وبهذا تصطبغ الخريطة المجتمعية بلون الحنيفية الصافي ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨] .

❁ ❁ ❁

(١) « الفطرية بعثة التجديد المقبلة » للدكتور فريد الأنصاري ـ رحمه الله ـ ص (١١ ، ١٢) بتصرف .

(٢) انظر : « الفجور السياسي » للدكتور فريد الأنصاري ـ رحمه الله ـ .

وهذا آخر ما تيسر جمعه من مادة هذا الكتاب ، تبصرةً وذكرى لأولي الألباب ، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله ، وسلَّم ، وبارك على نبيه محمدٍ ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين ، وآخر دعوانا أن ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ .

ثغر الإسكندرية في

الجمعة ٢٨ من ذي القَعدة ١٤٣٤ هـ

الموافق ٤ من أكتوبر ٢٠١٣ م

الفهارس العامة

أولًا: فهرس الأحاديث

طرف الحديث	رقم الصفحة
أحب الأديان إلى الله الحنيفية	٩٤
إذا أتيت مضجعك فتوضأ	٦٤
أصبت الفطرة	١٢٧
أصبحنا على فطرة الإسلام	٦٥
أعذر الله عز وجل إلى امرئ	١٩
اغتنم خمسًا قبل خمس	٢٠
اللهم لك الحمد أنت نور السموات	١١
إن الله أمرني أن أقرأ عليك	٩٤
إن الله يصنع كل صانع	١٥٤
إن أهل النار ليبكون حتى لو	١٥
إني خلقت عبادي حنفاء ٣٧، ٤٥، ٨٩، ١٤١، ١٦٧	
إني لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية ٩٤، ١١٠	
أي عم! قل لا إله إلا الله	١٦٨
بادروا بالأعمال ستًّا طلوع الشمس	٢٠
بادروا بالأعمال فتنًا كقطع	٢٠
الحمد لله، نستعينه، ونستغفره	٧٧
خمس من الفطرة	٦٦
على الفطرة	٦٦، ١١٦
فأما من كان منكم من أهل السعادة	٤٨
فإنه لا يضر إلا نفسه	١١، ٧٧
فأيهم تعده لرغبتك ورهبتك؟	١٦٤
قد رأيته في المنام، فرأيت عليه	١٠٧
كان صلى الله عليه وسلم يخلو بغار حراء	٩٠
كان صلى الله عليه وسلم يقوم من الليل حتى	٢١
كل خَلْقِ الله ـ عز وجل ـ حَسَن	١٧٣

ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ٨٩ ، ١٤١
أي إخواني ! لمثل هذا اليوم ٢٠
كل الناس يغدو فبائع نفسه ٤٨
لقد نزلت عليَّ الليلة آيات ٥
ما حملكم على قتل الذرية ؟ ٧١
هُديتَ الفطرة ١٢٧
هم من آبائهم ٧٣
والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي ١٠
والله لأستغفرن لك ما لم أُنه عنك ١٦٨
وأما الرجل الطويل الذي في الروضة ٧٢
وأما الولدان الذين حوله ٧١
وأولاد المشركين ٧١ ، ٧٢
كل مولود يولد على الفطرة ٢٤ ، ٣٦ ، ٦٣ ، ١٤١
لا تزال أمتي بخير ما لم يؤخروا ٦٦
لا تسبوا ورقة فإني رأيت ١٠٧
يأتي شيطانُ أحدكم فيقول ١٦٧
يا حُصين كم تعبد اليوم إلهًا ١٦٤
يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري ١١ ، ٧٦
يبعث يوم القيامة وحده ١٠٦
يجاء بالموت يوم القيامة ١٧
يرسل البكاء على أهل النار ١٥
يُقال للرجل من أهل النار يوم القيامة ٤
يقول الله لأهون أهل النار عذابًا ٤٢

ثانيًا: فهرس الآثار

أخبرنا يا أستاذ عن هذه الضرورة	أبو جعفر الهمداني	١٦٥
ارجع ! فإنه يوشك أن يظهر	راهب بالموصل	٩٨
إلهي إله زيد ، وديني دين زيد	ورقة بن نوفل	١٠٤
إني لعلي أن أدين بدينكم فأخبرني	زيد بن عمرو بن نفيل	٩٨
حيَّرني الهمداني	أبو المعالي الجويني	١٦٥
ديني دين إبراهيم ، وإلهي	زيد بن عمرو بن نفيل	٩٨
عجبت لطالب الدنيا ، والموت يطلبه	.....	٣
عرفت ربي بربي	ذو النون المصري	٥٨
كنت لا أدري ما (فاطر السموات والأرض)	ابن عباس	٢٣
لأهل النار خمس دعوات	محمد بن كعب	١٦
لقد رأيتُ زيد بن عمرو بن نفيل	أسماء بنت أبي بكر	٩٧
ما صلَّيت ، ولو مُتَّ مت على غير الفطرة	حذيفة	٦٥
من مات أبواه وهما كافران	أحمد بن حنبل	٧٠
نعم ، لأنه وُلد على الفطرة	أبو هريرة	٦٩
هذا الناموس الذي نزل الله	ورقة بن نوفل	١٠٦
هو مبتدع ، عرفنا كل شيء بالله	ابن أبي حاتم	٥٨
والله لولا اللهُ ما اهتدينا	عبد الله بن رواحة	٥٨
يُصَلَّى على كل مولودٍ متوفى	الزهري	٧٠

ثالثا: فهرس المراجع

(أ)

ـ الإبانة ـ ابن بطة العكبري .

ـ اجتماع الجيوش الإسلامية ـ ابن قيم الجوزية .

ـ أحكام أهل الذمة ـ ابن قيم الجوزية .

ـ أخذ الميثاق ـ عبد العزيز العثيم .

ـ الأدب المفرد ـ محمد بن إسماعيل البخاري .

ـ الأدلة النقلية العقلية على أصول الاعتقاد ـ د. سعود العريفي .

ـ الأذكار النواوية ـ النووي .

ـ إرشاد الساري ـ القسطلاني .

ـ أساس البلاغة ـ الزمخشري .

ـ الإسلام دين الفطرة والحرية ـ عبد العزيز جاويش .

ـ الإسلام في عصر العلم ـ محمد فريد وجدي .

ـ الإسلام والعقل ـ د. عبد الحليم محمود .

ـ الإسلام يتحدى ـ وحيد الدين خان .

ـ الإصابة في معرفة الصحابة ـ ابن حجر العسقلاني .

ـ أضواء البيان ـ محمد الأمين الشنقيطي .

ـ الأعلام ـ الزركلي .

ـ أعلام الحديث ـ الخطابي .

ـ إغاثة اللهفان ـ ابن القيم .

ـ الله ـ عباس محمود العقاد .

(ب)

ـ بحوث في الثقافة الإسلامية ـ د. حسن عبد الظاهر وآخرون .

ـ بدائع التفسير ـ ابن القيم ـ جمع يسري السيد محمد .

ـ البداية والنهاية ـ ابن كثير .

ـ البعث والنشور ـ البيهقي .

ـ بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ـ محمود شكري الألوسي .

ـ بيان تلبيس الجهمية ـ ابن تيمية .

(ت)

ـ التاريخ الكبير ـ البخاري .

ـ التأملات في الفلسفة الأولى ـ ديكارت .

ـ تجريد التمهيد ـ ابن عبد البر .

ـ التحرير والتنوير ـ ابن عاشور .

ـ تراثنا الفكري ـ محمد الغزالي .

ـ تربية المراهق ـ د. محمد الزعبلاوي .

ـ تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية ـ جمع إياد القيسي .

ـ تفسير القرآن العظيم ـ ابن كثير .

ـ التفسير الكبير ـ الرازي .

ـ التمهيد ـ ابن عبد البر .

ـ تيسير الوحيين ـ عبد العزيز بن راشد النجدي .

(ج)

ـ جامع الأصول ـ ابن الأثير .

ـ جامع البيان في تأويل آي القرآن ـ الطبري .
ـ جامع الرسائل والمسائل ـ ابن تيمية .
ـ جامع العلوم والحكم ـ ابن رجب الحنبلي .
ـ الجامع لأحكام القرآن ـ القرطبي .
ـ الجنة والنار ـ د. عمر الأشقر .
ـ الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ـ ابن تيمية .

(ح)

ـ الحديقة الفكرية في إثبات وجود الله بالبراهين الطبيعية ـ محمد فريد وجدي .
ـ حياة قلم ـ عباس محمود العقاد .

(د)

ـ درء تعارض العقل والنقل ـ ابن تيمية .
ـ الدر المنثور ـ السيوطي .
ـ دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب ـ الشنقيطي .
ـ دلائل النبوة ـ البيهقي .
ـ الدلالة العقلية في القرآن ـ د. عبد الكريم العبيدات .
ـ دليل الأنفس ـ د. محمد عز الدين توفيق .
ـ الدين ـ د. محمد عبد الله دراز .

(ر)

ـ رجال ونساء أسلموا ـ عرفات العشي .
ـ الرد على المنطقيين ـ ابن تيمية .
ـ الروح ـ ابن القيم .
ـ روح المعاني ـ الألوسي .

(ز)

ـ زاد المسير في علم التفسير ـ ابن الجوزي .

ـ زاد المعاد ـ ابن القيم .

(س)

ـ السراج المنير ـ الشربيني .

ـ سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ الألباني .

ـ سلسلة الأحاديث الضعيفة ـ الألباني .

ـ السنة ـ ابن أبي عاصم .

ـ سنن ابن ماجه .

ـ سنن أبي داود .

ـ سنن الترمذي .

ـ سنن النسائي .

ـ سير أعلام النبلاء ـ الذهبي .

ـ السيرة النبوية ـ ابن هشام .

ـ السيرة ـ ابن إسحاق .

ـ سيكولوجية الطفولة والمراهقة ـ إبراهيم قشقوش .

(ش)

ـ شرح حديث « كل مولود يولد على الفطرة » ـ تقي الدين السبكي .

ـ شرح السنة ـ البغوي .

ـ شرح صحيح مسلم ـ النووي .

ـ شرح العقيدة الطحاوية ـ ابن أبي العز .

ـ شرح القصيدة النونية ـ د. محمد خليل هراس .
ـ شرح مشكل الآثار ـ الطحاوي .
ـ شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ـ ابن القيم .

(ص)

ـ الصحة النفسية من منظور إسلامي ـ د. صالح الصنيع .
ـ صحيح ابن حبان .
ـ صحيح ابن خزيمة .
ـ صحيح أبي داود .
ـ صحيح البخاري .
ـ صحيح الترمذي .
ـ صحيح السيرة النبوية ـ الألباني .
ـ صحيح مسلم .

(ض)

ـ ضعيف أبي داود ـ الألباني .
ـ ضوابط المعرفة ـ د. عبد الرحمن حبنكة .

(ط)

ـ طرح التثريب بشرح التقريب ـ الحافظ العراقي وابنه أبو زرعة .

(ع)

ـ عارضة الأحوذي ـ ابن العربي .
ـ العقائد ـ حسن البنا .
ـ عقيدة المؤمن ـ الجزائري .

ـ علاقة صفات الله تعالى بذاته ـ راجح الكردي .
ـ العلل ـ ابن المديني .
ـ علم النفس الحديث من منظور إسلامي ـ د. مالك البدري .
ـ عمدة القاري ـ العيني .
ـ العواصم والقواصم ـ ابن الوزير .

(ف)

ـ فتح الباري ـ ابن حجر العسقلاني .
ـ فتح القدير ـ الشوكاني .
ـ الفجور السياسي ـ د. فريد الأنصاري .
ـ الفصل ـ ابن حزم .
ـ الفطرة ـ علي بن عبد الله القرني .
ـ الفطرية ـ د. فريد الأنصاري .
ـ في ظلال القرآن ـ سيد قطب .

(ك)

ـ الكاشف عن حقائق السنن ـ الطيبي .
ـ كشف الأستار عن زوائد البزار ـ الهيثمي .
ـ كشف المناهج والتناقيح في تخريج أحاديث المصابيح ـ صدر الدين المناوي .
ـ الكلمة المقدسة ـ محمد المقدم .
ـ كواشف وزيوف ـ د. عبد الرحمن حبنكة .

(ل)

ـ لباب التأويل في معاني التنزيل ـ الخازن .

ـ لسان العرب ـ ابن منظور .
ـ لماذا يُسلمون ؟ ـ محمد خير يوسف .

(م)

ـ الماتريدية ـ الشمس الأفغاني .
ـ مجلة منار الإسلام ـ نوفمبر ٢٠٠٥م .
ـ مجمع الزوائد ـ الهيثمي .
ـ مجموع الفتاوى ـ ابن تيمية .
ـ محاسن التأويل ـ القاسمي .
ـ المحرر الوجيز ـ ابن عطية .
ـ مختصر العلو للذهبي ـ الألباني .
ـ مدارج السالكين ـ ابن القيم .
ـ المستدرك ـ الحاكم .
ـ المسند ـ الإمام أحمد .
ـ مسند الطيالسي ـ أبو داود الطيالسي .
ـ معالم السنن ـ الخطابي .
ـ معاني القرآن وإعرابه ـ الزجاج .
ـ المعجم الكبير ـ الطبراني .
ـ معجم مقاييس اللغة ـ ابن فارس .
ـ المعجم الوسيط ـ مجمع اللغة العربية .
ـ المعرفة في الإسلام ـ د. عبد الله بن محمد القرني .
ـ مفتاح دار السعادة ومنشور وَلاية العلم والإرادة ـ ابن القيم .

ـ المفردات ـ الأصبهاني .
ـ مفهوم الفطرة ـ عبد الله البيشي .
ـ مقومات التصور الإسلامي ـ سيد قطب .
ـ مناهج الاستدلال على مسائل العقيدة الإسلامية ـ د. أحمد القوشتي .
ـ منهاج السنة النبوية ـ ابن تيمية .
ـ موسوعة علم النفس ـ د. فرج طه .
ـ موسوعة المسلم في التوبة ـ د. منير البياتي .
ـ موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين ـ مصطفى صبري .

(ن)

ـ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ـ البقاعي .
ـ النهاية في غريب الحديث والأثر ـ ابن الأثير .

(و)

ـ ورقة بن نوفل في بُطنان الجنة ـ د. عويد المطرفي .
ـ وظيفة الدين في الحياة ـ د. وهبة الزحيلي .

رابعاً: فهرس الموضوعات

الموضوع **الصفحة**

مدخل

لماذا كانت قضية الإيمان أخطر قضية في حياة كل إنسان ؟ ٣

من رحمة الله تعالى بعباده أنه يسَّر لهم طريق الإيمان وسهَّله ٤

تنوع مظاهر هذه الرحمة :

١ – أنه أخذ منهم الميثاق القديم وقرَّرهم بالتوحيد ، فأقروا ٤

٢ – أنه فطرهم على التوحيد والإسلام له ٤

٣ – أنه ميزهم على سائر الكائنات بالعقل ليعرفوا به حقيقة التوحيد وبطلان الإشراك به ٥

ـ أوجب الله تعالى على العباد أن يتفكروا في خلق السموات والأرض....... ٥

ـ قصة إسلام شاب استرالي بسبب آية تحث على التأمل في خلق السموات والأرض.. ٥

ـ فكرة جميلة .... لكنها حرفية ٦

ـ معرفة وجود الرب ـ عز وجل ـ أوضح المعارف للعقل البشري ٦

ـ لم يرسل الله الرسل لإثبات وجوده، ولكن ليدعوا إلى توحيد الله تعالى..... ٧

٤ – إرسال الرسل لهداية الناس أعظم نعم الله ـ تعالى ـ على البشرية ٧

كلَّف الله الكافر أن يجتهد في البحث عن الدين الحق ، وأن يصيب الدين الحق ... ١٠

حقائق الوجود ستبقى حقائق وإن جحدها أو كذَّب بها بعضُ الناس ١١

من زاغ عن الحق فإنه لا يضر إلا نفسه ، ولا يضر الله شيئًا ١١
إذا سمع أي عاقل وصف عذاب النار بأنه (خالد) فلا يسعه إلا أن يتعامل مع قضية الإيمان والكفر بأقصى درجات الجدية ١٢
نار الدنيا مخلوقة لِحِكَم أهمها : تذكير الناس بنار الآخرة ١٣
من نعم الله على الثقلين أنه وصف لهم تفاصيل أحوال أصحاب النار وهم في دار التكليف ١٣
ذكر بعض أحوال أهل النار يوم القيامة من لحظة رؤيتها إلى أن يُذبح الموت ١٣
الحياة فرصة ثمينة لن تتكرر ، فعلينا اغتنامها قبل فواتها ١٧
يكثر في القرآن الكريم صيغة (افعلوا .. من قبل) ١٧

تعريفات :

١ – الفطرة لغة ٢٣
٢ – الفطرة اصطلاحًا ٢٤
٣ – العلم الضروري ، والعلم النظري ٢٥
٤ – الدور السبقي ٢٥
٥ – التسلسل ٢٦
معرفة الله وتوحيده فطرية ضرورية ٢٧
المقصود بفطرية معرفة الله وتوحيده ٢٧
للفطرة حقيقتان : نفسية ، وشرعية ٢٨

الفصل الأول

الحقيقة الشرعية للفطرة

دلت نصوص الكتاب والسنة على اقتضاء الفطرة الإسلام ٣١

أكثر الصحابة والتابعين والأئمة ذهبوا إلى أن الفطرة تقتضي الإسلام ٣١

الأدلة على الحقيقة الشرعية للفطرة :

الدليل الأول : قوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ الآية ٣٢

تحقيق المراد من قوله تعالى : ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ ٣٥

الفرق بين تبديل الفطرة وتغييرها ٣٩

الفطرة مقتضية للتوحيد وليست مجرد القابلية للتوحيد ٤١

أقسام المدركات الذهنية ٤١

الدليل الثاني : أن الفطرة أثر العهد والميثاق في عالم الذر ٤٢

قول بعض العلماء إن الميثاق هو الفطرة ٤٥

ذكر جملة من الآيات تتضمن الإشارة إلى معنى آية الميثاق ٤٦

فطرة الميلاد امتداد لفطرة الميثاق..... ٥٢

الدليل الثالث : افتتاح جميع الرسل دعوتهم بالأمر بعبادة الله وحده ٥٤

القلب الغافل عن الفطرة في حال السراء تستيقظ فطرته في الضراء ٥٦

الرسل يذكرون الناس بالفطرة ٥٦

أرسل الله الرسل لتقرير الفطرة وتكميلها لا لتغييرها وتحويلها ٥٦

قضية إثبات وجود الله تعالى ليست من مقاصد الرسالات السماوية ، وذكر نقول عن العلماء والمفكرين في أن معرفة الخالق ضرورية فطرية..... ٥٨
الدليل الرابع : حديث : « **كل مولود يولد على الفطرة** ... » ٦٣
يترجح في الحديث أن المقصود بالفطرة فيه معناها الشرعي دون اللغوي ٦٣
وذلك من وجوه :
الأول : ألفاظ الحديث المختلفة ٦٣
الثاني : هذا هو المعنى الشائع في كثير من النصوص النبوية ٦٤
الثالث : ذكر التهويد والتنصير والتمجيس دون الإسلام ٦٧
الرابع : تشبيه المولود على الفطرة بالبهيمة تولد جمعاء ٦٨
الخامس : إتْباع أبي هريرة روايته بتلاوة قوله تعالى : ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ ٦٩
فتاوى عن السلف تؤكد هذا المعنى ٧٠
لا تعارض بين ولادة الطفل على فطرة الإسلام وبين إلحاقه بأبويه الكافرين في الأحكام الدنيوية ٧٠
السادس : سؤالهم عقب الحديث عمن يموت من أطفال المشركين ٧٠
من الأدلة على نجاة أولاد المشركين ٧١
شبهة : قال بعضهم : لو كان الطفل يُولَد مسلمًا – إذا وُلد من أبوين كافرين – لوجب أن لا يرثهما ، ولا يرثانه لاختلاف الدين..... ٧٢
جواب الشبهة : يجب التمييز بين أحكام الدنيا وأحكام الآخرة ٧٢

السابع : هذا التفسير للفطرة هو المعروف عن السلف ٧٤
تنبيه خطير : نسبة إفساد الفطرة إلى الأبوين ليس مُسَوِّغًا للانحراف عن
الفطرة ٧٤
المرء يكون « ضحية » مادام طفلًا ، فإذا صار مكلفًا يصبح مسؤولًا عن
الإيمان ، ولا يُغني عنه الاحتجاج بتقليد الأبوين ٧٤
نصوص من القرآن المجيد في ذم تقليد الآباء في الضلال ٧٤
نصوص شريفة تبين أن كل إنسان مسؤول عن أعماله مسؤولية شخصية
فردية ، لا يعفيه من عواقبها حشدُ المعاذير ٧٦
فائدة : المسلم ـ الذي نشأ بين أبوين مسلمين ـ لا يوصف بأنه مقلد لهما ٧٨
اختيار حافظ المغرب الإمام ابن عبد البر في معنى حديث الفطرة ٧٩
الفرق بين الإيمان الفطري ، والإيمان الكسبي ٨١
شيخ الإسلام ابن تيمية يعلق على كلام الإمام الحافظ ابن عبد البر ٨٢
كلام نفيس للإمام ابن القيم حول معنى اقتضاء الفطرة الإسلام ٨٣
سمَّى الله ما كَمَّل به موجبات الفطرة ذِكْرًا ، وذِكرى ، وجعل رسوله مُذَكِّرًا .. ٨٦
الدليل الخامس : حديث عياض المجاشعي وفيه قوله تعالى في الحديث
القدسي : « **إني خلقت عبادي حنفاء** » الحديث ٨٩
بيان معنى الحنيف ، وشواهده ٨٩
النصوص الدالة على أن الحنيف معناه المسلم الموحِّد ٩٣

فصل : المتحنفون في الجاهلية

مَن الحنفاء ؟ ولم سُمُّوا بذلك ؟ ٩٥
ذكر كوكبة من الحنفاء جماعاتٍ وأفرادًا ٩٥
من أفراد الحنفاء ٩٦
ومن أعيان الحنفاء : زيد بن عمرو بن نفيل ٩٧
ومن أعيان الحنفاء : ورقة بن نوفل ١٠٠
نفي نصرانية التثليث عن ورقة بن نوفل ١٠٢
أدلة من نفي تنصر ورقة بن نوفل..... ١٠٣
ورقة من الصحابة – رضي الله عنهم أجمعين ١٠٧
دلالة موقف المتحنفين على اقتضاء الفطرة الإسلام ١٠٨
فائدة من حديث عياض بن حمارٍ المجاشعي – رضي الله عنه – ١٠٩
ذكر آيتين كريمتين تدلان على اقتضاء الفطرة الإسلام ١١٢
الآية الأولى : قوله تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾ ١١٢
الآية الثانية : قوله سبحانه : ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ ١١٣

الفصل الثاني

إشكالات وجوابها

الشبهة الأولى : قولهم : الطفل لا يعلم شيئًا عند ولادته ، فكيف يقال إنه مسلم ؟ .. ١٢١
تفصيل الجواب عن هذه الشبهة ١٢١

علماء النفس يسمون مرحلة المراهقة : مرحلة اليقظة الدينية ١٢٣
لماذا تتحدث الدراسات النفسية الغربية عن « ظاهرة الشك الديني » عند المراهقين ؟ ١٢٣
الشبهة الثانية : لو كان الأطفال مفطورين على الإسلام عند ولادتهم ؛ ما انتقلوا عنه أبدًا ، وقد نجدهم يؤمنون ثم يكفرون ١٢٧
ذكر الجواب عن هذه الشبهة ١٢٧
الشبهة الثالثة : كيف تكون الفطرة هي الإسلام ، مع أن الإسلام قول باللسان ، واعتقاد بالقلب ، وعمل بالجوارح وهذا معدوم من الطفل ؟ ١٢٩
ذكر الجواب عن هذه الشبهة ١٢٩
الشبهة الرابعة : كيف يولد كل الناس على الإسلام ، مع أن الحديث القدسي فيه قول الله – تعالى ـ : « يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته » ؟ ١٣٠
الجواب عن هذه الشبهة ١٣٠

الفصل الثالث

الحقيقة النفسية للفطرة

قابلية الإنسان للعلم والإرادة ١٣٧
الفطرة السليمة إذا لم يحصل لها من يفسدها كانت مقرة بالصانع عابدة له ... ١٣٨
مثل الفطرة مع الحق كبصر العين مع الشمس ١٣٨
عماد الفطرة قوتان : قوة العلم ، وقوة الإرادة ١٣٨
دلالة القوة العلمية للفطرة على وجود الله تعالى ، وإثبات الكمال له عَزَّ وجل... ١٣٩

كلام نفيس للإمام ابن القيم حول الأدلة العقلية على الحقيقة النفسية للفطرة... ١٤٥

اكتشف نفسك

معرفة أغوار النفس البشرية أهم وأسهل من اكتشاف آفاق الفضاء السحيق .. ١٥٣
فشل « علم النفس » في تعريف « النفس » ١٥٤
« علم النفس الغربي » المادي يتصادم مع الإسلام في كثير من منطلقاته ١٥٥

الفصل الرابع

الدليل الفطري

المصادر العامة للتلقي عند أهل السنة والجماعة ١٦١
مكانة الدليل الفطري وحجيته ١٦٢
من مظاهر تعظيم الإسلام للفطرة ١٦٢
الدليل الفطري سابق على الدليل الشرعي والدليل العقلي ١٦٢
الفطرة تقدم على العقل عند التعارض ١٦٢

قضايا عقدية يُستدل عليها بالفطرة :

١ – وجود الله تعالى ١٦٣
٢ – توحيد الخالق – عز وجل – وعبادته وحده ١٦٤
٣ – علو الله على خلقه ١٦٤
٤ – إثبات الكمال المطلق لله – عز وجل – في ذاته وأسمائه وصفاته ١٦٥
٥- الإقرار باليوم الآخر ودار الجزاء ١٦٦

من مظاهر تعظيم الإسلام للفطرة :

حرصه على حراستها وصيانتها من كل خوارمها ومفسداتها ١٦٧

الفصل الخامس

مؤيدات الفطرة في عصرنا

كن صديقًا لفطرتك ١٧٣

« الطبيعة الفطرية » هي أطهر وأسلم وأصح ما تكون ما لم يفسدها التلوث البيئي : العقدي والتربوي ١٧٣

علم البيولوجيا الإلكترونية (Bionics) يرسخ مبدأ مثالية الأوضاع الفطرية الأصيلة في الكائنات الحية ١٧٤

« كن صديقًا لفطرتك الإسلامية » أولى من المبدأ العام : « كن صديقًا للبيئة » . ١٧٦

شهادة العلم الحديث

« **جين الإيمان** » **شاهد من أهلها** ١٧٧

بدأ العلم الحديث يقترب من اكتشاف حقيقة الفطرة ١٧٧

ـ علم الـ Neuro-theology ١٧٧

ـ كتاب (دين هامر) The God Gene ١٧٧

ـ كتاب (نيوبرج) و(وُلدمان) Born To Believe ١٧٨

ـ كتاب (ألبَر) The God Part Of The Brain ١٧٩

ـ كتاب (نيوبرج) وآخرين Why God Won't Go Away? ١٧٩

ـ خطورة المقابلة بين « العلمي » و« الديني » تأثرًا بالثقافة الغربية المادية ١٨٠

ـ الدين (عِلم) عن طريق الوحي ١٨٠

« **فطرية الإسلام** » ، **وليس** « **غريزة التدين** » **بأي دين** ١٨١

شهادة الواقع

كثير من المهتدين إلى الإسلام يصرحون بأن الانجذاب إلى الإسلام كان شعورًا فطريًّا دائمًا لديهم ، وسرد نماذج من أقوالهم في هذا الشأن ١٨٤

حل اللغز

ـ جهات عالمية عديدة تصرح بأن الإسلام أسرع الأديان انتشارًا في العالم.... ١٨٨
ـ لغز انتشار الإسلام بالرغم من جهود الصد عن سبيل الله – عز وجل – .. ١٨٩
ـ « الفطرة » هي السر في انجذاب الناس إلى دين الله تعالى ١٩٠

العودة إلى الفطرة ميلاد جديد

يولد العبد – بشهادة التوحيد – ميلادًا جديدًا ، ويتحول كيانه تحولًا مدهشًا ... ١٩١
أمثلة لهذا « الميلاد الجديد » في حق الأمم والأفراد ١٩١

الفصل السادس

استثمار الفطرة في الخطاب الدعوي

– تذكير الناس بأصل فطرتهم من وظائف الأنبياء – عليهم السلام – ١٩٧
– موقف علم الكلام من الفطرة سلبي ويتصادم مع أسلوب القرآن ومنهاج النبوة ... ١٩٧
– فطرية الخطاب القرآني..... ١٩٩
– الكلمة الدينية عصا موسى عليه السلام ٢٠٤
– الرهان الغربي في عصر العولمة قائم على تدمير فطرة الأمة ٢٠٥
– التدين الفطري في المجتمع هو العمق الاستراتيجي للدعوة الإسلامية ... ٢٠٥
– التدافع الاجتماعي يقاوم خوارم الفطرة ويحفظ تدين الأمة ٢٠٥

الفهارس العامة

أولًا : فهرس الأحاديث ٢٠٧
ثانيًا : فهرس الآثار ٢٠٩
ثالثًا : فهرس المراجع ٢١٠
رابعًا : فهرس الموضوعات ٢١٨